مجاناً مع دبي الثقافية

نبيل سليمان

مدائن الأرجوان

روايـــة

كتاب 78 دبي الثقافية

مارس 2013

كتاب
دبي الثقافية

يصدر عن مجلة دبي الثقافية
ويوزع مجاناً مع المجلة
الإصدار 78

نبيل سليمان

مدائن الأرجوان
رواية

■ الطبعة الأولى، مارس ٢٠١٣

■ حقوق الطبع محفوظة لدار الصدى

كتاب دبي الثقافية

المدير العام رئيس التحرير
سيف محمد المري

مدير التحرير
نواف يونس

متابعة
يحيى البطاط
محمد غبريس

المدير الفني
أيمن رمسيس

الإخراج والتنفيذ
محمد سمير

مدير العلاقات العامة
محمد بن مسعود

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار
الصدى
للصحافة والنشر والتوزيع

عناوين المجلة
www.alsada.ae

■ التحرير والادارة دبي:
الإمارات العربية المتحدة دبي
منطقة الصفا شارع الشيخ زايد
هاتف: ٣٤٢٢٢٢٤/ ٩٧١٤+
فاكس: ٣٤٢٢٢٦٦٦ ٣٤٢٢٩٢٩/ ٩٧١٤+
أبوظبي هاتف: ٦٢٦٨٨٩٢/ ٩٧١٢+
فاكس: ٦٢٦٨٨٨٣/ ٩٧١٢+

■ الإعلانات والتسويق:
دبي شارع الشيخ زايد
برج المدينة (٢) شقة ٤٠٢ ص.ب: ٢٩٠٦٦
هاتف: ٣٣١٤٣١٤/ ٩٧١٤+
فاكس: ٣٣٢٢٢٩٣/ ٩٧١٤+

■ التوزيع والاشتراكات:
هاتف: ٣٤٩٠١٠٠/ ٩٧١٤+
فاكس: ٣٤٩٠٦٠٠/ ٩٧١٤+

هذا الإصدار

بقلم: سيف المري

قراءنا الأعزاء، يسعدنا ويشرفنا في مجلة «دبي الثقافية» أن نتواصل معكم من خلال هذا الإصدار رواية «مدائن الأرجوان» للناقد والروائي نبيل سليمان، محاولين التواصل مع جميع قراء مجلتنا على رغم الصعوبات التي يمر بها عالمنا العربي وهو يعيش هذه المرحلة الجديدة من تاريخه.

وها نحن ذا في «دبي الثقافية» نقدم لكم هذا الإصدار واضعين نصب أعيننا ما نذرنا أنفسنا له، وهو نشر الثقافة العربية وتقديمها للقراء الأعزاء من خلال كتاب «دبي الثقافية» الشهري، مع حرصنا على التنويع في شتى مشاربنا الثقافية، تعميماً للنفع، وحرصاً على محاربة الرتابة المفضية إلى الملل، ولن نألوَ جهداً في إضافة المزيد، وكل ما نتمناه من قرائنا الأعزاء هو التواصل معنا، وإتحافنا بآرائهم

وملاحظاتهم حول هذه الإصـدارات التي نقصد بـها خدمة الثقافة العربية، والتعريف برموزهـا، راجين إيجاد العذر لنا عند وجود أي تقصير.

والله من وراء القصد

رواية

مدائن الأرجوان

نبيل سليمان

«ذات مساء جميل كان يُدعى فيه المستقبل ماضياً، في تلك اللحظة، كنا نلتفت إلى الماضي، لنرى شبابنا»

لوي آراغون

* * *

كان رصاص يهمي
والأطفال شظايا أو رايات...
ها هي أجسام المحروقين
المذبوحين
القتلى من أجل الحرية
بقع شمسية

أدونيس

خابية الأرجوان تندلق على الإسفلت:

في الشرفة لبث واصف عمران يتفرج بحياد على باص الحضانة وهو يبتعد بثريا: أليست ابنتك أيها الوغد؟

ما كاد الباص يختفي حتى أسرعت رمزية في الاتجاه المعاكس الذي يقودها إلى مديرية الصحة. وما كادت رمزية تختفي حتى عبّ واصف الهواء عبّاً، ثم أسرع ينهب الدرج العريض العتيق الذي يصل الأرض بالسماء: أليست امرأتك أيها الوغد؟

على السفح، أي على خد القلعة كما تعوّد واصف أن يقول تستلقي أربع وخمسون درجة لتصل بين الشارع وبين البيت العريق الفسيح الذي ورثته رمزية عن أبيها، وانتقلت إليه مع واصف ليلة الدخلة.

من البيت فصاعداً، يُسرع السفح معشباً حتى يبلغ مقام المغربي وجامعه ومقبرته. ثمة، تعوّد واصف أن يصير خذروفاً كل صباح، ليدور حول نفسه، معانقاً البحر من سائر الجهات، كما تعانقه التلة والثكنة وما تبقى من الشجر والشوك والعصافير. غير أن واصف بدّل عادته منذ صدّق أن اللاذقية باتت غير آمنة، أي منذ رآها تتخضّب بالأرجوان أول مرة ذات صباح من شهر منسيّ ربما كان نيسان من سنة منسية، ربما كانت سنة ١٩٨١.

كانت المدينة قد أفاقت على المطر يدفق دفقاً، والدرب الذي على واصف أن يتسلقه إلى تلّة المغربي أو تلّة القلعة، كان موحلاً، لذلك تأخر في الخروج. ومن وسط شارع المالكي انحرف إلى ساحة أوغاريت، ورأى الأعمدة الرومانية تغتسل جذلى، وخبط جذلان على باب بيت الدكتور عبد الرحمن هلال. وفوجئ بزوجة صديقه البلغارية تنبئ بذهاب الدكتور إلى العيادة منذ ساعة: شو شايفها بالمنام!

قرر واصف أن يتأنى تسكعه تحت المطر، فلا أحد يأبه إن وصل إلى الثانوية الصناعية في بداية الدوام أم في نهايته. وحين صحا على أنه قبالة مديرية الصحة وكان المطر قد أخذ يهدأ التجأ إلى رمزية التي هالها بلله كما هال زميلاتها. ولما ذكر عبد الرحمن قالت إنها لمحته خارجاً من مكتبة عريف، فلوحت له، لكنه لم يرها. ولما لوح واصف لها مودعاً في نهاية الكوريدور، صاح صوت مذعور: قتلوا الدكتور عبد الرحمن هلال.

قتلوا من يا مجنونة؟

ربما كان واصف آخر من صاح، مثلما كان آخر من صدّق أن شاباً أو اثنين، ما الفرق حتى لو كانوا عشرة؟ لحق بالدكتور الذي سبق الممرضة وفتح العيادة، وفجأة دوّى الرصاص،

فما الفرق إن كانت رصاصة أم مائة، ما دام القاتل قد خرج يتهادى، وعبد الرحمن ظل ينزف حتى مات قبل أن تصل الممرضة؟

* * *

صباح الأرجوان أو صباح عبد الرحمن: كذلك سمّى واصف ذلك الصباح. ومن صباح إلى صباح، أدمن أن يستعيد ما ظلّ عبد الرحمن يعلمه لأصدقائه وصديقاته منذ كانوا صغاراً يتحلقون حوله على مشهد من أوغاريت، يعتلي حجراً في أية زاوية من زواياها، أو يغمس قدميه العاريتين في الرمل البليل، ويرخّم صوته حتى يصير مثل هسيس موجة: هنا كانت معصرة العنب، وهناك كانت معصرة الزيتون. هنا كان الحداد وهناك كان السباك. أما هنالك وتذهب ذراعه إلى **أ**بعد موجة فكان الصياد والشبكة والطعم: سلطعون يا واصف.

هكذا تعلم واصف أن يفتح غدة السلطعون ويلتقط جزيئاتها الحديدية. لكن عبد الرحمن انتظر حتى مات، ليعلّم واصف وحده من بين أصدقائه جميعاً، كيف يبحر من رأس ابن هاني مع من يصادف من الصيادين، وكيف يصبر حتى يؤوبوا بأحمال الرخويات من كل صنف، وكيف لا يفارق الفعلة وهم يعصرون الأحمال، ثم يملحون العصير ثلاثة أيام بلياليها،

ويتركونه فوق نار هادئة عشرة أيام بلياليها، ثم يعهدون لواصف بالخابية الطافحة بالأرجوان، فلا يصبغ فستاناً من الحرير لرمزية، ولا غطاء من الصوف لأرملة عبد الرحمن، بل يرش صباح اللاذقية بالدم، فتنطوي المدينة خوف الاغتيال، وتنفلش إلى طوائف ومذاهب، وتودع الأمان، بينما يتوحد الدم والأرجوان.

* * *

عبر ذلك كان واصف قد بات لا يطاق: صامتاً دوماً وغاضباً دوماً. وكانت رمزية قد أدمنت أن تعيّره بالخوف وأن تلومه على الانزواء، إذ ما عاد يغادر غرفته إلا في الصباح، ولكن ليس ليتسلق إلى ذروة التلة ويعانق البحر، بل ليعدّ الخطى من رأس شارع المالكي، كما يفعل الآن، ثم ينسى العدّ ما إن يحاذي الباب المتهالك المقبب الذي يخفي المدرسة الأرمنية. ومن أمام الفرن الذي ما زال يخبز على الحطب، يعود واصف إلى العدّ حتى يبلغ الكنيسة، فيتذكر ربما كان كل صباح يتذكر أنه لاقى ورمزية رأس السنة فيها، وكانا لا يزالان عاشقين، وقد صادفا عبد الرحمن عند باب الكنيسة، فتبادلوا العناق والقبلات والصخب، وبارك عبد الرحمن اختيار العاشقين المسلمين الكنيسة مطرحاً للقاء، وسأل رمزية:

- كنيسة من هذه يا شاطرة؟

فأسرعت باعتداد:

- كنيسة اللاتين يا دكتور.

- غلطانة يا شاطرة.

قال عبد الرحمن وهو يدعك أذنها عقاباً، ثم خاطب واصف:

- وأنت يا شاطر: كنيسة من هذه؟

- كنيسة مارنيقولاوس يا دكتور.

- عفارم يا شاطر.

قال عبد الرحمن، وكافأ واصف بدعك أذنه أيضاً، ثم اختفى في زحام العيد، وترك عيني واصف تبحثان عنه كما تفعلان الآن وقد بلغ سينما الأهرام. ولما تجدد يأسه من العثور على عبد الرحمن حياً أو ميتاً، انتقل إلى رصيف سينما الكندي، وأحسّ بالحصار بين ما تعلن عنه هذه السينما وتلك السينما، فاندفع قُدُماً إلى أن أسلمه شارع المالكي إلى الحديقة: لماذا هي قاحلة؟

الكورنيش أيضاً بات قاحلاً صباح مساء، ليس فقط لأن المدينة لم تعد آمنة ليل نهار، بل لأن مذبحة توسيع المرفأ نأت بالبحر عن الكورنيش. من رشّو إلى اللاكابان ومن فينيسيا إلى المتنزه، كل ذلك صار من الماضي، ولم ينجُ من المذبحة

إلا العصافيري. ما عادت أسراب الصبايا تملأ الكورنيش عصر كل يوم، صيف شتاء. ولم يكن الكورنيش ليعدم من يهربون أو يهربن من المدارس والجامعة الناشئة، ليتسكعوا هنا كما يتسكع واصف الآن حتى تستوقفه واحدة من السيارات التي تكاثرت في المدينة إثر اغتيال الدكتور عبد الرحمن هلال، وبات واصف يحفظها عن ظهر قلب: صالون لاندروفر، أي دورية، فما الفرق إن كانت للأمن العسكري أو الأمن السياسي أو أمن الدولة أو سواه، ما دام واصف سيغادر الكورنيش عجلان، وسيتوه من زقاق إلى زقاق، متحاشياً الشوارع، إلى أن يكون عليه أن يقطع آخرها قبل أن يرى نفسه قبالة مقبرة الفاروس، أي تحت الشرفة التي كانت رمزية تطل منها على عشاقها: كيف ظفرت بها وحدك أيها الوغد؟

* * *

بوغت العجوز شوقي المعروف بالأثرم أي والد رمزية بواصف الذي ندر أن حضر إلى بيت حميه، وبخاصة بعد موت والدة رمزية. وعلى العكس مما توقع واصف، لم يشك العجوز من الوحدة أو من عقوق الأبناء والبنات، وعلى رأسهم رمزية. ولعل ذلك ما جعل واصف يسترخي في الصالون المفتوح على المقبرة. وعلى الرغم من أنه أغمض عينيه، فقد كان قادراً على

أن يرى إشارات العجوز تتنقل فوق شواهد القبور، بينما صوته يتأسّى، متابعاً حديثاً لا أحد يدري متى بدأ ولا متى انقطع:

– ما بقي من دير الفاروس حجر على حجر. هذا صحيح. لكن الناس عمّروا الدير بعد التحرير. عسكر صلاح الدين الأيوبي أيضاً عمّروه.

قال واصف مناكداً:

– العسكر دمّروا اللاذقية كلها. شو عمّروا وما عمّروا؟

عندئذ تراخت ذراع العجوز، وزمّ شفتيه، فأشفق واصف عليه. ولكي يستلّ غضبه، راح يمجّد البطل الكردي الذي حرر اللاذقية من الفرنجة، وغفر للعسكر الذين حطموا ما حطموه من الأعمدة الرومانية ومن الألواح والأحجار الرخامية، وحملوا ما لم يحطموه إلى الشام.

كان الرجلان متقابلين ملء الأريكتين الوحيدتين العتيقتين. وبمشقة باعد واصف أجفانه، بينما سأل العجوز بازدراء:

– هل تعرف أين تعلم المعري الفلسفة اليونانية يا أستاذ واصف؟ هنا يا صهري العزيز. هنا في دير الفاروس. هذه المقبرة تشهد. ماذا تعرف أنت؟

قال واصف ساخراً:

– أعرف أن مدينتك جنّنت المعري: هذا بناقوس يدق وذا بمئذنة يصيح.

انتفض العجوز وصاح:

– عمرها اللاذقية ما عرفت الشقاق إلا على أيامكم.

أطبق واصف أجفانه ممتعضاً. وكأنما أصابت الأجفان عدوى العجوز بالشتات، إذ راحت تلاعب الأخيلة: تطير بوالد رمزية من هذه الأريكة إلى المقبرة، تحشر العجوز إلى جانب زوجته، تنبش القبور جميعاً وترسل ساكنيها إلى البحر، تعود بالمقبرة فضاء حراً وملوناً، كما كانت قبل أن يحرر صلاح الدين الأيوبي المدينة أو قبل أن يطمرها بركان. وحلا لأخيلة واصف أن تجمع والد رمزية بأبي العلاء المعري يوماً في كازينو السياحة والاصطياف، وبالمتنبي يوماً في منتجع الشاطئ الأزرق، وأن تشيد بيوتاً صغيرة وحلوة حول الدير، فينهض حي الفاروس، وتطلّ رمزية من هذه الشرفة على عشاقها، ويكاد واصف أن يظفر بها، لولا أن الأرض يزلزل زلزالها، فيأتي صوت العجوز الأثرم متأسياً ومتابعاً حديثاً، لا أحد يدري متى بدأ ولا متى انقطع:

- ما بقي في اللاذقية حجر على حجر. تحولت البيوت إلى قبور. ومن نجا لجأ إلى البساتين.

تساءل واصف بصمت: متى كان ذلك؟ ولأن للعجوز سمع

الخلد، قال:

في مثل هذه الأيام. أواخر نيسان قبل مئتي سنة.

فتمتم واصف ساخراً:

- أقلّ.

قال العجوز غير آبه:

- أقل بقليل. وفي البساتين سرى أن زلازل أكبر سوف تتوالى، فأسرع الناس إلى الأنقاض، وجاءوا بما نجا من البهائم والأشياء، ثم أسرعوا بعيداً.

إلى البحر؟

سأل واصف مصطنعاً البلاهة، فتابع العجوز ساخراً:

- إلى القرى يا فهيم. نصبوا الخيام في البراري يا فهيم، وانتظروا. لكن الله لطف بهم ولم يقع زلزال جديد.

بعد ثلاثين سنة وقع.

قال واصف متعالماً.

أقل بقليل. لكن الطاعون فشا بعد ثلاثين سنة من الزلزال.

هذا صحيح.

تمتم العجوز بصوت ناعس. وبعد قليل سكن تماماً، كأنه أغفى عميقاً، أو مات بسلام كما خمّن واصف، وربما كما تمنى وهو يتسلل.

* * *

عندما عاد واصف إلى البيت كانت السماء قد صحت تماماً، كأنها لم تمطر منذ شهر. وزيّن الغروبُ الصحوَ بألوان فاتنة، لكن واصف كان منهكاً ومنقبضاً.

كان قد قضى بقية نهاره كأنه يتفقد المدينة أو يودعها. وبدت له المدينة مرة على أهبة كارثة، ومرة كأنها خارجة لتوها من كارثة. ولعل ذلك ما جعل استراحاته تبدأ بمسجد جعفر الصادق وتتثنى بكنيسة البروتستانت، ثم تتوزع بين مسجد أبي الدرداء وجامع العوينة وكنيسة الأرمن وجامع الأمشاطي وكنيسة الموارنة وجامع الميناء: هنا طالت استراحة واصف كما طالت قرب ضريح أم السلطان. ومن استراحة إلى استراحة كان يزداد تشوشاً. وقد يكون الجوع ضاعف ما به، وقد يكون الإحساس المبهم بالغربة، على الرغم من التحيات التي تبادلها مع بعضهم ومع بعضهن. وأخيراً تخلى عن عناده وتناول سندويشة الفلافل من عند الحموي كما كان عبد الرحمن هلال يفعل كلما تسنى له، حتى بعد ما صار الطبيب الأول للأمراض العصبية في اللاذقية.

بعد الحموي توحّد ظلاّ واصف وعبد الرحمن: ميت يُبْعَثُ حياً وحيّ يُبْعَث ميتاً. ولكي يصحّ ذلك، اشتبه على الصديقين كل شيء، فحسب كل منهما الآخر تلك الأضحية التي سوف

تُنحر ها هنا، على مرمى حجر، في أي ركن من أوغاريت. وليكن أحدهما طفلاً والآخر طفلة: ما الفرق ما دامت الأضحية ستطلى بالجبس وَتُلَفُّ بالديماس؟

غير أن واصف تمنّى ألاّ يوضع في الناووس. وما دام ذلك مستحيلاً، فقد تمنى ألاّ يُنْزَلَ الناووس إلى القبر. فليكن ذلك من نصيب عبد الرحمن، ليس فقط لأنه سبق إلى الموت، بل لأنه كان يتباهى بجده الفينيقي، وذلك الجد هو من استنّ للأضاحي تلك السنن. وقد يكون من قتل عبد الرحمن، إنما قتله جزاء على فينيقيته أيضاً، وليس فقط لأنه شيوعي أو علوي كما رددت اللاذقية في صباح الأرجوان أو في صباح عبد الرحمن: شو رأيك يا رمزية؟

* * *

لم ينبس واصف بغير ذلك السؤال منذ أوى إلى البيت، فنظرت إليه رمزية باستهجان، وأسرعت إلى غرفة ثريا. وللمرة الأولى أغفى واصف مبكراً، ربما قبل أن تغفو ثريا. وللمرة الأولى يسبق واصف الفجر: خفق قلبه سريعاً، أفاق مجفلاً، هدأ القلب سريعاً وخلّف لصاحبه أثر دغدغة. تبسم الرجل بينما تسللت إلى جفنيه أصابع غليظة وراحت تدعك بقسوة. غارت الابتسامة، وحاص رأس الرجل فراراً من الأصابع التي ازدادت

غلظةً وقسوة. وفجأة اخترقت سمعه رصاصة، بل ثلاث، بل زخّة. زخّة من الرصاص مثل زخّة من المطر. وفجأة تفرقت الرصاصات، ثم أطبق السكون، بينما كان السرير قد كوّر واصف وسمّره ونشّف ريقه. وربما كان سيظل كذلك إلى يوم القيامة، لولا أن رمزية اقتحمت الغرفة بصوت هلوع:

- نايم والدنيا خربانة؟!

- شو صاير؟

تساءل بصوت أكبر هلعاً، ولغط بما لم يتبينه مثلما لم يتبين ما لغطت رمزية به، حتى إذا اقتحمت الشرفة، ورفرفت في الغرفة نسائم الفجر الباردة، أدرك الرجل أن الرصاص قد عاد يزخّ، ولكن مثل البَرَد هذه المرة، وبعيداً عن هذا البيت الآمن في هذا الحي الآمن في هذه المدينة ال...

هل باتت اللاذقية غير آمنة؟

تساءل وهو يجر قدميه إلى الشرفة. ولما التصق كتفه بكتف رمزية، تمنى لو أن سريرها يعود إلى الغرفة. وسرى الدفء في الساعدين اللذين تماسّا مصادفة. وأحسّ واصف برجفة مبهمة سرعان ما أسفرت عن الخوف، بينما أخذ الرصاص يتلاشى. لكن جذع رمزية الذي مسّ جذع واصف مصادفة أيضاً، بدّل الخوف بالشهوة. وانتظرت الشهوة حتى أطبق الصمت، عندئذٍ

طوق ذراع واصف خصر رمزية وهو يهمس:

- خايفة؟

- وأنت؟

همست رمزية باشتهاء أكبر جعل ذراعيها تطوقان عنق واصف، ثم تدفنان وجهه بين ثدييها. وللمرة الأولى منذ تزوجا قبل عشر سنوات سبقت شفتاها شفتيه، وللمرة الأولى أيضاً منذ تزوجا، لم تستح أصابعها منه، بل طاب لها أن تبالغ في الدعك. ولعل ذلك لم يكن سخرية أو انتقاماً، بل فضولاً وحسب. ومهما يكن، فقد جعل الدعك أسنان واصف تصرّ، وأنفاسه تتوجّع.

* * *

وما إن عاد الرصاص يلعلع في فجر المدينة الآمنة حتى غدا واصف كالخرقة. وكانت رمزية قد غادرت الشرفة، وكان واصف قد شيعها بحمد الله على أنها تركت له وحده هذه الغرفة، ونقلت سريرها إلى غرفة ثريا التي لم تكن مشيتها قد استقامت بعد: لماذا تمنى إذاً أن يعود سريرها إلى الغرفة التي أخذت لعلعة الرصاص ترجّها رجّاً؟

لا لا. هذا ليس رصاصاً. هذا على الأقل قنابل تدك دكاً فجر المدينة التي لم تعد آمنة: فكّر واصف وهو ينقذف إلى الغرفة

التي قذفته إلى الصالون، وإذا بثريا تدعك جفنيها، ثم تتثاءب، ثم ترمق أباها بحياد مثلما سترمقه رمزية حين تظهر حاملة حقيبة صغيرة وكيساً أصغر، معلنة بجهامة:

- أنا وثريا ببيت أهلي.

وكل ذلك إذاً قد جرى البارحة. أما الآن، فقد صحا واصف على السكون الصافي والضياء الساطع والوحدة النبيلة: بلا زوجة، بلا بنت، بلا رصاصة، بلا قنبلة، بلا اللاذقية كلها.

نفض الرجل يده من كل شيء، وراح يتقافز بين السرير والحمام وفنجان القهوة ونافذة المطبخ والخزانة والدرج ومدخل البناية الذي فغر كأنه قبر طري يلفظ حمله التافه، أي يرمي هذا الرجل في شارع المالكي كما رماه البارحة، ولكن ليس في مثل هذه الساعة المبكرة، وليس بمثل هذه الخفة: هل أنت فرح حقاً برحيل ثريا ورمزية أيها الوغد؟

يا سيدي فرحان ونص: انتفضت خطواته مؤكدة، وأضافت قبضته وهي تتكور أن الأمان في بيت أهل رمزية أكبر، حي الفاروس أكبر أماناً من حي القلعة، وحي القلعة أكبر أماناً من حي الرمل، بل حي الرمل أكبر أماناً من حي الصليبة، وما دامت اللاذقية كلها ترفل بالأمان، فما كان البارحة إذاً لم يكن: بماذا تهرف أيها الوغد؟

* * *

ظل السؤال يضعضع واصف وينعطف به من شارع المالكي يميناً ويساراً، ليقطع الزقاق تلوالزقاق حتى تطلع له ثانوية جول جمال. ومن خلال صخب الطلاب تـراءى لواصف أن صوت حميه العجوز الأثرم يقترب مباهياً:

ـ هنا درست. كنت في البروفيه، هذه التي تسمونها اليوم الشهادة الإعدادية، عندما كان حافظ الأسد وأدونيس في البكالوريا.

وصار صوت العجوز صدى حنوناً بعدما تذكر أن هذه الثانوية حملت اسم جول جمال عندما صار هو عريساً، ولكن في الأربعين.

جول جمال بطل وبيستاهل: تمتم واصف بما كان عبد الرحمن هلال يردده كلما تذكر جول جمال. كان عبد الرحمن يردد أيضاً أن جول جمال تخضب بالأرجوان كما يليق بالفينيقي. وكرمى لواصف كان يضيف أحياناً: كما يليق باللاذقيّ. وفكر واصف وهو يتقدم نحو مقهى الاسكندرية أن الدم هو ما تخضّب به جول وعبد الرحمن: الأول في البحر والثاني في عيادته، الأول ليرد البارجة الفرنسية عن مصر والثاني ليرّد.. ليرد من عن سورية؟

أسهد السؤال واصف ليالي بطولها منذ ذلك الصباح الذي سماه صباح الأرجوان أو صباح عبد الرحمن. كان الجواب

يصدعه مرة: الإخوان المسلمون، ومرة: المخابرات، ومرة: عملاء صدام حسين، ثم باتت للجواب أخيراً صيغة واحدة: عبد الرحمن هلال يرد عن سورية من قتلوه. وعندئذٍ غط السؤال في بيات عميق، مثله مثل واصف الذي كان يغط في نوم عميق حين أيقظته ثريا بعيد التاسعة باكية، في صباح تائه بين ربيع يودعه وصيف يلاقيه:

- بابا: ما إجا الباص.

وثريا إذاً لن تذهب إلى الحضانة. وسوف يكون على واصف أن يرعاها حتى تعود رمزية من المديرية مديرية الصحة بعد ست ساعات. لكن رمزية عادت بعد ست دقائق تهدر:

– الطرقات مقطوعة يا واصف. لا تكسي ولا باص. خفت أن يأخذوا ثريا إلى الحضانة. لو رحتِ يا ماما كيف كنتِ سترجعين؟ حاولتُ الوصول إلى المديرية. عجزت يا واصف. يقولون: الشيخ يوسف صارم بسلامتك.

سأل واصف بضيق:

- إيه وشو يعني؟

فنظرت إليه بحنق، ثم تابعت الهدير:

- شو يعني؟ يعني قتلوه. يعني خلص، خربت اللاذقية، مثلها مثل حماة ومثل حلب. صارت سوريا كلها مثل لبنان. لا تنس أن الشيخ يوسف علوي. قالوا: هو الإمام، وقالوا: هو المؤذن،

والجامع جامع جعفر الصادق، جامع العلويين. بتعرفْ شو يعني أم أزيدكم شرحاً؟

تجاهل واصف السخرية، ولبد حتى غادرت رمزية وثريا. عندئذٍ اندفع مثل ثور هائج من باب البيت إلى مدخل البناية الذي لم يكن قد أشبه فم القبر بعد. ومن المدخل إلى أربع وخمسين درجة لن يعدها هذه المرة، فإلى الشارع الذي ما كاد يتوسطه حتى أحس بأن أحدهم يلاحقه، وسيقبض عليه بعد خطوة أو خطوتين، كأن واصف عمران هو من قتل الشيخ يوسف صارم. وأخذت الوساوس تتناهبه:

أطلقت الرصاص على المغدور أم طعنته بالسكين؟

بالاثنين يا سيدي.

صف لنا ما فعلت.

كمنت للشيخ أمام بيته يا سيدي، ولما خرج ليرفع الأذان، صحت به: خذ، وأخذ رصاصة في الجبهة، والثانية إلى الأسفل قليلاً، والثالثة في السرة.

ثم أيها المجرم: ماذا فعلت؟

ثم نصبنا الكمين أمام الجامع يا سيدي. وكالعادة، بكّر الشيخ خوفاً من أن يؤم بالمصلين غيره. صحت به: خذ، وأخذ، أخذ طعنة نجلاء واحدة كانت كافية يا سيدي.

لماذا أيها المجرم؟

شقت الصيحة سمع واصف، فنطّ عالياً مثل القرد، ونجا من الحجر الذي هشّم زجاج السيارة الرابضة إلى اليمين، واندفع مع من اندفعوا شرقاً. وحين رأى نفسه يكاد يخرج من المدينة تنبه إلى أنه يبدو نشازاً بين أولاء الشباب، فتباطأ، وفجأة هشمت عصاة أحدهم زجاج السيارة الرابضة فوق الرصيف المقابل. وما كاد واصف يصحو من ذهوله حتى تدافع الشبان الغاضبون نحو الدوّار الذي بدا من بعيد يغص بالسيارات.

بحذر تقدم هو أيضاً من الدوّار. ولما بلغه التفت خلفاً كأنه يودع المدينة، وإذا بكتف تدفعه وصوت يبربر: يلعن أبو أشرف طايفة ليلحق أبو أرذل طايفة. ولكْ استحوا. ولكْ خافوا الله. ولك رجعتونا لورا مية سنة. الله يرحم أيام فرنسا. الله يرحم أيام تركيا. واختفى الصوت وصاحبه فيما تفجر به الدوّار: مئات الأذرع تلوح عالياً بعصيّ وسواطير وسكاكين وأسواط وقبضات، والحناجر تنشق منادية بالثأر، وصدر واصف ينشق: أي ثأر هذا يا مجانين؟

كان الحشد قد غدا سوراً منيعاً، وإلى اليمين كانت الطريق الخارجة من الدوّار تضيق بالسيارات، مثلما كانت السيارات تضيق بمن فيها، فالكراجات انتقلت إلى هنا: تطوع أحدهم بالشرح لواصف عندما رأى ذهوله. وهمّ واصف بأن يؤكد

لرجل أن ما يذهله هو هؤلاء الذين ملأوا السيارات. لكن الرجل اختفى، ففكر واصف بأن المدينة قد هانت على هؤلاء جميعاً، ولعلهم لم يحبوها يوماً. لعلها لم تكن يوماً لواحدهم غير لقمة يزدردها، أو فرجاً يولغ فيه، أو رصيداً، أو دصاً يشخب من رأس هذا الشاب الذي لن يقدر واصف على أن ينساه: رأس مدور وحليق وضخم، عينان واسعتان وأذنان أكبر، وسيف ذو شعبتين كأنه ذو الفقار الذي ينادي الشابُ صاحبه. وأعشى سطوع السيف عيني واصف، ثم أعماهما عندما بدأ يتمرى على جلدة رأس الشاب. واصطبغت الجلدة بالأحمر القاني، وطرطش الدم وجوهاً ورؤوساً وقمصاناً. وفي الأصداغ راحت عروق تطق كما تطق الحناجر ثأراً مجيداً: لمن ممّن يا مجانين؟

صاح واصف، لكن الخوف حبس صيحته في صدره. وبفضل الخوف زحفت قدماه خلفاً حتى ابتعدتا عن الحشد. وحين تلمستا الأمان أسرعتا نحو دوّار بوقا الذي تشكله الأعمدة المدورة الشاهقة. وهفت عينا واصف إلى ما تحفظان منذ عهد الصبا من كسور الأعمدة في تاج أو خاصرة، لكن سيارة جيب لاندروفر اخترقت الدوّار وربضت أمام العمود السليم الوحيد.

من نوافذ الجيب أطلت فوهات الكلاشينات، فتنحى واصف، وإذا بفوهات أخرى تطل من الباب الخلفي للجيب. ويبدو أن

خطأ ما قد وقع، فقد يكون خوف واصف انقلب شجاعة عندما أخذ الحشد يملأ الدوار، فتقدم متحدياً الدورية أو متحدياً الحشد. وقد يكون الخوف أدرك الدورية نفسها، أو قد تكون شجاعة أكبر من شجاعة واصف هي ما جعل أحداً من الحشد يتحدى الدورية. ومهما يكن فقد اخترقت سمع واصف رصاصة، بل ثلاث، بل زخة من الرصاص مثل زخة من المطر، وربما مثل زخّة من البَرَد، فتلفت معاتباً ومتأثراً، وإذا بوجه مشرق يقبل من جهة البحر. وكلما اقترب كان يزداد شبهاً بوجه عبد الرحمن. وعندما صار قبالة واصف تماماً، تراءى صاحب الوجه لكثيرين يحمل خابية طافحة بالأرجوان، ويدلقها فوق واصف الذي كان قد ارتمى على الإسفلت يتقيأ دماً، وعندئذٍ خُيّل إليه أن الزمن قد بدأ يخرف فيصير هو النسيان والنسيان هو، كي يستوي يومٌ اغتيل في فجره الشيخ يوسف صارم عام ١٩٧٩، مع يومٍ سوف يُغتال في ضحاه الدكتور عبد الرحمن هلال عام ١٩٨١، مع ظهيرة يومٍ مثل هذا اليوم التائه بين صيف يودعه وخريف يلاقيه وربما بين الفصول جميعاً سوف تستوي فيه حياة واصف عمران مع موته.

أية رائحة أكبر فساداً وأذى ونفاذاً؟

- ١ -

كان على الصوت المشؤوم أن يخرس حتى أصدق أذنيّ وأتسمّر خلف النافذة الوحيدة في غرفة المدرسين والمدرسات.

في الخارج كانت أقدام الطالبات تتدافر وتتسابق نحو البوابة. وخُيِّل لي أن عراكاً نشب هناك، فاستدرت، وإذا بالغرفة قد خلت، فجررت قدميّ إلى الممر الذي كان يضيق بذعر الطالبات.

بعد خطوات توقفت وقد عاد الصوت المشؤوم يتفجر بقتيل على الأقل، وبما لا يمكن عدّه من الجرحى، في مدخل المدينة من جهة جبلة، مرة، ومرة على الكورنيش، ومرة في رأسي الذي تركني لبلاهتي، وصدّق أن الأستاذ واصف عمران بين الضحايا!

هل كنت وحدي من سمع نعيق البومة؟!

على الصمت الذي غلّنا فجأة، مثل الرعب، صحوت، وإذا بنا نتكوم خلف البوابة الموصدة: المديرة الست جميلة تتصدر لمّة من الطالبات، إلى اليمين لمّة أصغر تنبق فيها رؤوس عدد من الزميلات والزملاء، إلى اليسار أمينة المخبر وأنا والبواب الذي

تمتم حاسداً من سبقونا في الخروج. ومثل لحنٍ مرتبك أخذت أصداء الرصاص تتموج وتتصاعد وتتقطع، كأنها تلوّح لنا من بعيد.

تلفتت أعناقنا متوسلة مثل همهماتنا وخرسنا، وراعني أنْ خُيِّل لي أنّ العيون تتعلق بي. وما كادت الهدأة تعود حتى تعالى الخبط على البوابة الحديدية، فتدافعت الطالبات، واختفت الست جميلة وأمينة المخبر وزميل أو زميلة على الأقل، وحشرج البواب بالسؤال عمّن يكون الطارق،ودوّت الصيحات خارج البوابة:

- افتح يا حمار.

فحشرجتُ بالأمر وأنا أدفع البواب:

- يا أخي افتحْ وخلّصنا.

وفجأة وجدت نفسي وحيداً وسط الشارع العريض، تماماً مثلما وجدت نفسي وحيداً على رصيفه الضيق هذا الصباح.

- ٢ -

كنت قد خرجت من البيت مبكراً فجبهوني بمصرع الشيخ يوسف صارم: جار من الطابق الأول، جار من البناية المجاورة، الفوّال، وكل من صادفت بعدئذٍ من الوجوه العابسة والسيارات النادرة، طوال الطريق من أقصى شرق المدينة

حيث أسكن: خمسون دقيقة تستغرقها رحلتي الصباحية عادة، لكنها تطاولت اليوم حتى نافت على سبعين دقيقة، فتأخرت عن الدرس الأول لأول مرة، منذ عملت في دار المعلمات قبل أربعة أشهر تقريباً.

عندما بلغت حيّ المشروع الأول فكرت بالعودة إلى البيت، فتباطأت، بينما تعلقت عيناي بما يظهر من المقبرة الفرنسية، ثم زحفنا إلى ذروة التلّة التي «يلطو» على جانبها المخفي بيت واصف.

ولما عجزتا عن أن تسبرا التلة، اكتشفتُ أنني أقابل نادي حطين، وجهاً لوجه، فزهدت في العودة، وتابعت السير أسرعَ فأسرعَ. وقبل أن أبلغ دار المعلمات كانت الشوارع قد أخذت تخلو، وبالطبع، ما كان يسيراً من بعد، أن تنتظم الدروس، ولا أن ينتظم الجلوس بين درس ودرس في غرفة المدرسين والمدرسات، ولا في غرفة الست جميلة، إلى أن جلجل الصوت المشؤوم.

لم أكن وحدي من سمع نعيق البومة. لا بد أن هؤلاء الشبان الذين كادوا أن يحطموا البوابة الحديدية الموصدة الهائلة، قد سمعوا أيضاً، ولولا ذلك لما كانت وجوههم تتفجر بالألوان: الحمرة المدماة والصفرة المسممة والسمرة الحارقة وملوحة

النسائم البحرية. كانت ألوانهم أكبر غضباً من أصواتهم. ولعل ذلك ما جعلني أستنجد بواصف، وأنغرس في حفرة البلاطة المنهوبة من الرصيف، بانتظار صوته أو طلّته، حتى باغتني اختفاء الجميع، فانقذفت إلى وسط الشارع الذي راح يقذفني يمنةً ويسرةً. ولما استطعت أن ألتفت خلفاً،كانت دار المعلمات قد باتت بعيدة: إذاً باتت ساحة السمك قريبة.

على الرغم من ابتهاجي بالاسم الجديد للساحة (ساحة أوغاريت)، إلا أنني لم آلف الاسم الجديد الجليل. ولكن ماذا يعني ذلك إزاء الأصوات التي تصخب وتشتبك أمام الفرن، مثلما تصخب وتشتبك أصوات الرصاص في السماء الزرقاء الصافية، كأن ليس من أمر يجري تحتها؟

لم يكن للسمك من أثر في الساحة، سوى بقية من رائحة. ولم يكن من أثر للحياة في الساحة لولا من اندسست بينهم أمام الفرن.

بدلاً من الخبز البارد أو البائت الذي تحضره صفا من دكان سامي في آخر الحارة، سأحضر لها الخبز الطازج والساخن. سأشتري كيلوين إضافيين لواصف، فكل ما جلجل به الصوت المشؤوم، وكل ما نعقت به البومة، كذب في كذب. لكن هذا العجوز الأخرق الذي وقفت خلفه يصيح بالذي يقف أمامه:

ـ الرجل كان يبصق دماً.

ـ يا أخي: قتيل نام فوق قتيل.

صاح صوت من أول الطابور، فلاقاه صوت من خلفي:

ـ الرصاصة خردقت واحد ثاني، والثاني ارتمى على الأستاذ.

أجفلني ذكر الأستاذ، فالتفتّ إلى صاحب الصوت، لا لأسأله عمن يقصد، بل لأسأله بالضبط عما إن كان يقصد الاستاذ واصف عمران. لكن صاحب الصوت خاطب الآخرين من فوقي:

ـ يا شباب أعطوا الدور للأستاذ.

ولا بد إذاً أن أكون من ارتمى عليه القتيل، لولا أنّ شفتي تمتمتا بالشكر، وساقيّ حملتاني إلى رأس الطابور. لكنني لم أشتر لواصف رغيفاً، بل اكتفيت بعشر أرغفة لصفا ثم غادرت الساحة مهرولاً، بل غادرتها عَدْوَاً، نادماً على أني لم أصحح للطابور خطأه، فأنا لم ألجأ إليه كرمى للخبز. ربما نشدت الأمان، ولا بد أني كنت أنشد خبراً عن واصف، ولكن لماذا هذا كله وبيت واصف صار قريباً؟

لعل صفا تكون قد عادت الآن من المكتبة، وعرجت على الروضة لتحضر منها وحيدنا الملعون: عمرو. ولكن أنّى للمكتبة أن تفتح بابها، أو للروضة أن تفتح بابها، مادام

الرصاص يدوي ملء المدينة! أما أنا، فلن أنتظر حتى أفاجئ صفا بالخبز الساخن الطازج. لا بد أن أعرج أولاً على بيت واصف، ولتكن هذه الأرغفة له. هل يعقل أن أدخل إلى بيته لأول مرة منذ شهور، فارغ اليدين؟ سوف يزداد قلق صفا كلما تأخرت في العودة. لكنها ستسامحني عندما تعلم بزيارتي لبيت واصف. صفا لم تقاطع رمزية كما قاطعتُ أخي. ورمزية لم تقاطع صفا كما قاطعني أخي. والآن، ما بقي عليّ إلا أن أنعطف لأتابع السير في شارع المالكي حتى أبلغ الدرج الذي سيحملني إلى بيت واصف.

بعد قليل، بعد قليل جداً، سأتيقن من خبره. ولأنه سليم ومعافى ما من ريب فلا أثر للقلق في خطواتي. لست قلقاً على الرغم من الارتياب بخلو الشارع تماماً. هذا هو مدخل المدرسة الأرمنية. حسناً. وهناك، على الرصيف المقابل دكان الحلاقة الذي عمل فيه حنا مينه، ولذلك صرت وواصف من زبائنه قبل أن يحمل واحدنا البكالوريا. وفجأة خرج من مدخل المدرسة الأرمنية قسّ في مثل سنّي، ويحمل حقيبة مثل حقيبتي، وفجأة سقطت الأرغفة مني، وأنا أسأل يدي عن حقيبتي: هل تركتها في غرفة المدرسين والمدرسات أم في غرفة الست جميلة؟ هل تركتها على الأرض عندما ناولني الفرّان الأرغفة؟ إلى جهنم.

إلى جهنّم بالحقيبة، وما تكتنز من أوراق الطالبات، ودفتر درجاتهن، وهذه الأرغفة: دعوت واندفعت صعداً وعيناي كأنفاسي ترجمان كل ما تصادفان: الدكاكين المغلقة، خشب النوافذ المتهالكة، الخضرة الهاجمة من سفح التلة، مئذنة المغربي، خزان المياه، شجرة الأكاسيا، الشرفة المطلة على الدرج العريض: ها هنا كانت جلستي الأخيرة مع واصف قبل سبعة أشهر تقريباً.

-٣

لأول مرة، ومنذ سنوات، سوف نقضي معاً كل هذا الوقت المترامي من المغيب الوشيك إلى الصباح البعيد، قل: إلى الضحى البعيد، قبل أن يحضر أحد.

لن تكون رمزية أول الحاضرين. اطمئنْ. لكني أظن أن حبيب قلبك الأثرم سيبكر ليطمئن على صهره الغالي. أظن أنه سوف يحضر معه ثريا، اطمئن. كان حموك آخر من غادر. لا يهم، لكن رمزية كانت أول من غادر. هذا أيضاً ليس مهماً. ما المهم يا أخي؟

حكمت الدكتورة السمراء العبلاء ماذا كان اسمها؟ بأن عينيك سوف تظلان مغمضتين، وشفتيك سوف تظلان ملتحمتين، ربما حتى الصباح. بالأحرى، حكمت الدكتورة عليّ

بالصمت والكلام معاً، وبالسهر والنوم معاً. لماذا لا أعترف بأنني نادم الآن على إصراري على البقاء معك هذه الليلة؟ يكفي ما قضيته مرابطاً أمام باب غرفتك المغلقة منذ الظهر. لماذا انتفختُ وتنافخت وأقسمت على ألا أفارقك حتى تخرج من هذا المستشفى مثل الحصان؟

منذ متى تستثار حميتك يا يزن عمران؟

كان على إدارة المستشفى ألا تستجيب لرغبتي، فلا تسمح لي بالمرابطة قبالتك، لا يفصلنا إلا جدار أبيض، وباب أبيض، وأنفاس بيضاء، ونظرات بيضاء، تملأ هذا الممر الأبيض الذي ما عاد يظهر فيه إلا أخوك ابن أبيك وليس ابن أمك وأبيك وهذه الكراسي الجلدية السوداء المرشوشة زوجاً زوجاً.

لن ينجو زوج منها من جلوسي. لن أجلس متخشباً كما فعلت منذ الظهر حتى اختفى حبيب قلبك الأثرم وهو يوصيني بك. سوف أجلس مسترخياً. حتى أنفاسي سأجعلها مسترخية، كي يكون بوسعي أن أصبر عليك خمس عشرة ساعة على الأقل. بعد ذلك مباشرةً سيكون عليك أن تستعيد وعيك، وأن تبصر وتسمع وتتكلم وتتحرك وتكذّب الدكتورة السمراء العبلاء، فالخطر لن يلازمك ثمانٍ وأربعين ساعة. ينبغي أن تغادر هذه الغرفة. دعنا من العناية المشددة وما أدراك ما العناية

المشددة. عليك أن تنتقل إلى أية من غرف المرضى المحتشدة هناك، حيث يتعامد هذا الممر مع الممر الأقل بياضاً وطولاً وعرضاً. وهناك، ستكون في منجاة من الخطر. سيكون بوسعي أن أستنطقك: ما الذي جرى يا واصف؟

ما الذي حملك إلى ذلك الدوّار؟

ما الذي حشرك في المظاهرة.

لا لا، ليس هذا ما عليك أن تحدثني به.

سوف تحدثني عن الرصاص. من أطلق الرصاص عليك يا أخي؟ سوف تحدثني عن رصاصة بعينها: هل رأيتها وهي تنقذف إليك؟ هل رأيت البندقية التي قذفتها؟ الإصبع؟ الوجه؟ العين؟ الطعم؟ الرائحة؟ أم إنها غدرتك وغافلتك واخترقت صدرك فجأة؟ سوف تحدثني عن الألم، الثقب، الدم، الإغماء، الخوف، لا تقل لي إنك لم تخف. أنا أعترف الآن، كما اعترفت دوماً، أنك أشجع مني، وأني أجبن منك، ولكن من لا يخاف من الرصاص يا واصف؟

دعني أكرر عليك حكايتي مع الرصاص، الوقت أمامنا طويل. الآن أفكر أنها حكايتي مع السلاح. لا تنسَ أنني خدمت العسكرية، وأنني قضيت في مدرسة المشاة في المسلمية قريباً من حلب تسعة أشهر من التدريب قبل أن أصبح ضابطاً مجنداً

كما كنت أنت في الإدارة السياسية: دبّورة على كل كتف، تماماً مثل عمر الشريف في فيلم (في بيتنا رجل). رحم الله إحسان عبد القدوس وزمن الأبيض والأسود.

من الدروس التي لا أنساها كان درس الرمي بالكلاشنكوف، رشاً ودراكاً. قال لنا الضابط المدرب الذي لا يزن خمسين كيلو: مخترع البندقية كلاشينكوف أفندي لا يزال حياً يرزق. لعنة الله عليه حياً وميتاً، فبندقيته لم يَحْلُ لها أن تتراقص إلا في يدي وحدي من بين كل المتدربين. طبعاً كان يمكن أن تفلت من يد أخيك يزن وترمي رصاصة أو ما شاءت، يميناً أو شمالاً أو إلى أعلى أو إلى أسفل، بل وإلى الخلف، وكان يمكن إذاً أن تجرح أو تقتل من تصادف، وأولهم الرامي الماهر ابن أبيك، وليس ابن أمك وأبيك. لكن ربك ستر، وانتهى الدرس بالبهدلة التي خصني بها المدرب أبو خمسين كيلو.

بعد شهور حملونا بأقفاص سيارات الزيل الروسية من المسلمية إلى بساتين الملح: هكذا سميت حقول الرمي في الجبول، والجبول سبخة، والسبخة ملح، والملح تحت قاع البحيرة، والبحيرة ترضع من وادي الذهب ووادي أبو العز ووادي الملح كمان، وأنت لم تر وجه الأرض حين يغطيه الملح، وأنا لم أرَ الهدف الذي كان عليّ أن أصوّب مدفع الميم دال

عليه، لذلك جاء الضابط المدرب أبو خمسين كيلو نفسه، وجهز المدفع المضاد للدروع أو للدبابات قل ما تشاء وما بقي على أخيك يزن إلا أن يضغط الزناد: صعبة هذه بالله عليك؟

أقسم لك بالله: نفذت تعليمات الملازم أول بالحرف، لكن القذيفة انحرفت عن الهدف درجات ودرجات إلى اليمين، وربما إلى اليسار، كي أستحق البهدلة، ولكن دون أن يحرمني ذلك من النجاح، فأحمل نجمتين على الكتفين، ومسدس الماكاروف على جنبي اليمين لم يقل لي أبو خمسين كيلو ما إذا كان ماكاروف لا يزال حياً وأسرع به إلى صفا، حين كنا لا نزال عاشقين طويلي الأجل.

طبعاً كان لي أو عليّ أن أتباهى أمام صفا بالمسدس. وفي كرم التين، خلف بيت أهلها في الضيعة، أمام ضريح جدها المقدس الذي يضيئه نور السماء مرة كل سنة، أشهرتُ المسدس في وجهها، فلم يرف لها رمش. أمعنتُ في التباهي، وهيأتُ المسدس للإطلاق، ثم ألحمته بحجاج عيني وأنا أشرح لها كيف تسدد، ثم أطلقت، فضرب قفا المسدس حجاج عيني، وارتمى من يدي.

قهقهت صفا حتى أدمعت عيناها، وتناولت المسدس، وأخذت تشرح لي كيف أسدد، وكيف أطلق، وكيف أصيب

الهدف، تماماً كما حفظتْ عن مدرب الفتوة الذي كانت تعشقه الطالبات – طراً – وأولهن صفا، على الرغم من أنه لم يكن يزن خمسين كيلو: هكذا خطبت بي وهي تطلق رصاصة فرصاصة، حتى أفرغت المشط!

أنا أكره السلاح يا أخي. أنا أكره الرصاص يا واصف، على الرغم من كل ما تشدقتُ به في كتابتي أو في أحاديثي عن الكفاح والتحرير.

لولا الرصاص، ربما، ما كنت تركت حلب وعدت إلى جوارك في اللاذقية. في مكان ما من حلب أخذ الرصاص يلعلع بين ليلة وليلة. لم أسمع ولم أر إلا بعد وقت طويل، ولكن ثمة من كان يُقتل بين ليلة وليلة. ألسنة الزملاء وعيون الطلاب في دار المعلمين، ألسنة وعيون الأصدقاء في مقهى القصر أو في المقهى السياحي، في البيوت أو في إذاعة المدينة وجريدة الجماهير، في المشافي وفي الجنازات: كان ثمة من يُقتل بين ليلة وليلة. المظاهرات في النهار والقتل في الليل. ثم صار القتل في الليل وفي النهار فاختفت المظاهرات. وذات مساء كنت أعبر سوق التلل لاهياً، كنت أتفرج على الواجهات الزجاجية البراقة التي تعرض ثياباً نسائية، وأفكر في هدية لصفا. وفجأة لعلع الرصاص. في الزقاق المقابل لوقفتي

لعلع. ومثل غيري تسمرتُ وتخشبتُ وشهقت وبحلقت وأنا أرى شابين يخرجان من باب في رأس الزقاق، ويطلقان الرصاص عالياً، ثم يجريان في الاتجاه المعاكس.

قبل أن تجرؤ قدماي على الخطو كانت رائحة قد اندفعت من ذلك الباب لتملأ الفضاء وروحي، قبل صدري، بمقتل الدكتور يوسف عيد، قلْ: باغتياله. من بعد صرت أميز رائحة الرصاص حتى لو كان يلعلع في التلفزيون أو في السينما. لا بد أنك صرت الآن تعرف هذه الرائحة، السوداء، الزنخة، الثقيلة، المتثاقلة. أنا لا أعرف رائحة الموت، ولا أظنك تعرفها، على الرغم من أنك طالما حدثتني عما شهدت من موت أمك. لكني أجزم أن رائحة الرصاص أسوأ من رائحة الموت، أكبر فساداً وأذى ونفاذاً.

عندما حدثتك عن رائحة الرصاص وأنت تندب صديقك عبد الرحمن هلال، سخرت مني. ماذا تقول الآن؟

أنت في التاريخ... يا للجلال؛

منذ أن رمت الرصاصة واصف أرضاً حتى انتصف الليل وهو مغمى عليه، أو مخدر، أو في سابع نومة، أي إنه على شفا يقظة، حي، ميت، على شفا الموت.

لكنه أفاق أخيراً. وتنهد تنهيدة متقطعة، وتنهيدة موجعة، وتنهيدة عميقة، وتململ رأسه، وهالته الأنابيب الناحلة، الغليظة، الشفيفة، الكتيمة، الأنابيب الأفعوانية التي تتداخل فوق وجهه وذراعيه. وطال به ذلك قبل أن يقترب منه صوت تائه بين الذكورة والأنوثة، ويهنئه بالسلامة، ثم يختفي طويلاً ليظهر وقد حسم تيهه: شاب يدخل في عشرينياته، ووثارة ذقنه، ونعومة صوته، وربما في دفء أنفاسه، وملاسة كفيه أيضاً.

تلاعبت أصابع الطبيب ربما كان ممرضاً بالأنابيب، وبرسغ لواصف، وبساعد، وبجهاز ما خلف رأس واصف، وبآخر وبثالث لا بد أن يكونا في الغرفة، حيث يحوص الشاب، ثم يختفي طويلاً ليظهر وقد بدّل تكوينه تبديلاً: هذه طبيبة أو ممرضة من أين لواصف أن يعرف؟ تدخل في بياض بشرتها، وغطاء رأسها، ومريولها، وفي سطوع عنقها وظاهر كفيها، كما

ترفل في عبقها، وفي رخامة صوتها. لكن واصف لا يستطيع أن يسمع، وبالكاد هو يشم أو يرى: هل يكون الرصاص قفع له أذناً على الأقل؟ لكنها رصاصة واحدة كما سيدرك واصف بعد قليل. وما دامت قد أصابت الصدر، فلا يعقل أن تنط إلى الرأس، فليحمد الله على أن الرصاصة لم تنحرف صعوداً، ولا يميناً، ولا شمالاً، فتثقب القلب، بل اكتفت بنتفة من واحد من أطراف الرئة اليمنى كما سيشرح ذلك الشاب الذي اختفى، أو هذه المرأة، التي في عمر رمزية ولها غمزة الوجنة نفسها، وقوس الحاجب نفسه والتي ستختفي أيضاً، فلا يبقى لواصف ما يفعله إلا أن ينام.

لكن النوم هذه المرة ليس بنوم، كما أن اليقظة ليست بيقظة: إنه الليل الأليل، الليل المليّل، الليل اللائل الذي يقسم به واصف الآن، كي تنصعق ذاكرته صعقة صعقة، قسماً قسماً، وآية فآية: والليل إذا سجى، والليل إذْ يسر، والليل إذا دبر، والليل إذا يغشاها، وعلى الرغم من أن السر يظل سراً، فقد بات يزن أقدر على أن يهرف، كأنْ يحدّث نفسه عن هذه الأخيلة التي تبرق وهي تمرق قدامه، في مدخل مقبرة الفاروس أو في مدخل مستشفى اليازجي، وربما في مدخل جامع الجديد أو في مدخل كنيسة السيدة: لهذا الرجل شبه بالغ بعبد الرحمن،

الدكتور عبد الرحمن هلال، نسيت يا واصف صديقك؟ نسيت أيها الوغد؟

هذا الرجل هو صديقك نفسه، سوى أنه كبر قليلاً، فالشهر هنا أطول من اثني عشر شهراً، والسنة هنا أطول من سنتكم باثنتي عشرة مرة أيها الأحياء الأجلاء. وهذا الذي أنت فيه يا أستاذ واصف عمران ليس إذاً بعالم الأحياء. هذا عالم صديقك الذي أضناه الشوق إليك أضعاف ما أضناك الشوق إليه. ولكن من هو هذا الشيخ المهيب الذي يقطع درب عبد الرحمن إليك بعد أن يقطع دربك إلى عبد الرحمن؟

تمتم الشيخ باسم جامعٍ وإمام، وأخذ عزيف الرصاص يترجّع في سمعك، ولم يهدأ حتى أدركتَ أنه الشيخ يوسف صارم، وهذا هو لقاؤك الأول به. حسناً، هذا عبد الرحمن وهذا الشيخ يوسف، وأنتم الثلاثة في مستشفى واحد بلا اسم: عبد الرحمن يصله محتضراً ويموت فيه، والشيخ يوسف يصله ميتاً، وأنت تصله ميتاً وحياً، بالأحرى: لا ميتاً ولا حياً. حسناً، والآخرون، من هم؟ من هن أولاء اللواتي بدأن يتلامحن من بعيد، كأنهنّ يخرجن من أكفانهن، فتشهق خوف أن يسرن عاريات؟

يهمس واصف بالسؤال في أذن عبد الرحمن أو في أذن

الشيخ يوسف ما الفرق؟ فيتوحد صوتاهما في هذا الصوت الغريب الذي يتدفق بأسماء الأخيلة جميعاً، رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً، وعقب كل اسم يحدد الصوت: هذا من حي الميدان في حلب، حيث كان أخوك يزن يسكن. وهذا من حي الفاروس في اللاذقية حيث نشأ حموك الأثرم، كما حدثك مرة بعد مرة، قبل أن تتزوج ابنته، وبعدما كان ما كان بينك وبين رمزية التي تفتقدها بين كل هذه الأخيلة، لماذا؟ لأنها مازالت هناك، في حجر أبيها، قبالة مقبرة الفاروس، ولن تلحق بك إلى هنا، حيث ينادي الصوت الغريب أمك مراراً، بعد أن ينادي أباك مرة. ولأن أحداً لم يجب، أخذ الصوت الغريب يتدفق بالأسماء والنداءات، وما إن أخذ الصوت يتخافت حتى راح حشدٌ يتطوح فحشد، كأن الرصاص قد جعل الأجساد للتو غرابيل، أو كأن حمم مدافع الدبابات قد أخذت تتساقط على السقوف فتتشظى بهم ويتشظون بها، كأنها معركة من معارك عام ١٩٤٨ أو عام ١٩٦٧ أو عام ١٩٧٣، بل كأنها معركة ميسلون على بوابة الشام، أو معركة المزرعة في جبل الدروز، أو معركة كفر تخاريم في جبل الزاوية، أو معركة وادي جهنم على بوابة بانياس، أو معركة البرلمان في قلب الشام، وأنت إذاً يا واصف عمران لست في اللاذقية عام ١٩٧٩ أو عام ١٩٨١،

بل أنت في التاريخ... يا للجلال!

يا للجلال!

دوّمتْ الهتفة في الثقب الذي أورثته الرصاصة قد لا تكون وحيدة لرئة واصف اليمنى وربما لليسرى، أو لناحية أخرى من الصدر، إن لم يكن لناحية أخرى في الجسد فتقلّب ينشد الخلاص. ولعل ذلك ما جعله ينتفض، فيعلو بجذعه شبرين أو ثلاثة، ثم ينخبط على السرير، ويتحرر من أنبوب أو أكثر، فأفاق الممرض هل هو طبيب؟ المرابط على كرسيه في أقصى غرفة العناية المشددة، وأسرع بضيق وهلع إلى الأنبوب أو الأنابيب، مما لفظ واصف.

وما إن دنا الممرض منه حتى انتفض ثانيةً، واستقبله ببصقة أو قذفة أو قيئة من الدم القاني.

ليلة تائهة

١ ـ

كأن الكرسي انقلب سريراً.

كأن الممر انقلب بيتاً.

كأن المستشفى انقلب حياً.

وهذا الرجل الذي يبدو أربعينياً مازالت خمس سنوات تفصله عن الأربعين ليس مرابطاً قبالة باب غرفة العناية المشددة في المستشفى الوطني.

هذا الرجل ليس من أيبست أزواج الكراسي الجلدية السوداء ظهره وقعدته، فدفع بساقيه القصيرتين بعيداً وساوى بهما فخذيه، فصار نصفه الأسفل مثل رمح مغروز في بلاط الممر هو ليس بالنحيف ولا بالطويل، بل ممتلئاً بينما اكتفت قعدته من الكرسي بحرفها الحاد الأفقي، كما اكتفى كتفاه بالحرف الحاد العمودي، ليصير نصف الأعلى مثل رمح مغروز في السرير الذي انقلب إليه الكرسي، كما انقلب الممر بيتاً، والمستشفى حياً، فغرق يزن في النوم.

عندئذ زحف السرير من مطرحه لصق الجدار، وتحت النافذة التي تتوسط الجدار، إلى لصق سرير صفا. ولكي لا يتلكأ الزحف

ولا يتعثر، طارت الكومودينا من مطرحها بين السريرين، لتحط على سطح الخزانة أمِّ المرايا التي سيظهر فيها سريرا صفا ويزن، وقد غَدَوا سريراً واحداً. يبزّ عرضه طوله، فلا فرق بين أن يتمدد يزن وصفا في طول السرير أو في عرضه، ما دامت مرايا الخزانة تدس ذراع يزن تحت رأس صفا، وتمرغ ذقنه على شعرها الذي لا يظل أكرث، بل يصير شلالاً من حرير مذهّب. وبينما يسبّح يزن باسم من قلب سوادَ شعر صفا شقرةً، وجعل جَعَده مَلَساً، كما يشتهي يزن ويتمنى، تكون صفا قد زحفت إلى أقصى السرير، وأدارت له ظهراً، فراح «يتقلقز» في جلسته على الكرسي، أو في استلقائه على السرير. وفي غمضة عين لا تدركها مرايا الخزانة ولا عينا يزن اللتان تتلصصان على صفا، يعود به الزمن إلى ليلةٍ بشّرته صفا في أولها بحملها، ثم إلى نهار بشرته صفا في آخره بإجهاضها، ثم إلى نهار حمل بشرى حملٍ، فليلة حملت بشرى إجهاض، حتى إذا ما صحّ الحمل أخيراً، وأهلّ عمرو، كان أبوه قد يئس من أمه، وأدمن أن يبحث عن امرأة ليلحم سريره بسريرها، ثم يوسدها ذراعه، ويمرغ ذقنه على شعرها الأكرث الأشقر الأجعد الأسود الأمل!

ما من شيء لا يختلط الآن على يزن بشيء، لذلك يرى نفسه، فيما يرى النائم، يقفز من سريره مثل ملدوغ، يأمر قدميه أن

تبحثا على عجل عن «الشحاطة»، وريثما تفعلان يتلفت حوله، يعاين الغرفة التي ضاقت بسريرين وخزانة تخبئ مرآتها في بطنها، يعود إلى النافذة الوحيدة الضيقة التي تنفتح على نافذة وحيدة ضيقة مقابلة، يأمر نظراته أن تقيس بدقة الأمتار التي تفصل بين النافذتين، ويتركهما تفعلان بينما يمشي حافياً لم تجد قدماه «الشحاطة»، أو لم تسمعا أمره بالبحث عنها، أو ربما رفضتا الأمر إلى باب الغرفة الذي يفضي إلى ممر صغير ذي ثلاثة أبواب: أوسطها وأصغرها هو باب المرحاض، والبابان الآخران يتقابلان متخاصمين: واحد يقود إلى المطبخ، والآخر إلى الصالون.

يحمد يزن الله على أنْ يسّر له بسرعة ضوئية أن يبيع بيته في حلب، وأن يحصل على قرض من المصرف العقاري، فيشتري هذا البيت في اللاذقية. ويشتري لصفا الدكان الصغير الذي حولته إلى مكتبة: ها قد غدوتَ ملاّكاً صغيراً، بورجوازياً متوسطاً، أيها اليساري الماركسي، فهنيئاً مريئاً.

كان يزن أول من هنأ نفسه، وسخر منها، وحسدها. وكما ساءه أن يحذو آخرون حذوه كان أولهم واصف كان يسوءه أيضاً أنه لا يعرف إلى أين عليه أن يتجه، كلما قفز من سريره كالملدوغ، فيضرب جزافاً في البيت، وما من مرة تكون كالتي سلفت.

سوف ينتهي مثلاً من المرحاض ويدلف إلى المطبخ. سوف يكتشف بعد لأي أنْ ليس له ما يفعله في المطبخ، فيتهادى إلى الصالون الطويل، يحدق في الباب العريض المشرع في منتصف الجدار، يدلف منه إلى الممر الصغير، ينقّل نظره بين بابي الممر المتقابلين بمودة: هذا باب غرفة عمرو المقدسة، وهذا باب الحمّام المقدس، فبأمر صفا، ما من قدم غريبة تدنّس الغرفة أو الحمّام. يتراجع يزن إلى الصالون، ويتمنى لو أنه أكبر عرضاً. لو أن لوحة، لوحة واحدة على الأقل، لوحة واحدة يا ناس، تستر عورة هذا الجدار أو عورة هذا الجدار. تأكله الندامة كل مرة على اللوحة التي اشتراها من سعد يكن بخمسين ليرة، ولم يكن قد طوى في حلب سنته الأولى. وتمتلئ نفسه سخطاً على صفا، فاقتناء يزن اللوحة دوّى ملء مقهى القصر وملء المقهى السياحي، أياماً. لكنّ صفا تخلصت من اللوحة، لأنها تحتشد بوجوه سعد يكن الشائهة المقبضة، ويزن لا يدافع عن اللوحة. يزن يكتفي بتمجيد أصابع وألوان وتشكيلات وجنون وروح سعد يكن الذي يهتك عوراتنا بتلك الوجوه: يخطب يزن فلا تصفق صفا، فيترك لها أن تفعل باللوحة ما تشاء.

ربما لم تنقلها مع ما نقلت من أثاث البيت في حلب إلى هذا

البيت في اللاذقية. ربما حطمت إطارها، أو مزقتها، أو أعطتها لابن جارتها غيثاء، ليشخبط عليها، بل ليبول عليها فتضحك غيثاء، ويزن يعض شفته السفلى حتى يدميها، وهو يقرر أن يعاقب من كان السبب.

- ٢ -

لا بد لصفا من أن تغادر البيت. لا بد لها من أن تذهب إلى عملها في أيّ من مكاتب هيئة حلج وتسويق الأقطان في حلب. أما يزن فلن تبدأ دروسه في ثانوية الحسن بن الهيثم قبل الثانية عشرة ظهراً. وإلى أن يحين ذلك الموعد البعيد، ستكون غيثاء قد ودعت زوجها سيادة النقيب في فرع الأمن العسكري معين بن فتكة هكذا سمّته غيثاء تمجيداً لحماتها فتكة وستكون قد ظهرت مراراً على الشرفة المقابلة لنافذة يزن. وستلتقي نظراتها بنظراته. سينتظر هذه المرة حتى تبادر هي بحبور معسَّل:

صباح الخير يا جار الرضا.

سيرد التحية بأحسن منها، عملاً بقوله تعالى، وسيبادر إلى دعوتها على إيقاع خفق فؤاده:

- فنجان قهوة من إيدي.

لن يأبه بأية عيون قد تضبطه من على أية شرفة في عمارة

غيثاء أو في عمارته هو. وسوف تلبي غيثاء بلا أي غنج أو دلال. لكنها ستظل تغنج وتتدلل عندما ينفرد الصالون بها وبيزن، حتى تقدّر أن الرجل قد ملّ أو أُنهك أو أيس. عندئذٍ ستريه ما لم يره من امرأة قبلها. لا صفا ولا غير صفا. ولأن مسّاً من الجنون قد أصابها كما أصابه، تراها تحضر بين حين وحين من حلب إلى اللاذقية، مرة بالقطار ومرة بالباص كما أدمن أن يتخيل فيلاقيها مرة في محطة القطار ومرة في كراج الباصات. وفي كل مرة يتحيّن أن يكون اللقاء أثناء غياب صفا عن البيت. ستكون صفا في المكتبة، كي يتسنى ليزن أن يطير بغيثاء إلى تلك الغرفة، وذلك السرير، وتلك المرايا، قبل أن يتسنى لها أن تتأمل هذا الصالون الطويل الضيق، هذه الصوفا وهذه الصوفا، هذا التلفزيون الذي كان يتصدر صالونكم في حلب يا يزن: تغرد غيثاء، لا تهمس ولا تقول، فيميل السُّكر برأس يزن، ويتأبط ذراع غيثاء، ويمشي بها الهوينى إلى أن يسلمها الصالون إلى الشرفة المطلة على البحر: شمّي رائحة البحر، ما من عمارة ولا شجرة تحجب البحر عنك. ألف متر، بل أكثر، بينك وبينه، لكنه بين يديك، في حرجك، يلوّن عينيك، يغسل ساقيك، لكأن أمتار المد والجزر فقط تفصل بينك وبينه: يقول يزن، فتغرد غيثاء لا تهمس ولا تقول بنسبها البحري،

مثلها مثل ابن فتكة، أنا من جبلة، وهو أيضاً.

هو؟

من هو؟

هو النقيب معين بن فتكة، جارك الذي دعاك أول مرة إلى فنجان قهوة في مكتبه. وقبل أن يقدم الحاجبُ الفنجان بادرك:

- اضبارتك سمينة، وتسمن يا أستاذ يزن.

وفي المرة الثانية دعاك إلى فنجان قهوة في بيته. وقبل أن تقدم غيثاء الفنجان بادرك:

- أنت مصنف عندنا وعند سائر الفروع الأمنية بأنك في الحزب.

- أي حزب يا جار؟

قلت وأنت تغامر فتملأ عينيك من صدر غيثاء التي انحنت لتقرب الفنجان منك.

- الحزب الشيوعي يا جار.

قال، فحيّرك صوته بين التودد والسخرية، فأمعنت في المغامرة، وملأت عينيك من عجيزة غيثاء التي استدارت لتقدم الفنجان لابن فتكة، ثم سألتَ بجد:

- أي حزب شيوعي؟

وهكذا بدأت المباراة:

الحزب الشيوعي المكتب السياسي يا رفيق يزن.

- أي مكتب سياسي يا سيادة النقيب؟ كل حزب شيوعي له مكتب سياسي.

- لا تتذاكَ يا أستاذ. أنت تعرف من أقصد. أنا أقصد من انشقوا عن الحزب الشيوعي. الفرع الذي انشق عن الأصل.

- توّهتني يا سيادة النقيب. متاهة.

- من هو مثل الأستاذ يزن عمران يتوّه البلد. مدرس وكاتب إن شاء الله سيملأ اسمه..

- كاتب؟

سأل يزن مقاطعاً بغلظة واستنكار، فابتسم ابن فتكة، وقال ساخراً:

- ألا تحلم بأن تكون كاتباً؟

- أنت تتجسس حتى على أحلامي؟

- لا يا جار. أنا لا أتجسس. أنت تتحدث عن أحلامك، وبين من تتحدث لهم من يتحدث لغيره، وهكذا، حتى يصلني الحديث. ولكن ما لنا ولهذا؟ إن شاء الله ستكون من أكبر الكتاب. خلّنا الآن بما كنا فيه. نسيت؟

- ما لحقت.

- مالك ولوجع الرأس يا جار؟

ومن جديد حيّر صوت ابن فتكة يزن بين السخرية والتودد، لكنه آثر أن يرد هذه المرة بالصمت: جهنم تحرق من انشق ومن لم ينشق. جهنم تحرق الأصل والفرع ومن مع خالد بكداش ومن مع رياض الترك ومن مع السوفييت ومن ليس مع السوفييت وتحرقك وتحرق من لا يحرقك.

تحرق من يحرقك: تغرد غيثاء، لا تهمس ولا تقول، فيحار يزن فيمن تقصد: هو أم ابن فتكة؟

ولن تغادره الحيرة حتى يطوي بيته في حلب، وبيت غيثاء، وحلب كلها في حناياه، ويرحل.

– ٣ –

عن بلاط الممر انسحبت قدما يزن، كأنما تتهيآن للرحيل، بينما عادت قعدته تملأ وجه الكرسي، وعاد ظهره يملأ ظهرها، وكان منتصف هذه الليلة في المستشفى يندغم بمنتصف ليلة البارحة في البيت: بين الصوفا والصوفا امتدت طاولة خفيفة متطاولة، وعليها حُشرتْ زجاجتان من بيرة الشرق، وزجاجة من عرق الميماس، وكؤوس صغيرة هي عينها كؤوس الشاي وجمهرة من منافض وعلب السجائر، وكومة من الأرغفة، وقبضة من السكاكين والشوكات، وصحون صغيرة تفيض بالحمص واللبنة والزيتون وقطع البندورة ولفافات اليبرق الفائضة من الغداء.

حول الطاولة على كل صوفا زوج من الإنـاث وزوج من الذكور، لا يقدر يزن الآن على أن يسميهم. حتى صغرى الإناث التي هي شقيقته شفق، والتي مازالت تدرس في المعهد العالي للفنون المسرحية، نسي اسمها، غير آبه، فما يهمه الآن أن يتبين أي وجه من تلك الوجوه التي أخذت تندغم وتدفعه خلفاً، حتى ضاق بظهره ظهرُ الكرسي، وبقدميه بلاطُ الممر. ولما طال به ذلك، وأمضّه جداً جداً، عادت الوجوه إلى ما كانت عليه، صوتاً صوتاً، وأصغى متلذذاً، ومشوقاً، ومنكراً، ومستزيداً، وزاجراً، وكل ذلك في آن معاً، حتى اكتشف أنه نسي صوته، أو فقده، فلجأت عيناه إلى صفا، وكانت شفق تخاطب الآخرين:

- اللاذقية آمنة. ليست مثل حماة ولا مثل حلب، ولكن بفضل الدوريات التي تملأ المدينة

في الليل والنهار.

قالت صفا وهي تشير إلى باب الصالون المفضي إلى الشرفة:

- قوموا انظروا: الدورية مرابطة في الحديقة.

قالت شفق وهي تحرر شعرها الفاحم الطويل من ربطته البيضاء:

- الدورية تتنزه في الحديقة، لا تراقب أحداً. النزهة الليلية مفيدة. جربوها.

وهمّتْ بضحكة وعقّب جارها هزار:

ليس للإخوان المسلمين أحد في اللاذقية، لذلك هي آمنة.

قال هايك الذي يحضر مع شفق وهزار لأول مرة إلى البيت:

ـ قل: ليس للمسلحين من الإخوان المسلمين أحد في اللاذقية.

هذا ما يبدو حتى الآن، على العكس مما في حلب أو حماة. يقال إنهم صاروا هناك أقوى من الحكومة.

قالت انشراح التي لم تحضر شفق مرة من دونها:

ـ لا تصدقْ. مبالغات. ليس في سورية من هو **أ**قوى من الحكومة.

قال هزار:

ـ يكفي أن فروع الأمن بيد الحكومة، وليس في سورية من هو أقوى من الأمن.

قالت صفا:

ـ لا تنسوا الجيش، والجيش بيد الحكومة. على الأقل لا تنسوا سرايا الدفاع، وسرايا الصراع، والوحدات الخاصة، والحرس الجمهوري، عدا عن الشرطة والهجانة وماذا أيضاً؟

قالت شفق:

ـ وكلهم يد واحدة على من يعاديهم.

فتساءل هايك وهو ينقل عينيه الصينيتين بين الجميع:

ـ ماذا تريدين أن يفعلوا؟تريدين أن يقولوا لأعداء الوطن:

سلّم الله أيديكم؟

قالت انشراح وعيناها تقدحان على الرغم من أنها لم تنه كأس العرق الأولى:

- على كل حال الاغتيالات لم تتوقف، حتى في الشام نفسها. بل زادت.

عندئذٍ تداخلت الأصوات، ولم يعد صوت ينتظر صوتاً، فصنع يزن على عجل سدادتين من المحارم الورقية، وحشاهما في أذنيه، لتهنأ غفوته على الكرسي المرابط أمام باب غرفة العناية المشددة. وتضاعفت هناءة الغفوة حين اكتشف أن السدادتين تنخلان أصوات السهرة، وأن الصالون، ومن فيه، وما فيه، قد انقلب إلى أخيلة حلوة ولطيفة: صفا تزنّر كتفه بذراعها معلنةً اكتفاءها من البيرة، ورغبتها في النوم. هزار يميل بجذعه إلى شفق ويهامسها، ولكن أنّى له ولها أن يخفيا على يزن أنهما عاشقان منذ جمعتهما الجيرة تحت أول مطرة خريفية، كما ستصارح العاشقة أخاها بعد قليل! أنّى لشفق وهزار أن يخفيا على يزن أنهما من جماعة الراية الحمراء، أي بلا مواربة من رابطة العمل الشيوعي، أو على الأقل من أصدقائها، فشفق سألت أخاها وصفا منذ ليلتهما الأولى في هذا الصالون، عما إذ كانا يقرآن الراية الحمراء في حلب، ولم تنتظر جواباً، بل

تعهدت بأن تزودهما بها بانتظام. وشفق وهزار معاً، يلعنان الإخوان المسلمين والحكومة، كما كان يلعنهما أبو تمام كلما زار يزن في بيته الحلبي، متشامخاً بما كان يجهل يزن منه، وربما كان سيظل جاهلاً، لولا أن شفق قد أسرّت له متباهيةً:

ـ أبو تمام من الذين أسسوا الرابطة، ومن قوادها ـ أبو تمام مطلوب من الأمن، لكنه يدور سورية كلها متخفياً.

وعندئذٍ فقط تنبه يزن إلى أنه رأى أبا تمام مرة حليق الذقن، ومرة بلحية خفيفة، ومرة بنظارات سميكة، ومرة بلا نظارات. وعندئذٍ تساءل يزن عما كان جاره ابن فتكة سيفعل، لو أنه لمح ذلك القائد المتخفي يقف على رصيف جامع الميدان، أو يدخل العمارة التي تقابل إحدى شققها في الطابق الأول الشقة التي تسحرها غيثاء؟

كي يظل الهاجس هاجساً، فلا يقبض ابن فتكة على ضيف جاره، ولا على جاره، ترك يزن نظراته تلوم هزار وتعيره بأنفه الكبير وكلح أسنانه، فلا بد أنه هو من ورّط شفق بالراية الحمراء، ثم بالرابطة، قبل أو بعدما تسلل إلى قلبها. ولا بد أن هايك مثل هزار، وانشراح مثل شفق، ومن يدري، فقد يتحول بفضلهم جميعاً بيت يزن في اللاذقية إلى ملتقى للرابطة، كما كان بيته في حلب ملتقى للحزب الشيوعي المكتب السياسي، وابن فتكة على ذلك شهيد.

تبسم يزن ممتناً لكرسيه ولغفوته، فلولاهما لما كان الآن يلبد في هذا الممر، يتفرج على ذلك الصالون: صفا تتثاءب، هايك يغادره تهذيبه ويقهقه، هزار يدندن بأغنية لأحمد قعبور أو لخالد الهبر ما عاد يزن قادراً على أن يحدد وشفق تندفع إلى منتهى الصالون لتدير المسجّلة، فيصدح عبد الحليم حافظ: سوّاح، فتهب انشراح إلى الرقص، وتهب أكفّ إلى التصفيق، وينادي ذراعا شفق فيطير هزار إليها، ويلحق به هايك، وتختفي صفا، فيسرع يزن إلى غرفة النوم ليلاقيه أمرها وهي تفسح له في سريرها:

- تعال نم هنا. لا أظن أن أحداً منهم سيذهب إلى بيته وهم كما ترى: طينة.

فحمحم ببلاهة، بينما تابعت:

- قل لأختك أن تحلّ هي وانشراح محلك في سريرك، وقل لهزار وهايك أن ينام كل واحدٍ على صوفا.

وأدارت له ظهرها، فالتفت إلى الخزانة، لعل المرآة الخبيئة في بطنها أن تريه صفا الأخرى ويزن الآخر. ولما لم تفعل عبر به الحزن، لأنه فقد صوته منذ أن طاشت السهرة، وواعد الصوت في العاشرة تماماً، حين يبدأ درسه الأول لطالبات الصف الخاص، حيث أكبر طالبات دار المعلمات سناً، وأحلاهنّ لِمَ لا تسميها؟ سوف تركز عينيها في عينيه، كما تفعل في كل

درس. وقد تلحس شفتيها، أو تداعب خصلة من شعرها، فيزورّ يزن عنها مرة، ويهرع إليها ملهوفاً مرة، ويطمئنه مرة أنها تجلس في المقعد الأخير، ويرغب مرة بأن تجلس أقرب إليه، ويمضّه أن الأخريات لا يفسحن له ولها أن ينفردا البتّة، فيفكر بأن يأمرهن جميعاً بالخروج، لتبقى له تلك السمراء العبلاء التي تتظاهر بالحرد والغضب، وما إن يهم بالاقتراب منها حتى تصرخ، فينط عن الكرسي. وقبل أن تستقيم وقفته، يفرك عينيه ليتبين أن الدكتورة السمراء العبلاء تقف أمامه قلقة. وبينما راح يتساءل عما إن كان لها قربى مع إحداهن في دار المعلمات وعما إذا كانت لم تغادر المستشفى منذ الظهيرة، وربما منذ الصباح كانت قد سألته محتدة:

- أنت مرافق المريض واصف عمران؟

فهمس بتراخٍ:

- أنا أخوه.

- لا أعرف ما الذي جرى له. كان وضعه جيداً ومستقراً. الآن وضعه سيئ. تعال معي.

قالت وهي تندفع في الممر، فاندفع يزن خلفها غير مصدق.

لا فكاك لصفا

-١-

سأل عمرو فجأة:

- ماما: هل خلق الله الحصان؟

أجابت صفا وهي تمسد شعره:

- نعم يا حبيبي، كما خلقنا كلنا.

- كيف يا ماما؟

سأل وهو ينقلب على جنبه كي يقابل صفا. وتعلقت عيناه بشفتيها، كما في كل يوم قبل النوم. وتنهدت صفا وهي تتشرب نظرات وأنفاس عمرو، ثم أخذت تهمس:

- كان يا ما كان، في قديم الزمان، كان فيه طفل بلا أب ولا أم، طفل صغير وضعيف يعيش في قرية بعيدة. وفي صباح يوم من الأيام استيقظ الطفل، وتلفت حوله، فلم يجد أحداً، فخرج، ووجد الساحة خالية. كان كل من في القرية قد ذهبوا إلى المراعي البعيدة مع قطيع كبير من الأغنام. حزن الطفل ومشى إلى ضفة الساقية القريبة. وهناك أخذ يغرف الماء بيديه الصغيرتين الحلوتين مثل يديك يا عمرو، وراح يبلل التراب الناعم حتى صارت لديه كومة من الطين، فراح

يلعب بالطين حتى صنع منه حصاناً جميلاً، وكانت الشمس قد تقدمت في السماء كثيراً، وكان الطفل قد تعب، فغسل يديه وتمدد قرب الحصان، ونام.

في منامه رأى الطفل رجلاً ضخماً فوق صهوة حصان أسود، على الضفة الأخرى للساقية. وأمر الرجل الطفل:

- قم يا حبيبي، اركب على حصانك، وهو سيأخذك إلى أهل قريتك.

أفاق الطفل، ورأى حصاناً بألوان عجيبة، ينتظر عند شجرة الميس الضخمة القريبة. طار الطفل إلى صهوة الحصان، وطار الطفل بالحصان إلى المراعي، فلاقاه أهل قريته مهللين، وهلل له قطيع الأغنام أيضاً، وأخذ الحصان يصهل ويشبّ عالياً، ولم يهدأ حتى وعده الطفل بأن يكون له في كل يوم أخ جميل مثله.
تصبح على خير يا حبيبي.

- ماما..

همّ عمرو بسؤال، لكن صفا قاطعته بقبلة من كل وجنة، ومن الجبين، وغادرت السرير وهي تستغفر الله خوف أن يكون في حكاية الحصان كفر: الذنب ذنب يزن: فكرتْ وهي تغلق الباب على عمرو. وفي وسط الصالون وقفت لتدفع عن يزن اللوم. الحكاية تبقى حكاية. فكرت مهوّنة، وأغمضت عينيها على

الحنين الذي لفّها: أين أنت يا يزن؟ هل تذكر حكاية الحصان؟ أنت تكتب وتنسى، أنت تكتب ولا تكمل ما تكتبه. أنا أكملت لعمرو حكاية الحصان. سأظل أتممّ ما تتركه ناقصاً أو معلقاً حتى يكون لك ما تريد: حلم عمري يا صفا. سأكون كاتباً يا صفا. كلما انفردنا كنت تَعِدُ نفسك وتعدني. متى وعدتني آخر مرة؟ صباح الجمعة، قبل أن تذهب لتحضر فطورك المفضل وفطور ابنك كل جمعة: فتة الحمص يا صفا، وصفا لا تنسى، ولا تحب الفتة، ولا الوعود التي تظل وعوداً، لكنني أحبك، أفتقدك يا ملعون: أين أنت يا يزن؟

ضاعف السؤال من قلقها، كأنما لم تغادر بَعْدُ ذلك الصباح الذي لم يكن مثل أي صباح: صفا عجلى كي لا يتأخر عمرو عن الروضة، وكي لا تتأخر هي عن المكتبة. لكنها ما كادت تقطع هرولةً ما بين الروضة وموقف الباص، عند مدرسة الحرية صفا تتحاشى أن تقول: عند فرع الأمن العسكري الملاصق للمدرسة حتى فاجأها أن الموقف خالٍ على غير عادته. ثم فاجأها شاب يقود دراجته بأناة:

- اليوم ما فيه باصات.

- خير؟

سألت باستياء، وقد حسبت أن الشاب يتودد لها بنكتة، لكنه

أضاف دون أن يتوقف:

عَمْ يقولوا فيه قتيلين مشلوحين تحت بالساحة، والبلد سكّرتْ.

تلفتت صفا حولها تبحث عمن يكذّب الشاب. ولما لم تجد ظلها، استدارت لتتعلق عيناها بما يظهر من مقر الأمن العسكري، ثم عادت العينان الخائفتان إلى بوابة المدرسة: لا أثر لأحد، والشاب إذاً صادق، وعلى صفا أن تسرع إلى الروضة لتستعيد عمرو، ثم تسرع إلى البيت. وقبل أن تبلغه كانت خطى من صادفتهم وصادفتهنّ قد زادتها خوفاً. ولما احتواها الصالون أسرع عمرو إلى غرفته، بينما أخذ السؤال يروّعها: أين أنت يا يزن؟

لتدرأ السؤال وَرَوْعَاً أكبر بعدما أغفى عمرو وباتت وحيدة، أسرعت إلى التلفزيون، وأخذت تنتقل من قناة إلى قناة حتى فاجأتها قناة لبنان بدبابة تقصف في عمق الشاشة، وبدخان يتصاعد من مبتدأ الشاشة، لكأن القذيفة سقطت ها هنا، فارتدت صفا هلعةً مثلما ارتدت هذا الصباح عندما فاجأتها الدبابة في مدخل ساحة الشيخ ضاهر: كان مدفع الدبابة متطاولاً ومشرعاً مثل دبابة التلفزيون، لكن أحدهما كان ساكناً، والآخر يرتج، وخلف أحدهما ظهر عسكريان، بينما لم

يظهر أحد خلف مدفع الدبابة اللبنانية.

قبل دبابة ساحة الشيخ ضاهر لم تكن صفا قد رأت دبابة إلا في السينما أو التلفزيون. ولعل ذلك ما كان يجعلها تتلذذ وهي تصغي ليزن متباهياً قبيل تخرّجه في مدرسة المشاة في المسلمية: صحيح ضابط مجند يا حبيبي، ولكن ضابط في الميم دال. ماذا يعني الميم دال يا حبيبي؟ سلاح مضاد للدروع. ماذا تعني الدروع يا حبيبي؟ الدبابة. القلعة المحصنة التي سيدمرها يزن عمران بالمدفع (ب ١٠) مرة وبالمدفع (ب ١١) مرة.

عن يزن حفظت صفا كل ما يعرفه عن هذين المدفعين، وعن الأربي جي الذي تراه دائماً فيما ينقل التلفزيون من أخبار المعارك في لبنان. وعندما روى يزن كيف ذهبت قنبلة المدفع هباءً، بفضل تسديده، في الامتحان الذي كرسه ضابطاً، ضحكت صفا من أعماقها، كما ضحكت من أعماقها عندما أخطأ في التسديد بالماكاروف، فصححت له. وعندما روى أن المدفع الذي قضى ورفاقه شهوراً يتدربون عليه، نُسِّقَ، خرج من الخدمة، يعني بح يا حبيبتي، عندئذٍ ضحكت من أعماقها أيضاً، وهو يسأل ويجيب:

لماذا بح يا حبيبتي؟

لأن سلاحاً روسياً جديداً وفعالاً ضد الدبابات حلّ محل المدفع العجوز المتخلف.

ما اسم هذا السلاح يا حبيبتي؟

المالوتكا.

يعني سنتدرب من جديد، ومن يدري يا حبيبتي، قد يحل محل المالوتكا سلاح جديد وفعال جداً قبل أن ننتهي من التدريب على أبو خيط: هكذا سمينا المالوتكا، فلماذا تضحكين؟ أنت لا تعرفين الدرس الأكبر لحرب تشرين/ أكتوبر التحريرية التحريكية سنة ١٩٧٣. السلاح المضاد للدبابات هو الدرس، لذلك قامت بعد الحرب مباشرة سرايا الصراع ضد الدبابات المعادية، ولذلك أرسلوا الملازم المجند يزن عمران من مدرسة المشاة في المسلمية في أطراف حلب إلى سرايا الصراع في أطراف الشام: بالضبط بعد مطار المزة العسكري، بل بالضبط: فيما كان مدرسة بنات الشهداء. لماذا تضحكين يا حبيبتي؟ ألأنكِ أجّرت بيتك في حلب واستأجرت بأجره مئتا ليرة بالتمام والكمال بيتك في الشام: بالضبط في ركن الدين، بل بالضبط: في أعلى العمارة الجديدة المقابلة لموقف ابن العميد. أما أنا فلي السريرالحديدي في قاعة مثل قاعات دار المعلمين. لكن القاعة الشامية تفوح بعبق بنات الشهداء، كما

ستفوح قاعة في اللاذقية بعبق معلمات المستقبل، بينما كانت رائحة الذكور الحامضة تطبق على القاعة الحلبية، طبعاً في دار المعلمين، فلماذا تضحكين؟

كانت صفا تصغي متشككة، وعندما لم تعد تضحك صار الأمر مؤلماً، مثلما كانت مصادفة الدبابة في ساحة الشيخ ضاهر هذا الصباح مؤلمة، ومثلما كانت سخرية يزن عندما حدثته أثناء الغداء عن الدبابة، وعن الجنود الذين رأتهم في رأس شارع هنانو.

قال يزن بيقين أرجف صفا:

- حرائق حماة وحلب والشام وصلت إلى اللاذقية، لذلك نزلت الدبابات إليها ونزل الجيش.

حاولت صفا أن تهرب من الحرائق، فقالت:

- أغلقت المكتبة مبكرة، ومشيت من هناك إلى هنا. الشوارع شبه فارغة. رأيت جنوداً آخرين أمام الثكنة. رأيت الفخار والبللور أمام أوتيل الريفييرا أكواماً من الحطام. لم تسلم جرة ولم يسلم قطرميز. من يكون قد حطمها؟

قال يزن:

- حطمها الزعران الذين يسرحون ويمرحون على هواهم، ويقسمون المدينة بين سني وعلوي ومسيحي. من ساحة أوغاريت تبدأ القسمة، وما زلنا في الهيّن.

فسألت صفا:

ـ وماذا لو كانوا يعدّون أنفسهم معارضين للدولة ومجاهدين ضدها؟

ـ يظلون زعراناً ما داموا يقسمون المدينة. ما داموا يقسمون سورية كلها.

قال يزن، فتضاعفت رجفة صفا، فحاولت أن تهرب من القسمة ومن الزعران والمجاهدين والمعارضين، لكنها غصت باللقمة. ولما تمكنت من بلعها، بوغتت بصوت يزن يزحل ويزحر:

ـ ما عادوا يريدون أن يكون بين المعلمين من ليس منهم. كل من ليس منهم لا مطرح له في التعليم. وسيبدأ التنفيذ فوراً في دور المعلمين والمعلمات.

ـ المعنى؟

سألت باستنكار، فتابع بحنق أكبر:

ـ المعنى في حكمتهم القديمة الجديدة: من ليس معنا فهو ضدنا. هذه المرة ليس المعنى في قلب الشاعر. هم ينفذون ما اتفقوا عليه مع الأحزاب الأخرى في الجبهة الوطنية التقدمية: المدارس والجامعات والمعاهد مطوبة للحزب القائد، مثلها مثل الجيش، وكله بحسب ما كرّس الحزب قائداً للدولة والمجتمع: المادة الثامنة، لا أظنك نسيت.

غام سمع صفا بأصداء الاستفتاء على الدستور، وما كان يصدع الليل والنهار في حلب ضد تكريسه حزب البعث قائداً للدولة والمجتمع، وضد عدم تحديده دين الدولة، وتمتمت أسيانة:

ـ كنا قد أكملنا سنتنا الأولى في حلب. من ينسى؟ إذاً سينقلونك من التعليم.

وكان يزن يشرب ما تبقى من كأس البرتقال. ولما لم يجب أردفت:

ـ إلى أين يمكن أن ينقلوك؟

ـ إلى جهنم. لكني لن أتركهم يفعلون.

قال حازماً وهو ينهض، فتساءلت مشفقة:

ـ ماذا تستطيع أن تفعل؟

ـ ٢ ـ

بينما أخذت شاشة التلفزيون تتمزق بفعل الرصاص الذي يمزق ليل بيروت، حبست صفا أنفاسها، كيلا تشوش على صوت يزن وهو يترجّع ملء الحنايا، ويطوي ستة تلو سنة حتى يؤوب إلى حلب موجوعاً وعازماً:

يزن: أنت تعرفين حلم حياتي.

صفا: أن تكون كاتباً.

يزن: متى يأتي اليوم الذي أترك فيه التعليم وحلب وأطير إلى بيروت؟ في بيروت يصير الكاتب كاتباً.

صفا: الكاتب يصير كاتباً حتى لو في قنّ دجاج. المهم: ماذا يفعل يزن عمران ليكون كاتباً؟

يزن: أقرأ. أنت تعرفين.

صفا: ستظل تقرأ طوال عمرك، أم أنك ستترك القراءة بعدما تصير كاتباً، يخزي العين؟

يزن: أنا أكتب أيضاً.

صفا: صحيح، ولكنك لم تكمل يوماً حتى خاطرة.

يزن: كلها مشاريع ستكتمل في يوم من الأيام. سترين.

صفا: بعد أن تترك التعليم وترحل إلى بيروت.

يزن: سترين.

لم تخفْ صفا في ذلك المساء الحلبي كما خافت في ذلك المساء اللاذقي: لو نقلوه من دار المعلمات إلى أية وظيفة أخرى، فسيفعلها: فكرت وقد أخذت الشاشة تبدل رصاصها اللبناني برصاص إسرائيلي، ورويداً صار ما يتلاطم في صدرها مسموعاً جداً، يكاد يثقب أذنيها: يزن ما عاد يطيق التدريس في الثانويات والإعداديات. أفسدته دار المعلمين في حلب، وضاعفت إفساده دار المعلمات في اللاذقية. ثماني

ساعات للتدريس في الأسبوع، ومثلها لاصطحاب الطالبات إلى المدارس الابتدائية، حيث تلقي الطالبة درساً، بينما لا تكتفي عينا يزن بالبصبصة، بل تأكلان الطالبة **أكلاً**. ما من داعٍ لأن ينمّ عليه أحد لصفا. صفا حفظت يزن غيباً. حافظْتك بصمْ يا روحي. حافظْتك عن ظهر قلب يا حبيبي.

في حلب لم يفصّل يزن مرةً في حلمه البيروتي. لكنه هذه المرة فصّل:

هو: من الكتابة في الصحف وفي المجلات سأعوض راتب الحكومة براتبين. لا تخافي.

هي: والله والله ستطلب مني ثمن سجائرك.

هو: بعد شهرين أو ثلاثة سأكون رتبت أموري، فتلحقين بي أنت وعمرو.

هي: بعد شهرين أو ثلاثة ستكون علقت بغيري، وما عاد لك بصفا حاجة، ولا بعمرو.

وصفا ما عرفت يزن إلا عاشقاً لمهنته، لكنه من قبل أن يفكر ببيروت كان يسألها، بالأحرى كان يسأل نفسه:

- تريدين أن أقضي حياتي موظفاً عند الدولة؟

فكانت تجيبه مستفزة ومازحة:

- لا يا حبيبي. مستقبلك يا حبيبي اليساري الماركسي ليس في الوظيفة عند الدولة. مستقبلك في التجارة،في الصناعة،

في الزراعة. مستقبلك في الرأسمالية يا حبيبي الاشتراكي.

وكان يهمهم متوعداً. والآن، ما دام بعض وعيده قد تحقق مثل بعض نبوءتها، وإن على شكل مسخرة، أي ما دام قد صار له ولها مكتبة لبيع الكتب الماركسية والعلمانية الله الله! فالمستقبل الرأسمالي قد بدأ منذ شهور. وليزن إذاً أن يستقيل من العمل في التعليم، حتى لو لم ينقلوه من دار المعلمات إلى مديرية المالية أو إلى مديرية الاقتصاد.

من أعماق شاشة التلفزيون أقبل يزن متمهلاً وباسماً. ولما امتلأت بطلّته الشاشة اختفت شارة القناة، واختفى المذيع، والدبابات، والمقاتلون، والرصاص، والعمارات المقصوفة المحروقة التي تثقبت جدرانها كالغرابيل، وأشرعت صفا عينيها، وأتلعت عنقها لتملأها طلّة يزن: حبيبي.

مارت الهتفة في حناياها، وغمزت يزن كأنها تلعن خبثه ومكره مع النساء، فينكر، كما كان ينكر في ذلك الزمن القريب جداً، البعيد جداً، قبل أن يتزوجا، ثم في سنتهما الأولى، بل وفي الثانية. لكنه منذ تكرر إجهاضها، ما عاد ينكر أنه خبيث وماكر مع النساء. ولم يعد إلى عادته الأولى بعد ما نجا حملها بعمرو.

كان نكرانه وإقراره يتمان بصمت أشبه باللغز. وصفا وحدها القادرة على قراءة صمت يزن وفكّ ألغازه. ما كانت

بحاجة إلى أن يؤكد لها، هو أو أي كان، أنه لم يفكر بسواها منذ جمعتهما أكلة التبولة أول مرة في بيت العجوز شوقي الأثرم. في غمضة عين استمالته واستمالها، وتعاهدا بصمت ملغز أيضاً، سرعان ما غدا صخباً فضاحاً.

كانت صفا تفكر مرة بعد مرة أن نطوطة يزن بين كثيرات واحدة بعد واحدة، أو واحدة مع واحدة تظل أهون من أن يتعلق بواحدة فقط. الواحدة قد تحل محلكِ، بل سوف تحل محلكِ، أما إن كنّ كثيرات، فستبقين سيدة هذا البيت، وسيدة قلبك يا يزن يا حبيبي، وهذه هي حكمتي: رحْ حيث تشاء. ليذهبْ حيث يشاء. افعل ما تشاء. ليفعلْ ما يشاء. سوف يعود إليكِ عاجلاً أم آجلاً، وكما في كل مرة، ستكونين الصابرة الغافرة، ستكونين الصدر الرؤوم له كما لعمرو. وستهدهد لكِ فيروز التي حلت محل الحرب ملء الشاشة كما كنت تهدهدين ليزن قبل أن يجعلك عمرو أماً، ويجعله أباً، فتنفلتين من أسرِ واحدٍ لتقعي في أسر واحد، إذ لا فكاك لصفا من الأسر. لا فكاك لامرأة من الأسر. لا فرق بين أسر حبيب أو زوج أو ابن أو شقيق، الأسر هو الأسر والأسيرة راضية مرضية: هكذا تشكل صفا حكمة جديدة، لا ينفع معها قول لماركس أو إنجلز أوروزا لوكسمبورغ، ولا لسارتر أو سيمون دو بوفوار، ولا دعوى ليزن عمران.

وكانت فيروز التي تخلت الآن عن ألوانها، ولبثت بالأبيض والأسود في ركن الشارع القصي الأيسر، تلفح الفضاء بالحزن والوهن، فلا تقوى صفا حتى على البكاء، كما لو أن يزن يحشو بثيابه الحقيبة الكبيرة العتيقة الوحيدة في هذا البيت، بينما صفا تتفرج وقد شلَّها الفراق قبل أن يقع.

سوف يحشر يزن في الحقيبة دفاتر وأوراقاً من مسوداته الكثيرة المعلقة دائماً، حتى باتت صفا تحسب أنه لا يكتب غير المسودات. لن تتسع الحقيبة لما يريد حمله من الكتب، على قلتها. سوف يتعزى بما في بيروت من الكتب، ومن النساء أيضاً: تفكر صفا، بينما تنفرط دمعتان على الخدين الساخنين. وحين يخلو البيت من يزن، ستبكي حتى ترتوي. سيكون عمرو في الروضة، وستضيع وحدها في البيت، كما ستضيع في الشوارع، وفي المكتبة التي ستفتحها متأخرة لأول مرة. ستنتقض دقة بيج بن لأول مرة. وبلا حماسة ستمسح صفا الواجهة الزجاجية، ستنفض الغبار عن الرفوف، ستدلق سطلاً من الماء على بلاط الرصيف أمام باب المكتبة، ثم تجلس كما في كل صباح، تبحث عن فيروز في الراديو أو في المسجلة، تقلب في أي مجلة بائتة، تتلهف إلى ما سيحمله موزع الصحف والمجلات بعد ساعة أو ساعتين. سيطول انتظار أي زبون أو

زبونة، كما في كل صباح. سيكون النهار الأول بعد سفر يزن أصعب من أن تحتمله وحدها، لذلك ستغلق الباب الزجاجي فقط، وستمشي على مهل صُعُداً في شارع المالكي، إلى منتهاه. وهناك، ستتردد بين أن تواصل الصعود إلى بيت واصف، وبين أن تتابع إلى الروضة، لتعود بعمرو قبل ميعاده.

لا لا. ستمشي من المكتبة، على مهل أيضاً، ولكن نزولاً من رأس شارع المالكي إلى مقهى الموعد، ستتفرج على معرض دار الفجر الحلبية للكتب الروسية، ثم تتابع إلى الحديقة. ستزنّر نظراتها الموجعة الجذوعَ على هولها، ستذرع الحديقة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ثم تربض قبالة البحر: وجهاً لوجه.

قد يكون البحر غاضباً بل قد يكون حزيناً مثلها. قد يكون لاهياً غير عابئ بوحشتها، ولا بحرّ أشواقها. ولكن إلى متى يمكن أن يطول ذلك يا صفا؟ لستِ أنتِ من تهون إلى هذا الدرك. أين صفا التي كانت مضرب المثل بقوتها وشجاعتها في المدرسة وفي الجامعة، بين إخوتها وأخواتها، وبين زملائها وزميلاتها في هيئة حلج وتسويق الأقطان؟ أين صفا التي يصدح أصدقاؤها وصديقاتها وبينهم أصدقاء وصديقات يزن باستقلاليتها؟ بل أين هي هذه التي يشيد بها من يمولون المكتبة بالكتب، من دار الوثبة إلى دار الجليل إلى دار الفجر،

ومن مكتبة ميسلون إلى مكتبة الزهراء إلى مكتبة الشهباء، أي من حلب إلى الشام، قبل أن تبدأ صفا باستيراد الكتب من بيروت؟

رب ضارة نافعة: تفكر صفا وهي ترى يزن يمتّن ذات غدٍ في بيروت ما نسجت هي مع دار الفارابي أو دار الطليعة أو دار ابن خلدون أو دار العودة. ثمة دور عديدة وكبرى سوف يصل يزن بينها وبين مكتبة صفا التي لا تزال بلا اسم. على المكتبة أن تحمل اسماً قبل أن يرحل يزن. ولسوف يتعزز دور المكتبة مثلما سيتعزز دخلها. لن تقضي صفا النهار كئيبة والليل باكية إذا ما سافر يزن. يزن يا حبيبي: مارت الهتفة في عينيها، وقد عادت طلّته تملأ الشاشة، لكن اللعين ليس وحده هذه المرة. من هي هذه التي تتبعها وتتبعك يا حبيبي؟

-٣-

يعرف يزن أنها تعرف. لعبة صغيرة وماتعة وبريئة. ربما كان الزوجان بحاجة إليها بعد سنة أو اثنتين أو ثلاث على الأكثر من زواجهما: حكمة جديدة لصفا، ابتدعتها بعد ما انتهت حكاية يزن مع زهراء.

حكاية أم فضيحة؟

تقول حكمة صفا: حكاية الرجل الأولى مع غير زوجته

لا تكون إلا فضيحة. لذلك درأت صفا الفضيحة، وتركت يزن وزهــراء ينسجان الحكاية في البيت الـذي كانت ولـم تزل تتهجاه: غرفة النوم التي يستبيحها أي صديق أو صديقة، غرفة وسطى، هـي صـالون أيضـاً، يحلو السهر فيهـا كما يحلو النوم على بساطها التركي، ومنها يزحف عمرو قبل أن يتعلم المشي إلى الصـالون الذي يتوق إلى الخـارج، لكن صفـا أحكمت أقفاله، وهذه هي المكتبة: هكذا سمّت صفا الغرفـة الصغيرة الأخيرة التي حشرت فيها سريراً احتياطياً، وخزانة صغيرة امتلأت بـالكتب والمجلات. أين هي إذاً الشرفة التي تطل على جامع الميدان كي يرمي يزن منها الزجاجات الفـارغة على حديقة الجامع؟

هـا هي ليلة العاصفة المطرية التي لا تنسى. يزن وزهراء ساهران في الصـالون، بينمـا انسحبت صفـا إلى سريرهـا الذي لاصق سرير يزن، منذ فـاض طول عمرو على سريره الصغير، فـانتقل إلى مـا بين أمه وأبيه.

في تلك الليلة تـأخـرت زهــراء عن الـعـودة إلـــى المدينة الجـامعية، حيث تقيم منذ سنتهـا الأولى في هندسـة الكهربـاء، ولسوف تنام إذاً حيث تشاء: هنـا في الصـالون، علـى الصوفا، أو هنـاك على السرير المحشور في غرفة المكتبة، حيث أوى

رياض الصالح الحسين مراراً قبل وبعد أن يكتب في زهراء قصيدة فقصيدة. ولأن زهراء كانت قلقة جراء العكر الذي أخذ يتراكم بينها وبين رياض، فقد بدا يزن يحدب عليها من قبل أن تختفي صفا. وعلى الرغم من أن صفا لم تتلصص قط على من قد ترميهم أو ترميهن السهرة نياماً، فقد رأت يزن في تلك الليلة وهي غافية مثلها مثل باب غرفة النوم المغلق عليها وعلى عمرو يمسح على خدي زهراء ما لا بد أن يكون دموعاً، وإلا ما كان لأصابعه أن تطيل طوافها بالخدين. ثم تراءى لصفا رأسُ زهراء يتوسد كتف يزن، والحدب يصير حناناً، والحنان يسخن حتى يلفّ خصر زهراء بذراع يزن. ولا بدّ، من بعد، أن تكون أصابعه قد هصرت نهداً، أو تسللت إليه، ولا بدّ أن شفتيه قد عصرتا شفتيها، بل ربما تكون أسنانه قد استرقت من الشفتين قضمة.

لأمرٍ ما تراجع يزن وزهراء عما بدآه. ولأمرٍ ما أيضاً لم تنم زهراء وحدها، لا على البساط التركي ولا في السرير الاحتياطي، بل تهادت خلف يزن إلى سريره، واندست بينه وبين عمرو، فضاق السريران بالأجساد الأربعة، أو هكذا خُيِّل لصفا، فآثرت الآخرين على نفسها، وانسحبت من طول السرير إلى عرضه، وسرعان ما أغفت.

لكن النوم استعصى على يزن وزهراء، فتراءى لصفا أن أصابع تندس، وشفاهاً تتلاحم، وباطن قدمين يلامس ربلة ساقٍ لها. عندئذٍ ابترد جلدها، وانكتمت أنفاسها، حتى تيقنت من أن باطن ذينك القدمين قد أخطأ الخطأ الذي لا يغتفر، فانسحب هلوعاً، وابترد جلد زهراء وجلد يزن، وانكتمت أنفاسهما، ولم يستطع أحد من بعد أن يصحو، ولا أن ينام، حتى زقزق عمرو.

وليس أحلى ولا أمر من التواطؤ الذي تلا: تخاطب الآن عينا صفا ألوان فيروز التي عادت تتقد ملء الشاشة، فما من أحد أشار من بعد إلى ما كان: لا صفا ولا يزن ولا زهراء. أما ما هي صفا على يقين منه، فهو أن يزن وزهراء لم يتابعا أو يكملا البتة ما بدآه تلك الليلة، ليس لأن الوئام قد عاد بين رياض وزهراء، بل لأمر آخر، بالأحرى للغز آخر ظل يداور صفا حتى طمسته أصوات الرصاص أقوى فأقوى، وليلة بعد ليلة، لكأن حلب هي التي تبرق الآن في الشاشة، وليست بيروت، بينما يخفت صوت فيروز ليغدو خلفية، ووجه رياض يقترب، ويبدو أن شفتيه تتمتمان بلحن، ثم يبدو أن أصابعه تنقر على فخذيه بلحن. وبينما تكذب صفا صَمَمَ رياض تارة، وتكذب تمتمة شفتيه تارة، ونقرات أصابعه تارة، يكون ذلك الصالون

في حلب، أو هذا الصالون في اللاذقية، قد امتلأ بهم وبهن، عراةً من الأسماء، وعلى رأس التلفزيون المغلق تصدح مسجلة عتيقة بأغنية لم تسمعها صفا من قبل. لكن الأغنية الجديدة الغريبة تلهب الصالون، فيجن جنون الأكف والأذرع والأصوات والخصور والسيقان والأكتاف والأوراك والعيون. وترى صفا فجأة الجمع ينتظم حول رياض فتقف مبهورة وغير مصدقة: على أي لحن يرقص؟ لا، ليس ما برياض صمم، وليس صحيحاً أن الأطباء الحمقى قد أورثوه علّة، وإنما هي لعبة ابتدعها هذا الملاك أو هذا الشيطان. وحين ستكتب صفا لرياض ذلك على الدفتر الصغير الذي ما إن يحضر رياض حتى يحضر، سيرسل ضحكة صادحة ويكتب لها: ولم يكن ما ببيتهوفن صمم، ولم يورثه الأطباء الحمقى علّة. عندئذٍ حدقت فيه، كأنما تسبر أعماقه، وفكرت فيما يجمع أيضاً بينه وبين بيتهوفن. ولأنه أدرك ما كان يشغلها، كتب لها: كانت الكتابة وسيلته الوحيدة للتواصل مع الناس، وها أنا كما ترين، لكنه حاول أن يخفي علّته عن الناس، ولم يكن يحبهم، أما أنا فعلى العكس. ماذا بقي يا صفا؟ نظرت إليه حيرى، فكتب: بيتهوفن موسيقي وأنا شاعر. بيتهوفن عبقري، ورياض عبقري: ياللكارثة! وجمع الأوراق والقلمين واختفى، فصحت صفا على خرس الشاشة

التي لم يبق لها إلا أشلاء خرساء: قدم وكف وشقفة من صدر ونتف من لحم وشعر. وما إن عاد للشاشة صوتها حتى انطوى جذع صفا وهي تعصر أحشاءها، وتدفع وجعاً مباغتاً، ربما كانت لولاه ستدمغ يزن بقدر يسير على الأقل من النذالة، ليس انتقاماً لها هي، بل انتقاماً لصديقه رياض، أو على الأقل انتقاماً للقصائد التي كتبها رياض بزهراء، وكان يزن يكاد يحفظها كلمة كلمة، كأنه هو من كتبها، وليس كما تحفظ هي أو زهراء: مقطعاً من هنا وبضعة من مقطع من هناك، ولكن أين هو يزن يا صفا؟

كانت الشاشة هي التي رمت بالسؤال، ثم شرعت بنشرة جديدة للأخبار، فشبّت صفا كأن ناراً قد لسعتها: أين أنت يا يزن؟ أين اختفيت منذ الصباح؟ ويبدو أن خوفها قد أدرك يزن، فأسرع مغافلاً الدبابة التي أخذت تخترق الشاشة، وفتح الباب، فطارت صفا إليه، ولما أوشك ذراعاها أن يطوقاه، روّعهما ما باغتهما من شحوبه ووهنه، فارتدتا إليها راجفتين، وتمتم: كأن الرصاص كان يلاحقني من بيت واصف إلى ما بعد مدرسة الحرية، وما من سيارة ولا إنسان في الشوارع.

أنت وأنا ضلالنا كبير يا بصْبصْ

عصرٌ خريفي آخر يجمع رمزية ويزن في الشرفة الفسيحة التي تلوح للبحر من بعيد، من فوق رأس البطرني وحديقته، ومن فوق رافعات المرفأ أيضاً، وعَبْر ذَهَبِ الشمس الذي ستتموج صفرته بالحمرة، حتى إذا استولت الحمرة بعد زمن قصير جداً، كأنه طويل جداً وأذّن للمغرب مؤذّن جامع المغربي إلى الخلف من بيت واصف وإلى الأعلى، عندئذٍ سيكون على يزن أن يرحل.

بين آخر جلسة في الشرفة جمعته بواصف وبين هذه العصرونية التي دعا نفسه إليها، انطوت شهور بطولها، وصبّ خلالها النهر الكبير الشمالي ماءً كثيراً في البحر، وكان يا ما كان: كانت لواصف ميتة مثل حياة وحياة مثل موت: أين هو الآن؟ لماذا ترك البيت، وفضّل أن يكون في الشاليه وحيداً وبعيداً؟ من يُعنى به هناك؟ لماذا تخلّت رمزية عنه؟ لماذا لم تطمئن عليه بنفسها، بدلاً من أن تحضر إلى بيته في غيابه؟.

تساءل يزن، وأغمض عينيه مستسلماً للحنين يسري في نسغه مشوقاً لواصف. وإذ أفاقت العينان، والتفت إلى كرسي رمزية، سرّه أن الكرسي فارغة، وحمد الله على أن ثريا تشغلها عنه الآن، في الداخل.

لكن غيبة رمزية لم تطل. ولما انتبه لوقع خطواتها، كانت تنبئه كأنها تبشره بأن ثريا قد ذهبت إلى بيت خالتها في العمارة المقابلة: نحن وحدنا إذاً، لذلك ترك نظراته تتمسح برمزية، من مفرق شعرها إلى ما سطع من ظاهر قدميها، وبالكاد سُمِعَ صوته يناجي:

يسلمْ لي هالطول. ولكْ والله متل قرن الفول!

- أستاذ وأزعر!

ردت وهي تملأ الكرسي، فأردف بصوت جهير:

- تمشي على رمشي، وتهدّي على خدي.

- أزعر، بلا أستاذ. أزعر وبس.

قالت وهي تلتفت إلى الداخل.

- إي شو هالحلا!

عاد يتمتم ونظراته تصطنع الهيام.

- شو هالقلة الأدب!

تمتمت وهي ترشقه بنظراتها التي تفتنه، وبضحكتها التي ستظل تترجّع في حناياه، شأنها منذ سنوات، حين هزته لأول مرة مثلما تهز هبة الهواء ذلك الغصن الرطيب الوحيد في شجرة الأكاسيا السامقة، إلى يمين الشرفة والخلف قليلاً.

من المؤكد أن رمزية قد أرسلت الضحكة نفسها، أو أية

ضحكة لها، ما لا يحصى من المرات، منذ قدّمها واصف: خطيبتي، حتى تلك اللحظة التي صعقت فيها يزن ضحكةٌ بعينها، فلبث مبهوتاً أمام هذه التي كانت خطيبة أخيه، ثم صارت زوجه أخيه، أي محرمة عليه حتى... حتى وسوس له الوسواس الخناس.

من المؤكد أيضاً بالنسبة ليزن أنه كان على وشك الانتصار الساحق على الوسوسة والموسوس، لولا أن رمزية اغتنمت ذات مساء غفلةً من واصف، ومن أبيها، ومن صفا من كان حاضراً أيضاً؟ وهمست في أذن يزن:

- آه منك يا أزعر!

ولما تلفت حوله كأنما يبحث عمن تعنيه رمزية، أردفت:

- من بعد اليوم صار اسمك بَصْبَصْ.

ردد يزن الكلمة في سره مدهوشاً، فمعجباً، فمنكِراً. وتراءت له رمزية تعلن على الملأ العظيم الاسم الذي سمّت به المربي الفاضل والكاتب النحرير يزن عمران، ففغر فاه، كما تراءى له الآخرون يفغرون أفواههم، وانفجرت ضحكته كما تراءى له أن ضحكات الآخرين انفجرت. ولما اكتشف توهّمه كانت رمزية قد عادت تهمس في أذنه، وعيناها تطوفان بالآخرين كأنها تخاطبهم:

- سبحان الله! عيناه تغزلان غزلاً، لا يفلت منهما شيء.
- الا النساء.

همس، فتلاعب حاجباها بما لم يدركه، وابتعدت وهو يخشى أن تعلن اسمه الجديد، فتفضحه، لكن رمزية جعلت من (بَصْبَصْ) سرهما، تهمس به وحدها، مشفوعاً بغمزة، من خلف ظهر من يكون حاضراً، إلى أن أزفت الآزفة، وكان يا ما كان.

كان فيه امرأة ساحرة وفاجرة، طويلة، ما شاء الله، بطول زوجها وأطول من أخيه بَصْبَصْ، لا هي بالسمراء ولا بالشقراء، شعرها لا هو بالطويل ولا هو بالقصير، شفتاها تبدوان مرة رقيقتين جداً ومرة ممتلئتين جداً. امرأة لم يسبق ليزن أن رأى لها مثيلة. لم ير في رقة صدرها وملاسته إلا صدر زهراء. غير أن صدر زهراء ظل رقيقاً وأملس بين أصابع يزن، بينما ينتفخ صدر الساحرة الفاجرة، ويتربرب، ويتصلب، ما إن تهوّم فوقه أصابع يزن.

قبل ذلك لجم يزن نفسه مرة بعد مرة: حتى لو لم تكن محرمة عليك، فإياك ثم إياك، كرمى لواصف. وعلى الرغم من أنه أخذ يسلس لنفسه، فقد ظل يلجمها، وإن بقسوة أقل فأقلّ، منذراً بالفضيحة التي لو وقعت لقضت عليك يا بَصْبَصْ قضاء مبرماً. وربما كان سينتصر على نفسه، لولا أن الساحرة

الفاجرة دعت بَصْبَصْ إلى السهرة، أمام صفا وأمام واصف:

- بكرة السبت عيد ميلادي، لا تنسَ الهدية.

ولكي لا تدعو صفا أشارت إلى عمرو الذي كانت أصابعه مشتبكة مع أصابع ثريا، وقالت:

- حبيبتي صفا: لولا عمرو لقلت لك تعالي مع يزن. كم تحرمني ثريا من السهرات، خصوصاً إذا كان اليوم التالي يوم عمل. أنت تعرفين ضريبة الأمومة.

فعقب واصف شاكياً:

- أنا من يدفع ضريبة الأمومة والأبوة.

وكما في الأفلام والأحلام، حلّ السبت، وحلّت السهرة، وحلّ عيد الميلاد، وأحضر يزن ملء حضنه من الورود، وسرعان ما بدا أن الساحرة الفاجرة سوف تنجز هجومها الصاعق، وتضرب ضربتها القاضية، فاستسلم يزن للقضاء والقدر، وبخاصة حين أخذ واصف يتثاءب، ثم أخذت عيناه تغالبان النعاس، فحثته رمزية على النوم:

- أخوك ليس غريباً، ولن يعتب عليك.

وما كاد واصف يغيب حتى حملت رمزية كأسه، وقالت بظَفَر:

- حبة دورميكوم في كأس البيرة، ونوم الهنا حتى الصباح.

ولم تفسح ليزن كي يميز هذرها من جدها، ولا ليستفسر أو يخاف أو يستاء أو يحذر، إذ أطبقت عليه، تشمه وتضمه. ولما أصابته عدواها نسي أنه يزن، وصار كما شاءت: بَصْبَصْ، وأبحر في غيبوبة حتى دقت ساعة الحائط معلنةً انتصاف الليل، فتحرر من رمزية وتحررت منه، في صمت، وافترقا في صمت.

لكن المرة الثانية جاءت مختلفة تماماً: المكان: بيت أبيها العجوز الأثرم، والزمان: العشاء المبكر. الغائبة صفا، وبالطبع عمرو.

لم يكن كأس من العرق أو من البيرة قد فعل فعله بعد، حين غيّب المطبخ رمزية، وقصد يزن المرحاض. ولما غادره، وغسل يديه ملياً، انحرفت قدماه من أمام المغسلة إلى المطبخ المجاور، وإذا بظهر رمزية يستقبله وهي تبحث في البراد عن شيء ما. لكن نظراته التي أدركتها هي قبل أن تلتفت، جعلتها تغلق البراد، وجعلت ذراعيها تنفتحان، وركبتيها ترتخيان، فسرق يزن من باب المطبخ نظرة قبل أن يرتمي بين الذراعين، وتعجز ساقا رمزية عن أن تحملاها، كأن السحر قد فعل فعله، وليست الشهوة، ولا الفجور أو الحرام فقط، فكان ما كان: تهاوت رمزية على البلاط العاري. قبلة قبلة، وتهاوى بَصْبَصْ

كمن لم يعرف النساء من قبل. وما كادت الأجفان تطبق حتى افترقت، وكانت الصعقة قد أصابت الجسدين، فانتفضا، وشبّا، وتلفتا، وكتما الفزع والضحكة، وأسرعا بالخروج، كأن شيئاً لم يكن.

بين المرة الأولى والمرة الثانية ما كان ليزن ورمزية إلا لقاء واحد، في أوبة واحدة له من حلب، طوال ذلك الشتاء الاستثنائي، وما لم يصدقه يزن أن رمزية تصرفت كأن لم يقع بينها وبينه ما وقع. أما بين المرة الثانية والمرة الثالثة، فقد تصرفت رمزية، بما حيّر يزن: برودة هذا أم جفاء؟ حرد هو أم دلال أم تجاهل؟ ولئن كان ذلك قد أقلقه في البداية، فقد استبشر به، وبعد حين أحسّ بالامتنان لرمزية: أنتِ أطلقت هذا الجنون وأنت تنهيه.

لكن رمزية شاءت له أن يلحق بها وبواصف وثريا إلى البسّيط، في نهاية الصيف، كي يكون البحر شبه خال في نهاية الموسم السياحي. وشاءت رمزية ليزن أيضاً أن يسبح وحيداً، وأن يتفرج عليها وحيدة قبيل الغروب، وأن تجعله يتشهى ما ينعم به لباس البحر أثناء العشاء. وفجأة تثاءب واصف، وأخذت عيناه تغالبان النعاس، وانتظر يزن أن تحث رمزية أخاه على النوم. لكن ثريا هي التي فعلت: بابا أنا نعسانة،

قالت، فاحتضنت كفه كفها: بابا وأنا نعسان. وما كادا يغيبان في عمق الشاليه حتى أعتمت رمزية الشرفة وهي تهمس:

- الدورميكوم فعّال يا بَصْبَصْ.

وطوّقته، كيلا يحتج أو ينكمش أو يفرّ أو يحرن، فصبر عليها حتى انتهت منه، ثم سبقها إلى الدوش، واغتسل وهو يقشعر، بل وهو يرتجف: أنّى له أن يعرف ما اعتراه، أو أن ينساه ودعك جلده بإحدى الليفتين أيهما لواصف، وأيهما لرمزية؟ دعكاً قرمزه، دون أن يطمئنه إلى ما أن ما كان مدبّقاً على جلده قد تقشر، فهل من أجل ذلك لهج بالتوبة؟

بين يديها يفكر الآن أنه ما كان يقوى على التوبة لولا أنه لم يعد إلى هذا البيت منذ شهور، ولولا أنها وواصف لم يزورا بيته طوال شهور، ولم يكن الجفاء بين الأخوين أم ما هو أكثر من الجفاء؟ خافياً حتى على العجوز الأثرم، فكيف بصفا؟

وبين يديها يعروه الآن مثل قشعريرة الدوش أو رجفته، فيجدد التوبة في سره، وهو يتفرج على نفسه كيف تضعف، ثم تستذكر وتتشهى، ثم تستبشر، فرمزية أيضاً قد تابت لا بد أنها تابت ولذلك تعرت نظراتُها وضحكتها من الفتنة.

لماذا إذاً يشبه في سره توبتها بتوبة العنزة، وتوبته هو توبة التيس؟

كان الظل الذي أرخاه غصن الأكاسيا الوحيد الرطيب قد أخذ يرطّب الوقت، ويرفّ مع نسمة، له مثل نقائها ولها مثل نقائه، كأنه هي وكأنها هو، ليلفح يزن شعور هانئ بالأخوة، فيغمض عينيه رضياً. ولا يطول انتظاره قبل أن تومئ له من خلف ظهر رمزية شقيقته شفق، ثم تومئ له من خلف ظهر شفق أخته الوحيدة من أبيه، أي شقيقة واصف ابنة أمه وأبيه، والتي قضت أمهما في ولادتها، فصار واصف أمها، وسماها سائدة، ثم صار أباها، وزوّجها في حماة من صديق عمره عنان موسى، لكن واصف لم يرها، لا هي ولا عنان، بعدما سرى ما أصابه في أرجاء سورية، وبلغ النبأ حماة والأخت التي تحجبت ليلة عرسها، كما بلغ النبأ الصهر الذي التحى منذ أن رزقه الله بولد، وأخذ ينأى عن صديقه وربما أمر سائدة بأن تنأى هي أيضاً عن أهلها فصدعت للأمر عملاً بالحكمة التي لقنتها إياها حماتها: رضا الله من رضا الزوج، كما هو من رضا الوالدين: لماذا يا رمزية؟

في غفلة منه ومنها ارتمى السؤال على بلاط الشرفة، فحدقت رمزية في يزن طويلاً، ثم قالت:

- لأن الله أنعم على سائدة فهداها كما هدى زوجها قبلها.

ولأن يزن حسبها تسخر أو تمازح، أشاح عنها وهو يسأل:

ـ وأنت؟

ـ أنت وأنا ضلالنا كبير يا بَصْبَص، لكن الله غفور رحيم.

قالت وقد توشح صوتها بالأسى، فارتبك، وقال وهو يرنو إلى البحر:

ـ تحدثي عن نفسك.

قالت مغالبة الاستياء:

ـ أمرك. أنا سلّمت نفسي للضلالة من صغري. عمري ما خفت من هذا ولا ندمت عليه. لذلك كنت دائماً سعيدة والحمد لله. معك وحدك أحسست أنني مشيت في طريق غامضة. صحيح أنها طريق لذيذة، جديدة، غريبة، لكنني أحسست من البداية أنها طريق وعرة وغير آمنة. ولما كبر هذا الإحساس حتى ما عدت قادرة عليه قلت: يكفي يا رمزية. صدقني أنني كنت أيضاً أفكر فيك. كنت أفكر بأن يزن هو الآخر أضعف من أن يحمل مثل هذا الذنب. صدقني أنني أشفقت عليك كما أشفقت على نفسي. وعندما انقطعت أنت عن هذا البيت، فرحت.

قال وقد ازداد ارتباكاً:

ـ أنت لن تتوبي. توبتك لن تكون صادقة. لا بد أن أحداً حلّ محلي. سمعت بتوبة العنزة؟

قالت ساخرة وصوتها ينضح بالمرارة:

ـ أنت تحكم وتقرر. حلو تشبيهك لتوبتي بتوبة العنزة. شكراً.
فنقم على نفسه ما حسبه خطلها، وحاص مهمهماً:
ـ اذا كنت أزعجتك فأنا أعتذر.
ولأن مسحة كفها على كفه غفرت له، نظر إليها بامتنان، ثم إلى البحر، وهمهم:
ـ هل كانوا كثيرين قبلي؟
فأطرقت حتى استطاعت أن تغلب الحزن الذي باغتها، ثم قالت:
ـ أسوأ من عرفت لم يسألني هذا السؤال. كنت أظنك أكبر من أن تسأل مثل هذا السؤال،بشرفك ألا تصنفني بين العاهرات؟
ـ أعوذ بالله.
انتفض صوته، وانتفضت كرسيه، فانتظرت حتى هدأا، وتساءلت مبتسمة:
ـ صدقني: فرحت بحضورك أخيراً. هل كان يجب أن نقع في مصيبة كالتي وقعت لواصف، حتى نراك؟ لا تقل: السبب هو توبتك النصوح.
ـ ما هو إذاً؟
ـ قد يكون أمراً آخر يخصّك ويخصّ واصف.
ـ أنت تعرفين أن الانقطاع يولّد الانقطاع الذي يبدأ قصيراً،

ثم يطول. أحياناً يكون بلا سبب واضح أو مهم. بالنسبة لي، لا بد أن ما كان بيني وبينك جزء من السبب.

- ما تُراه الجزء الآخر؟

- لا تشغلي نفسك به. أنت رأيت أني لم أنقطع عن هذا البيت منذ خرج واصف من المستشفى. كنت أحضر كل يوم تقريباً، تباعدت زياراتي لأني كنت أشعر أحياناً أني غير مرغوب بي. كنت أخشى أن أنفرد به.

- بعدما أخبرتكَ أن واصف ترك البيت، توقعت أن تحضر مباشرة. ما توقعت أن تكتفي بالهاتف. توقعت أن تذهب خلفه إلى الشاليه، بل أن تعيده إلى البيت، ولو حملاً.

- لا أنت لحقت به ولا أنا، مثلي مثلك.

- ما يحيرني هو حكاية اعتزاله. هل تصدقها؟

- أظنه يهرب.

- وأنا أيضاً، ولكن ممن؟

ربما منك، منا جميعاً، من نفسه، من الحياة ربما، بل ربما يهرب من الموت، كثيراً ما خطر لي خلال الشهور الماضية أنه شكّ في أمرنا، أنت وأنا، لذلك كنت أخشى أن نقترب أو ننفرد كما نحن الآن.

- على كل حال زياراتك كانت خاطفة، وهذا كله صار من

الماضي. صحيح أن الزمن قصير، ولكن ما وقع لواصف جعل كل ما كان قبله من الماضي. ماذا لو بدأوا يقطعون راتبه؟ ماذا لو استغنوا عنه؟ أنا لم أتدخّل هذه المرة. ما أردت. الصحيح أنني ما تجرأت، هو أيضاً لم يدعني إلى أن أتدخّل، بل ما كان يريدني أن أتدخل، على العكس من كل ما عشناه معاً.

-الآن سأطلق السؤال الذي كتمته منذ حضرتِ إلى المستشفى، بينما كان واصف بين الحياة والموت. كان الجميع قد سبقوك. لا تقولي إنك سمعت متأخرة. أبوك قال لي إنه سمع الخبر منك. لا تقولي إنك كنت تبحثين عمن يبقى مع ثريا في غيابك، أبوك قال لي إنه كان مستعداً لأن يبقى معها، لكنك رفضت. لماذا كنت آخر من حضر؟ ولماذا كنت أول من غادر؟

- بماذا أحلف لك حتى تصدق؟ لا أعرف لماذا؟ إذا أردت أن تسيء الظن بي مثل أخيك، فلك ما تشاء. أنت لا تعرفني.

- ولا أنت تعرفينني.

- ولا أنا أعرفك. هل أحلى من أن ينام رجل وامرأة كما نمنا، وكل واحد منهما أكبر جهلاً بالآخر؟

- لا تتوهيني ولا تهربي.

- أمرك أستاذ بَصْبَصْ. أمرك أستاذ يزن. ألا تعرف كيف تأتي للإنسان لحظة شيطانية يتمنى فيها الموت لمن يحب؟

أو لا يصدق أن مصيبة قد وقعت لمن يحب، فيشمت به، ويتفرج عليه وهو يموت، أو يدير له ظهره؟ هذا ما عشته، ولو لساعة، عندما علمت أن واصف في المستشفى. أنا أحب واصف، أنا أحببت كثيرين قبله وبعده، وأنت منهم، لكنني ما أحببت إلا واصف، معادلة صعبة؟ حلّها إن كنت الأستاذ بَصْبَصْ يزن عمران. هل تصدقني؟

- لا أعرف. أريد أن أصدقك ولا أستطيع. لا أستطيع حتى أن أصدق أنك أحببتني. ما كان بيننا ليس حباً. الحب عندك مختلف عنه عندي. لكنني أصدقك. وهذه أيضاً معادلة صعبة، حلّيها وأكملي.

- كأنك تقلّب مواجعي. قبل أن يحدثني أخوك عن الزواج بيومين أو ثلاثة، كنت قد رأيت في التلفزيون لقطات قديمة بالأبيض والأسود من عرس أمير موناكو والممثلة الأميركية جريس كيلي، جريس نجمة هوليوود. لا تقل إنك نجوت من سحرها.

- أنا مجنون سينما، وخصوصاً مجنون نجماتها، يعني مجنون جريس كيلي.

- عال. وأنا مجنونة نجوم السينما، نكاية بك وبأخيك الذي وعدني بعرس مثل عرس رينيه وجريس، وأنا صدّقت.

المليونير اليوناني أرسطو أوناسيس استأجر للعرس طائرة حتى تغمر العروس بالقرنفل الأحمر والأبيض. هل تعرف ماذا قلت لواصف؟ قلت له أنا أحلى من جريس كيلي، وأفخت أحلى من أمير موناكو. أريد أن يحضر عرسي من حضر عرسها. حتى الملك فاروق أريد أن يحضر. قال واصف: تكرم عينك يا عروس، وصدقته. والله العظيم صدقته. ولولا أني صدقته ما تزوجته. ولكن بعد زواجنا بفترة قصيرة صرت أفكر أنني لا أصلح للزواج. حملت وجئت بثريا يا روحي، وصرت أفكر أنني لا أصلح أماً كما لا أصلح زوجة.

- لكنك تبدين زوجة بارعة، وأماً بارعة. لن أقول: صالحة.

- أنا أكلمك عما يخصني، في داخلي، لا عما أبدو عليه، واصف لم يفهمني. من أيامنا الأولى كلمته كما أكلمك الآن. ربّت على ظهري، وقبلني على خدي. تستطيع أن تقول إنه أخذني على قدّ عقلي الصغير. ومن شهر إلى شهر، حتى لا أقول من سنة إلى سنة، بدأنا نتباعد، ولكن إياك أن تفكر أنني أبدله كزوج بأي رجل. لو انفصلنا، لا سمح الله، أو لو وقع له مكروه، لا سمح الله، فلن أتزوج بعده. لكن لا أظن أننا سننفصل. في النهاية أنا أريده وهو يريدني. في النهاية لا يستغني أحدنا عن الآخر. ما رأيك؟

وقبل أن يجيب كان ديك الجرس قد بدأ يصيح، فوقفت قائلة:

- رجعت ثريا.

فوقف يزن قائلاً:

- إذا حضرت الملائكة هربت الشياطين.

ومدّ يده مصافحاً. ولعل كفه كانت ستلبد في كف رمزية قليلاً، لولا أن خبطاً على باب البيت قد بدأ.

معراج الصداقة

- ١ -

كان واصف قد أعدّ العدة ليحتفل بزيارة يزن الأولى للشاليه، فأسرع به إلى البحر، كما أسرع أبو زيزفونة، ليعود بستٍ من سمكات البوري. وبينما كان الأخوان يسبحان قبالة شجيرات التوت والتين التي حشدها أبو زيزفونة في رتلين حول بيته، أسرع هو إلى تنظيف السمكات، وأسرعت زيزفونة بالمنقل. وفجأة تنبهت وأبوها إلى أن الأخوين يخرجان من البحر، ويقتربان غاضبين وصاخبين كأنهما في شجار.

انصرفت زيزفونة بإشارة من أبيها، وحمل هو المنقل إلى الشاليه، وألفته وهو يوقد النار إلى أن الأخوين قد صمتا طويلاً، قبل أن تنفجر أصواتهما من جديد، فتعدد اسم سائدة واسم عنان، وتذكر الإخوان المسلمين. وانشغل أبو زيزفونة بالأصوات عن السمكات. ولما اكتشف أنها احترقت، كان يزن قد وازى شجيرات التوت والتين، مبتعداً ومسرعاً، بينما وقف واصف كسيراً. ولما سأل أبو زيزفونة عما جرى، انسحب واصف إلى داخل الشاليه، وحبس نفسه طوال ما تبقى من النهار، ثم كرر الحبس نهاراً فنهاراً، ولم يكن قضاؤه الليل على الرمل أو على الشرفة إلا حبساً أيضاً.

في الليلة الثالثة عاد إلى البيت شاحباً وهزيلاً، كأنه لم يأكل ولم ينم منذ خرج حتى عاد، وبالكاد سمع هو، أو سمعت رمزية، صوته وكأنه يندب:

- من أين ليزن هذه القسوة؟ من أين له هذه البشاعة؟

وبعدما انقاد لأمر رمزية فحلق ذقنه، واغتسل، وبدّل ملابسه وقبل أن يتناول لقمة، أطلق قهره وحيرته:

- ليزن الحق في أن يعترض على عنان. ما قلت: لا، ولكن من أين له الحق بأن يفرض رأيه على سائدة أو عليّ؟ أنا من يعرف عنان، وليس هو. ماذا يعني أن يكون الرجل متديناً أو محافظاً؟ ليكن كما يشاء ما دامت سائدة راضية به. ما عرفت يزن من قبل يفصّل الآخرين على قياساته. وهذا كله يهون أمام ما سلقني سلقاً. لو سمعتِه لما صدقت أن هذا الذي يعيرني بأمي هو يزن. يا أخي على الأقل تذكّرْ أنها كانت زوجة والدك، عِرض والدك. هل يرضى أن أصف أمه بالعاهرة؟ أمك شقفة مسيحية لبنانية رخيصة التقطها أبوك من بيتها الأرخص: هكذا تكرّم عليّ أخي المثقف المتحرر. عمري ما أحسست بأمه رحمها الله إلا أنها مثل أمي. وعمرها ما عاملتني، ولا عاملت سائدة، إلا مثل يزن. بسيطة يا يزن.

لم تكن رمزية قد عهدت من واصف أن يهدد أو يُوعِد. لكنه، ما إن اقترب عرس سائدة، حتى بدا كأنْ لم يكن بينه وبين يزن

يوماً سوء أو خصام.

واصف قلبه أبيض: قالت رمزية. ويزن قلبه أبيض: قالت صفا. وكانت الهدية التي اختارها يزن بنفسه، وحملها من حلب، مفاجأة العرس: لسائدة ملاية، وعشرة آلاف ليرة، ولعنان طربوش وصندوق من الويسكي. وكرع يزن في العرس نصف زجاجة من عرق الريان، وظل يرقص ويدبك ويصفق ويغني من أول العرس إلى آخره.

كانت فرحته بسائدة عارمة. وربما كان يكّفر عما لطمها به، وبخاصة عما لطم به أخاه. ربما كان أيضاً يغالب ظنونه فيما سيؤول إليه العروسان: لو وقف الأمر على أن يكونا الحاج عنان موسى والحاجّة سائدة عمران، لهان.

هكذا بدأ يزن الشجار ذات مساء على شرفة بيت واصف، فجرّت رمزية الأخوين جرّاً إلى الصالون، كي لا يسهر الجيران على هياج أصواتهما. وقبل أن تضع رمزية العشاء راح يزن يتكهن بانتساب عنان إلى الإخوان المسلمين، غداً إن لم يكن أمس، وبانخراطه فيما يدبرون حتى من الاغتيالات. وكانت سائدة تبكي في المطبخ، وكانت شفق تؤيد يزن على الأقل بهمهماتها ونظراتها، وهي تنتقل بين الصالون والمطبخ. ولم يطل الانتظار بعد ذلك المساء قبل أن يبدأ الزلزال في الشام، بل في حلب، بل في حماة، بل ها هنا في اللاذقية،

حين تتذكر رمزية ذلك، يمضّها أن بعض ما حذَّر منه يزن وخشيه، قد كان. ومن يدري، ربما كان كله، وربما كان ما هو أسوأ، كما عبّرتْ مراراً أمام واصف، بعدما صارت سائدة تزور بيت أخيها وحيدة، ثم صارت هواتفها نادرة، حتى اكتملت القطيعة على إيقاع ما يتفاقم من الرصاص والانفجارات في الشام، بل في حلب، بل في حماة، بل ها هنا في اللاذقية، فلماذا يا واصف؟

– ٢ –

كانت الخدمة العسكرية الإلزامية قد جمعت بين واصف وعنان في الإدارة السياسية للجيش: ضابطان مجندان يتسابقان في الحضور إلى الإدارة متأخرين كل صباح، كما يتسابقان في الانصراف مبكرين، كل عصر. وبينما تنقضي الساعات الطويلة الثقيلة على زملائهما في مجلة (جيش الشعب)، كانا يقضيان الوقت بلا عمل، إلا أن يلهيا الآخرين عما يعملون، أو أن تنفرد بهما الحكايات التي كان عنان يتولاها غالباً، وبخاصة في المناوبة الليلية التي تجمعهما مرة على الأقل كل أسبوع.

غير أن ما قرّب بينهما أكثر، كان اختيارهما في الوفد الإعلامي الذي رافق رئيس الوزراء في جولته الأولى خارج

دمشق، بعدما قام بما سمّاه عنان بالانقلاب الأبيض، فزّج بالعدد من قادة الأمس من رفاقه في سجن المزة، وهرب من هرب من الباقين، إلا من تابع الطريق مع من كان البارحة أي قبل سبع سنوات فقط ضابطاً مسرّحاً، فصار بعد ثلاث سنوات وزيراً للدفاع برتبة لواء، وها هو الآن رئيس للوزراء، ولن يطول الانتظار إلى أن يصبح رئيساً للجمهورية: يقول عنان بدهشة، فيعقب واصف كمن حلّ لغزاً: وهذه الجولة على المحافظات خطوة ضرورية، بل وحاسمة، من أجل ذلك.

لزمنٍ تالٍ طويل، لكنه ليس أطول من الخدمة العسكرية الإلزامية، لن ينسى واصف من تلك الجولة محطة حلب، ومنها لن ينسى ذهول عنان المشحون بالسخط: لم يبق واحد من رجال الدين المسيحي والإسلامي لم يحضر لاستقبال الضيف الكبير!

كان على كل منهما أن يكتب عنان يقول: يخترع قصاصات لا تنتهي، ليتزود بها زملاؤهما من المذيعين المرافقين أثناء نقلهم وقائع جولة الرفيق القائد، الرفيق المناضل، كما حدد نائب رئيس الإدارة الألقاب في أول توجيهاته للوفد الإعلامي، قبل أن ينهمر: لا تنسوا أن تذكروا وتكرروا الإنجازات الكبرى في هذه الفترة الزمنية القصيرة والخطيرة من تاريخ أمتنا.

وهكذا، ولزمنٍ تالٍ طويلٍ، لكنه ليس أطول من الخدمة العسكرية الإلزامية، لن ينسى واصف ولا عنان إلغاء القيادة الجديدة في ٣٠/١٢/١٩٧٠ مئتين وستين أمراً عرفياً ماذا يعني الأمر العرفي؟ مما أصدرت القيادة السابقة المتشنجة والمراهقة أو الصبيانية اليسارية، كما باتت تعرف في الإذاعة والتلفزيون والصحف، بالطبع: الرسمية، إذ ما من صحيفة غير رسمية منذ الانقلاب البعثي الناصري الأبيض قبل سبع سنوات. ولن ينسى واصف وعنان الإعلان في ١٤/١٢/١٩٧٠ بأن قانون الطوارئ لن يستعمل في العهد الجديد إلا فيما جاء من أجله من أجل ماذا جاء؟ كما لن ينسيا الإفراج بعد أيام من الانقلاب الأبيض عن البضائع المكدسة في مرفأ اللاذقية وفي مرفأ طرطوس، وفي مستودعات الجمارك.

لكل ذلك، ولسواه من الإنجازات الأكبر، حُقّ لحلب أن تنحر الجمال صباح الخميس السابع من كانون الثاني ١٩٧١، وبخاصة في الأحياء التي لم تحظ بزيارة الضيف الكبير. كما حُقّ للخطاطين أن يصلوا الليل بالنهار كي تضيق المدينة باللافتات التي تضيق بالشعارات. وحُقَّ للمساجد والكنائس والشوارع والشرفات أن يصل ضوءها الليل بالنهار، مثلها مثل القلعة.

هكذا تماهت أيام الأربعاء والخميس والجمعة والسبت، فما بقي غير الأحد: ألا تكفيك خمسة أيام في حلب يا صديقي؟

سأل واصف عنان الذي كان يحاول أن يستخرج عبارات شعارية سوف يحتاجها المذيعون، من الخطاب الذي ألقاه الضيف الكبير من شرفة «الأوتيل»، على حشود ساحة سعد الله الجابري.

ولما انطوى اليوم الأخير تولّى واصف اختيار العبارات الشعارية من خطاب الضيف في الضباط في المكتبة الوطنية. ولما قرأ عنان ما اختار واصف، أضاف بخط يده مكرمة الضيف على آباء الشهداء وأمهاتهم، إذ أمر بإرسال مجموعة كبيرة منهم ومنهن إلى الحج، فهيا يا حجيج وهلموا يا حجاج، وها هي شركة الطيران السورية قد بدأت برحلات الحج لهذا الموسم.

في صباح الاثنين انطلق الموكب الأسطوري إلى إدلب: رتل من السيارات السوداء لا ينتهي، وفوقه تتراقص الحوامات. وفي ساحة هنانو، شهد عنان وواصف يوم الحشر، وتاهت آذانهما خلف صوت المحافظ وهو يعدد الوفود التي تدفقت إلى الساحة منذ الفجر، مثلما تدفقت الأمطار: أريحا وإحسم والبارا وكفرلاتا وأورم الجوز وحارم وأرمناز وبزابور وسرجه

وكفر تخاريم وسلقين وسرمين، وبعد قليل سترون أيها الرفيق القائد الحشود تنتظركم على طول الطريق من هنا إلى اللاذقية: من دركوش وبداما والقنية ومحمبل وكفرنبل ومِلّس ومعراتا وبشلامون وفريكة وكفى يا سيادة المحافظ، فلقتنا يا سيادة المحافظ: صاح واصف في أذن عنان فصاح عنان: فقعت لي الطبلة.

في الساعة الواحدة والنصف انطلق الموكب إلى اللاذقية، وفي ذيله قبع واصف وعنان في سيارة عسكرية صغيرة.

كان البرد والرذاذ قد أثلجا وجهيهما وأكفهما. وبينما راح واصف يوحوح ويفرك كفيه، دعا له عنان بأن ينعم الله عليه، كما أنعم عليه هو، بزيارة المقامات المباركة التي تملأ فضاء إدلب: مقام النبي أيوب يا أخي، وما أدراك ما النبي أيوب. أنا أصدق أنه أكبر بمئة مرة من طائر العناق وأقوى بألف مرة من شمشون. ومع هذا المقام عندك مقام النبي هود ومقام النبي شيت ومقام نبي الله لوَي، نعم، مقام نبي الله لوَي في سرمين: كرر عنان مؤكداً إذ لحظ دهشة واصف التي سرعان ما عادت أكبر، وكان المطر قد بدأ يرشق الموكب والمحتشدين والأقواس المكللة بالريحان واللافتات. ولم تكد جسر الشغور تودع الموكب حتى ضاعف المطر انصبابه، وظل يضاعفه إلى أن

غمر مئات السيارات التي خرجت لاستقبال الموكب في مدخل اللاذقية، بينما كانت البواخر تطلق صفيرها، وكانت الخراف تُنْحَر أمام نادي الضباط.

والآن تعال يا صديقي، تعال يا عنان، فهذه مدينتي، هذا بيتنا، بيت أبي وأمي رحمهما الله،

* * *

هذه أختي الصغرى شفق، وهذه أختي من أبي: سائدة، ستنجح في البكالوريا في الصيف القادم إن شاء الله، وليتها تتابع الدراسة، على الأقل في الصف الخاص في دار المعلمات، لكنها تفضل أن تكتفي بالبكالوريا، وأن تجلس في البيت بانتظار النصيب، على العكس من شفق التي تحلم بأن تكون مخرجة أو ممثلة أو على الأقل أستاذة في الجامعة. وليت أخي يزن هنا لتكتمل معرفتك بأسرتنا الصغيرة.

بعد أن يعود الضيف الكبير إلى الشام سنقضي معاً يوماً أو يومين هنا. هذا حقنا، سمّها إجازة، سمّها استراحة، هذا حقنا. ولكن هل يعقل أنك لا تعرف اللاذقية حتى الآن؟

تعال يا صديقي، تعال إلى مقهى الطاحونة الحمراء، إلى مقهى شناتا، إلى مطعم اسبيرو، إلى اللاكابان أو الكازينو، إلى رشّو أو فينيسيا، إلى العصافيري أو المنتزه، تعال إلى الكورنيش،

تعال إلى البحر.

هذا هو البحر يا عنان، ها هي أوغاريت، سنمضي معاً إلى معبد بعل ومعبد دجن، سنسهر مع إيل وموت وجفن ويم، نعم مع آلهة أوغاريت، أستغفر الله العظيم، لكنها أوغاريت يا عنان، أوغاريت التي انداحت من جبل الأقرع ستراه إلى نهر السن: ستراه. لكنك تفضل الجوامع والمساجد، أعلم، سنصلي معاً في جامع أرسلان باشا، وفي جامع الأسكلة، وفي جامع صوفان. وأنت تتغنى بحمّام الدرويشية في مدينتك. تعال إذاً إلى حمّام العنّابة. أنت تفضل أن تتوه في الزواريب والحارات في مدينتك، تعال إذاً إلى زاروب ترغنيمة، تعال إلى زاروب اليهود وإلى زاروب بيت مروانا، تعال إلى زاروب بيت عليل وإلى حارة الضبعة، تعال إلى حارة التركمان وحارة القبارصة. أنت تفضل المنتزهات، هذه فرصتي لأصطحب شفق وسائدة، ثم نمضي معاً إلى مقيبق البحر وإلى مار يعقوب، إلى مغارة البزاز والزنكيرة، إلى مار طاطروس والسكنتوري: لن تكفينا إجازة واحدة، لذلك سنؤجل ما لا تقدر عليه هذه المرة إلى إجازة قادمة أو أكثر. وأنا لست غبياً يا صديقي، كما أنني لست متحجراً مثل أخوالي وأبناء أخوالي، ولا متحرراً مثل أخي يزن. لذلك لن يخفى على مثلي ما تُشرق به عينا سائدة. قلت لك

ما زال أمام سائدة سنة حتى تأخذ البكالوريا. سائدة صغيرة، فدعنا الآن نَعُدْ إلى الشام قبل أن يغضب رئيس الإدارة ويتفنن في معاقبتنا لو تأخرنا.

من بعد يا صديقي لن نلتقي فقط بالساعات التي تجمعنا فيها الإدارة نهاراً أو المناوبة ليلاً. سنلتقي كل ليلة. وسيكون لك أن تهرف على هواك.

-٣-

واصف، صديقي: هل يعقل أنك لا تعرف حماة حتى الآن؟ تعال إذاً: سنمضي نصف هذه الإجازة هنا ونصفها في اللاذقية، ثلاثة أيام هنا وأربعة هناك. هذه هي المناصفة العادلة. وهذا هو بيتنا. تقول: قلعة؟ نعم نعم، هو مثل القلعة، لكن ما بقي فيه أحد غير نحن الثلاثة: هذا أبي، الحاج أبو يقظان وهذه: أمي، الحاجة أم يقظان، وأنا أصغر إخوتي الذين توزعوا بين حماة والشام. ومن مطرحك هنا تحت هذه العريشة: هذه هي قلعتنا الكبرى، قلعة حماة، هذا هو الخندق الذي يسوّرها. لا تقل إنك لا تعرف الخندق الذي يسوّر قلعة حلب. أنا أتهجى القلعة حجراً حجراً وحرفاً حرفاً. كل حجر هو حرف يا واصف. كنت يا صديقي أثناء الجامعة أتهجى قلاع محافظتنا كلها حجراً حجراً وحرفاً حرفاً: قلعة المضيق

وقلعة آفاميا، قلعة أبو قبيس وقلعة بعرين، قلعة شميميس وقلعة مصياف. لكن القلعة التي أسرتني ولن أتحرر من أسرها هي قلعة شيزر، ومنها أسرني خصوصاً باب السر: سرداب يا صديقي يصل القلعة بالعاصي عبر الخندق الذي تتغاوى عليه القناطر. هذا يكفي إلى أن ترى.

أنت سبتك أوغاريت وحدها، وأنا سبتني الأوابد والخرائب وكل ما هو عتيق. لذلك كان عليّ وكان لي أن أدرس التاريخ بدلاً من هندسة الميكانيك. لو كان في جامعاتنا كلية للآثار لَمَا ترددت في الانتساب إليها.

من ير حماة مثلك لأول مرة، فسوف يبدأ بالنواعير: ناعورة الجسرية وناعورة المأمورية، ناعورة الدهشة وناعورة القاق والأربع نواعير. ولو شئت يا صديقي لمشيت بك من آخر جسر الرستن إلى سد العشارنة، حتى تعدّ مائة ناعورة على الأقل، بين حية وميتة. الناعورة تموت؟ مؤكد يا صديقي. قد تعمّر وقد تموت صبية مثل الإنسان. لكن العاصي يبدو كأنه لا يموت. أستغفر الله.

هذا هو عاصي حماة الذي سنعبر فوقه مرة بعد مرة. هذا جسر السرايا الذي كانوا يسمونه جسر المراكبي. وها هي له وحده تَرْحُبُ ساحة العاصي. وهذا جسر العبيسي. انظر إلى

الأسفل: هذا طريق حلب الشام. وهذا جسر الهوى أو الجسر الكبير الذي هوى ذات فيضان، فهو ليس جسر الغرام، لا تنسَ، فلنا إليه عودة. وهذا جسر باب النهر مقابل الناعورة المحمدية، لا تنسَ، فلنا إليه عودة. والآن تعال إلى الخانات: سنبدأ من حارتنا، من الحاضر: هذا خان برهان، وهذا سوق برهان بجانب الخان، وهذا مسجد الأفندي في قلب السوق. وفي الحارة تعال أيضاً خان عجيل، وهذا خان رستم باشا، وهذا خان الصحن، وهذا خان الجمرك، وهذا خان الحنة، وهذا خان أسعد باشا العظم، انظر: قرب باب البلد، كان اسمه أيام فرنسا خان العسكر، وسنة جلائها صار مدرسة صناعية، فلو كنت يا صديقي أكبر قليلاً، لكنت تعلمت فيها حرفة غير السباكة، ولكنت صرت معلم حرفة فيها لغير السباكة.

لكي لا تملّ سنضرب الآن في الأسواق كيفما اتفق. منذ صغري علمني أبي كما علّم الأكبر فالأكبر من إخوتي كل ما ترى: النواعير والخانات والأسواق والجوامع والمنتزهات، وما فات به أبي تكفَّل به إخوتي كل صيف، من إغلاق المدارس حتى افتتاحها.

سنبدأ بسوق الحاضر، بسوق حارتنا، فاختر ما تشاء: لحوم وفواكه وخضار ومناجل وفؤوس وحراب وفروات وبسط،

ثم هيا بنا إلى سوق الطويل الذي سيستهويك سقفه المعدني قبل أن يستهويك ما يزدان به من الشراشف والأسرّة والفرش والعطور. لا تنسَ أن تأتي بعروسك إلى هذا السوق، ففيه تجهّز العرائس. والآن إلى المرابط لتتفرج على الخلطة الفريدة من الكهربائيات والزيوت والسمون. أسرع بنا لنخرج من الغرب إلى شارع صلاح الدين، ثم نتوه من سوق إلى سوق. اليوم الخميس: سنمضي إلى سوق الخميس قرب المحطة، قرب معمل الدخان، وغداً نمضي إلى سوق الجمعة في المطرح نفسه. اليوم نتفرج على الألبسة العتيقة وعلى الألبسة الجديدة وعلى الدجاج والبط والإوز والحمام، وغداً نتفرج على «البسكليتات» والكهربائيات العتيقة والجديدة. ومن السوقين لن يستهويك ما سيستهويك في سوق النحاسين، فاختر ما تشاء: الدلال والصواني والمناقل والطناجر والمناسف والمقالي والحِلاَت والسيوف. والآن سنضرب عصفورين بحجر: من حي إلى جامع ومن جامع إلى حي. سنبدأ بالجامع الكبير وحي المدينة ستدهشك المئذنة المثمنة فالجامع النوري مقابل الكيلانية ستدهشك المئذنة المربعة والمنبر الأبنوسي، وتذكرْ أن قدميك حرنتا هنا أمام الجامع حتى ارتوتا من الناعورة الكبيرة ومن الناعورة الصهيونية الصغيرة.

بعد جامع أبي الفداء في حي باب الجسر، فجامع السلطان في حي الدباغة، سيحق لك أن تنعم بفنجان قهوة في مقهى الأطلال أو في مقهى ومنتزه الروضة الصيفي. هنا كان يشرب القهوة أيضاً أكرم الحوراني ما رأيك بهذا الداهية؟ أما إذا كان الوقت عشاءً، فيحق لك أن تنعم باللقمة الهنية وبالسهرة الرائقة في مقصف البستان أو في الأربع نواعير الذي كان الحاج أبو يقظان يفضله، ولا يزال، منذ أنشئ أيام الجمهورية العربية المتحدة.

والآن يا صديقي، الآن فقط يحق لك أن تقول إنك حموي، كما حُقّ لي أو سوف يحق أن أقول إنني لاذقي.

-٤-

كثيراً ما تكون الخدمة العسكرية الإلزامية مثل المدرسة. فقد تؤسس لصداقة لا تبهت ولا تبلى، مهما تطاول بها الزمان أو تناءى بها المكان. وهكذا كان على ما بين واصف وعنان أن يكون، لولا أن فرقت بينهما العقائد والحدثان.

فبعدما عاد واصف إلى اللاذقية معلمَ حرفة في الثانوية الصناعية، وبعدما عاد عنان إلى حماة موظفاً في كلية الطب البيطري ماذا يفعل مهندس الميكانيك في كلية الطب البيطري؟ ظلا يتبادلان الزيارات والاتصالات الهاتفية. ومن سنة إلى

سنة صار عنان هو المبادر غالباً.

عبر ذلك كان واصف يرصد متهيباً ومتشككاً ما يحسب أنه تبدلات في عنان، وبخاصة بعد زواجه من سائدة. وربما كانت البداية في اللحية السوداء التي أطلقها شبراً بعدما صار أباً، أو في حديثه الحار عن الشيخ الشاب والمهندس أيضاً مروان حديد، أو في حديثه الحار أيضاً عن المظاهرات التي قامت لتفرض على الدستور أن ينص أن دين الدولة الإسلام، وأن الإسلام هو المصدر الوحيد للتشريع.

في خريف السنة نفسها ١٩٧٣ تقدم عنان إلى خطوبة سائدة. وبعدما قُرئت الفاتحة، وعلت الزغاريد، وتناولوا جميعاً السمكة الحرة التي تفننت رمزية في إعدادها، انفرد واصف وعنان، فهمس واصف بما كان يلح عليه منذ حين:

- ما حقيقة ما يتردد عن تشكيل الشيخ مروان حديد للطليعة الإسلامية المقاتلة؟

أنكر عنان علمه بذلك البتّة، وأورث واصف الحزن، لأنه كان متيقناً من أن عنان يكذب.

بعد سنوات، ومن أجل عنان بخاصة، وأملاً في فهم أعمق لما أخذ يتلاطم في الشام وحلب واللاذقية وحماة وسواها، سعى واصف طويلاً إلى نسخة من كتاب سعيد حوّى (جند الله ثقافة وأخلاقاً) وحين أعجزه الكتاب في اللاذقية، لجأ إلى

يزن، فلما جاءه به لم يصدق أن يزن اشتراه من مكتبة الفرقان في وسط المدينة، وأن الكتاب ليس متوفراً في المكتبات فقط، بل في جوامع ومساجد شتى، كما أكد رياض الصالح الحسين وزهراء وأكثر من زميل في دار المعلمين.

كان قد تناهى إلى واصف أن الشيخ سعيد حوّى هو مرشد التيار الجهادي في جماعة الإخوان المسلمين، والذي عُرف بالطليعة المقاتلة. وقد دفع الكتاب بواصف إلى حماة بقية نهار وليلة، ليدرك أن عنان هو الذي يعلن، وليس الكتاب، أن المجتمع السوري في أغلبه فاسق، لكنه ليس كافراً ولا مرتداً. أما الأحزاب الكافرة فهي أحزاب الشيوعيين والبعثيين والقوميين السوريين وبعض الناصريين. ومثل هذه الأحزاب جماعات العلمانيين واليساريين والتقدميين والتنويريين. وحين أعلن عنان شعاره الجديد (أمة إسلامية واحدة ذات رسالة خالدة) حسبه واصف مازحاً إذْ يناكف شعار حزب البعث (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة). لكن عنان كان جاداً، مثلما كان جاداً في حكمه على من ينكر وحدة الأمة الإسلامية بالقتل، فكيف بمن ينكر ما لا يحصى من الأوامر والنواهي التي تجعل القتل مشاعاً، أو يقع فيها، أو يخرج عليها: سأل واصف في لحظة حاسمة من السهرة الحاسمة، فتابع عنان كأنه لم يسمع اعتراض واصف:

- قبل القتل ومعه وبعده، أمامك التهديد والتخويف، وهذا كله سوف ينظمه الحزب الجهادي الانقلابي الرباني الذي سماه الشيخ سعيد: حزب الله.

عاد واصف محملاً بنصيحة صهره وصديقه بأن يقرأ كتاب الشيخ سعيد (الإسلام) بمجلداته جميعاً. وسعى إلى أن يزين الكتاب لواصف، فحدثه عما نصّ عليه من أن وطن المسلم هو فقط حيث تقام شريعة الله، ومن أن جنسية المسلم هي عقيدته التي تجعله عضواً في الأمة المسلمة، في دار الإسلام، أما دار الحرب فهي الأرض التي لا يهيمن فيها الإسلام، ودار البغي هي التي يسيطر عليها الخارجون على الإمام الحق، حتى لو حكموا باسم الإسلام، ودار العدل هي...

لكن واصف سأل مقاطعاً: من هو الإمام الحق؟ ما شروطه؟ من ينصبّه؟ وما هي شروط من ينصبونه؟ ولم يكن خافياً أن واصف يكاد ينفجر.

ومن بعد، لم يذهب إلى حماة، ولم يحضر عنان، ولا سائدة، إلى اللاذقية. وبعد ما حلّ الهاتف محل اللقاء شهوراً، تقطّع هو أيضاً إلا في العيدين: الكبير والصغير. ولئن كان واصف قد تآلف مع وجع القطيعة، إلا أن الوجع تجدد، بل وتضاعف، عندما نازل الموت وجهاً لوجه.

أنا كاتب بالقوة، وأنت كاتب بالحلم، من هو الكاتب بالفعل؟

كان الصيف في أوله، ولم يمض على إغلاق المدارس أسبوع واحد، حين أسرع واصف إلى الدرْج الأسفل من المكتبة الصغيرة، والسؤال الذي لم يفارقه طوال الأسبوع يهمزه: ماذا ستفعل الآن؟

زيّن السؤال له أن رمزية قد أودعت ثريا عند خالتها في العمارة المقابلة، قبل أن تسرع إلى مديرية الصحة: طبعاً تأخرت كالعادة.

من علٍ أكبّ على الدرْج ريثما عاد السؤال يهمزه: ماذا ستفعل الآن؟ ودون أن ينتظر جواباً، أمره السؤال أن يقرفص، فقرفص، ثم أمره أن يفتح الدرْج الأسفل، ففتحه.

وحده هذا الدرْج في البيت ذو قفل، والمفتاح لا يفارق واصف، لا سر على رمزية إلا سرّ هذا الدرْج، والسؤال يأمر: هات الدفتر، فيأتي واصف بالدفتر الأنيق، يود لو أنه يقبله أو يضمه، أو على الأقل يدع أنامله تتمسح به. لكن الدفتر ينهض بواصف الذي يقرّ بذنبه: النسيان أو الإهمال: سيّان. وحين

يجلس على الكنبة المقابلة للتلفزيون المغلق، يبرق له البحر، فتبرق له أوغاريت، ويهمزه نداء الخم /العش/ الوكر، فيطير، ولا يحط حتى يسأله الدفتر: من هو الكاتب بالقوة يا واصف؟ فيغلق باب الشاليه على نفسه حتى تصحّ الخلوة، ويهمس للدفتر: يزن هو الكاتب بالحلم، ويسكت عما صنّف به يزن أخاه ذات عشية حشرتهما في شرفةٍ ضيقةٍ تطل على جامع الميدان، ومنها يرمي يزن الزجاجات الفارغة في فناء الجامع آخر الليل.

كان واصف في واحدة من زياراته القليلة لبيت يزن في حلب، عندما رأى ذراعاً ترمي زجاجة، والزجاجة تقفز فوق عرض الشارع الذي يفصل الشرفة عن فناء الجامع، وكما استملح فعلة يزن، استنكرها، وسأله عن إيمانه وإلحاده، بالأحرى، كرر سؤاله القديم منذ عهد يزن بالجامعة وافتتانه بالماركسية. لكن واصف لم يسمع الجواب، إذ أومض الفضاء المعتم فوق قبة الجامع تماماً، ولكن عالياً جداً، في كبد السماء. ومن خلل الوميض تراءى لواصف ذلك الشخص / الشبح/ الكائن الذي تراءى له في أول ليلة قضاها في العراء، بين البحر وأوغاريت، قبل أن تكون له الشاليه.

كان قد اشترى قطعة صغيرة من الأرض هناك، لا تعدو

ستين متراً مربعاً، ليعانق حلماً قديماً: أن تكون له شاليه، عينٌ لها على البحر، وعينٌ على أوغاريت. وريثما أسفر الحلم عن خم أو وكرٍ أو عش، صار يقضي في أرضه ليالي متباعدة، منذ الربيع حتى الخريف، يتهجّد السماء حين تكون مرصعة بالنجوم، أو يسبر غور الغيوم مهما تلبدت، وينتظر من ظهر له في ليلته الأولى.

كانت تلك الليالي، ومن ينتظره فيها، سرَّ واصف عن أقرب الناس إليه. ولما تطاول الانتظار، ضاق صدره، وبلغ به أن حسب أنه سينفجر إذا لم يحدّث أحداً عن الشخص /الشبح/ الكائن. وهكذا انفلت لسانه، ليقصّ على يزن قصة من سيسميه علاّم مرة، ويتركه بلا اسم كل مرة. وفي غفلة منه ومن يزن، قال لسانه إن ما يقصه هو القصة المستحيلة، قصة لا تُكتب ولا تكتمل. وتيبّس اللسان حتى خاف واصف من أن يعجزه النطق أبداً. لكن يزن قال بعد ردحٍ من الصمت:

- أنت يا أخي كاتب بالقوة.

ففكت عقدة لسان واصف، وقال ضاحكاً:

- أنا كاتب بالقوة، وأنت كاتب بالحلم. من هو الكاتب بالفعل؟

وما إن عاد إلى اللاذقية حتى أقبل على القرآن، ينقب فيه،

وينقل منه إلى الدفتر الأنيق الصغير الذي انفتح بأناة وفخامة على العبارة الوحيدة التي تتصدر صفحته الأولى:

«قال كارل غوستاف يونغ: أنا لا أؤمن بالله، لكني أعرفه. ويقول واصف عمران: «أنا أؤمن بالله، ولكني لا أعرفه»».

وأسرع الدفتر إلى الصفحة الثالثة، وفيها قرأ واصف، كأنه ليس هو من كتب:

«واصف عمران ٣٧ سنة، متزوج وله بنت ويحمل البكالوريا الصناعية حرفة السباكة. معلم حرفة في الثانوية الصناعية. والدته مسيحية لبنانية. يتيم الأم والأب. يحب القراءة. له أخ من زوجة أبيه الثانية. أخوه يدرّس في دار المعلمين في حلب».

وبعد فراغ كبير، قرأ في أسفل الصفحة:

«واصف عمران منذ صغره حتى اليوم وهو يقرأ القرآن ويناجي رب العالمين. وإذا كان لا يصلي إلا في المناسبات وصيامه قليل إلا أن صاحب هذا الدفتر رجل موؤمن نقي الإيمان، إن شاء الله، على العكس من أخيه يزن، والله أعلم».

من مطرحه رامق واصف الحقيبة القماشية الصغيرة المطرزة التي أودعها نسخة من القرآن الكريم، وعلّقها فوق رأس السرير، وأحسّ بنفسه خفيفاً وشفيفاً وهو يحضن الدفتر ويطير بخفقة جناح أو خفقتين ثم يحط: أوغاريت.

كانت شمسها حارقة، وندم واصف لأنه نسي القبعة. وكما في كل مرة: كانت خالية، حتى الناطور جار أبو زيزفونة وصياد مثله اختفى. وسوى ذلك كان كل شيء كما هو، منذ عرفها:

الخراب.

الخراب العظيم.

الخراب الخالد.

الأحجار الكبيرة، الأحجار الصغيرة، الخنافس، الأعشاب اليابسة، الأعشاب النابتة من شقوق القبور والحمامات والآبار والمشاغل.

وقبل أن يهبط عليه ظلٌّ من السماء ليقيه الشمس الحارقة، كان قد استلقى وأغمض عينيه. وما إن أخذ الظل يظلله حتى أخذت تلهج بلسانه وملء صدره ألسنةٌ ليست كالألسنة: هذا حوري وهذا مصري، هذا حثي وهذا بابلي، هذا سومري وهذا آشوري وهذا... هذا أوغاريتي، وماذا أيضاً أيها الجسد الهش العابر المشلوح من أقصى أوغاريت إلى أقصاها؟

ران الصمت الجليل ملء الروح وملء الفضاء حتى شقه صوتٌ ليس كمثله صوت، لا صوت صبية هو ولا صوت عجوز، لا صوت طفل هو ولا صوت طفلة، لا صوت شاب هو ولا صوت

شيخ، لا بالبكاء هو ولا بالغناء، وطفق الصوت يردد: نحن نقص عليك أحسن القصص، حتى استوى واصف خاشعاً أمام القصة، كأنه هو بعل يجأر:

- يا موت تعال. تعال واركع هنا أمامي.

حضر موت متحدياً.

موت قوي وبعل قوي، لكن واصف ضعيف.

القويان ينتطحان كالبقر الوحشي.

يعضان بعضهما كالأفاعي.

موت قوي وبعل قوي.

لكن واصف ضعيف.

القويان ينتطحان كالبقر الوحشي

يعضان بعضهما كالأفاعي

موت قوي وبعل قوي

يمزق أحدهما الآخر مثل كلبين سلوقيين.

سقط موت وربض فوقه بعل.

عندئذ بدأ الاحتفال في القصر الذي ما مثله قصر.

طوى واصف القصة الأوغاريتية، وعاد جذلان إلى الخم / العش / الوكر، وفتح القرآن الكريم، وفتح الدفتر الأنيق الصغير، وتعوذ، وبسمل، ثم راح يقرأ يكتب:

من أجل سيرة علاّم:

فصل المشيئة

* كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون آل عمران ٤٨.
* والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم البقرة ٢١٣.
* يؤتي الحكمة من يشاء البقرة ٢٦٩.
* والله يؤتي ملكه من يشاء البقرة ٢٤٧.
* والله يؤيد بنصره من يشاء آل عمران ١٣.

فصل الرقيب:

* ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ق ١٨.
* أم يحسبون أنّا لا نسمع سرهم ولا نجواهم ورسلنا لديهم يكتبون الزخرف ٨٠.

فصل الجزاء:

* والله عزيز ذو انتقام آل عمران ٤.
* والله شديد العقاب آل عمران ١١.
* والله أشد بأساً وتنكيلاً النساء ٨٤.
* وأملي إليهم إن كيدي لمتين القلم ٤٥.
* كلا إن الفجّار لفي سجّين× وما أدراك ما سجّين المطففين ٧و٨.

فصل الملك:

* هو الإله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون.

وتمتم في أسفل الصفحة هامش: للملك مرادف أو أكثر من غير جنسه، كأن تقول: رئيس. وقد يقول ملحد، أو رقيق الإيمان، أو واحد ممن يتشدقون بالديمقراطية والحرية: ها هنا أساس مكين للديكتاتورية.

ألوى واصف عن الهامش، وتمتم: أستغفر الله. سبحان الله عما يشركون. وشطب الهامش ولعل ذلك ما جعله قادراً على أن يقرأ يكتب في الصفحة التالية:

فصل الإنسان:

* إن الإنسان لربه لكنود العاديات ٦.
* إن الإنسان لفي خسر العصر ٢.
* إن الإنسان لكفور مبين الزخرف ١٥.
* إن الإنسان خلق هلوعاً المعارج ١٩.
* كلا إن الإنسان ليطغى العلق ٦.
* لقد خلقنا الإنسان في كبد× يحسب أنْ لن يقدر عليه أحد البلد ٤و٥.

* لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم× ثم رددناه أسفل سافلين التين ٤و٥.

* لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط فصلت ٤٩.

فصل الرحمة:

* بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد فراغ كبير، وقبل أن تنتهي الصفحة، اندفع واصف يقرأ ويكتب:

* إن هذا هو القصص الحق آل عمران ٦٢.

وبينما أغمض عينيه، وراح يردد الآية مأخوذاً بها، انغلق الدفتر. ولما اكتشف أن الدفتر انغلق، وأنه ليس هو من أغلقه، اضطرب، ومثله اضطرب السؤال في صدره: هذا هو القصص الحق، والقصص الباطل ما هو؟ ولم يهدأ واصف، ولا السؤال، حتى انفتح الدفتر على صفحة بيضاء، فصفحة تراءى له أنها غبراء، فصفحة تراءى له أنها سوداء كأنها الليل، فتمكن منه الخوف حتى تلت صفحة زاهية، فأقبل عليها يقرأ يكتب:

فصل السر:

* الم الر كهيعص نون طسم ق المص يس حم. ص.

* هو الأول والآخر والظاهر والباطن الحديد ٢.

* تعرج الملائكة والروح إليه في يومٍ كان مقداره خمسين ألف سنة المعارج ٤.

* ما كذّب الفؤاد ما رأى. أفتمارونه ما رأى. ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهى. عندها جنة المأوى. إذ يغشى السدرة ما يغشى النجم ١٢ – ١٧.

بحبورٍ فائق أغلق واصف الدفتر والقرآن الكريم، وتهادى إلى الشرفة يملأ عينيه وأنفاسه من البحر. وبعد أن أسلس له البحر ثواني معدودات، تماثل يزن يقترب، كأنه قد شق العباب. وسمع واصف لغطاً يقترب من جهة أوغاريت، فالتفت، وإذا بيزن قادم كأنما قد شق الركام. ولما توحّد يزن البحري بيزن الأوغاريتي، بادر أخاه كما بادره في مساء ما، في مكان ما، ربما كان شرفة مطلة على حديقة في بيت يزن، أو شرفة مطلة على البحر في بيت واصف، وربما كان ها هنا، في هذا الوكر / الخم / العش حيث وجد الدفتر الأنيق الصغير مشرعاً ووحيداً، إذ لم يصطحب واصف القرآن يومها.

قرأ يزن الآيات عجلان، ولما بلغ آية القصص تمتم: نحن

نقص عليك أحسن القصص، ثم ردد كلمة القصص ثلاثاً، قبل أن يتلبسه المحقق ويسأل أخاه:

ـ لماذا جمعت هذه الآيات؟

فأجاب واصف وقد تلبّسه المتهم:

ـ لأبني قصة.

ـ ولماذا جعلت لها هذا التبويب؟

قال واصف:

ـ لأبني قصة.

قال يزن ساخراً:

ـ صدقت أنك كاتب بالقوة؟

قال واصف متوجّساً:

ـ تريدني أن أكذّبك؟ أنت من أنعم عليّ بهذه الرتبة.

ـ وتحاول أن تكون كاتباً بالفعل؟

ـ هذه تركتها لك. لم أقل لك إنني أريد أن أكتب قصة. قلت: أريد أن أبني.

ـ وما الفرق؟

ـ لا أعرف.

ـ قصة ماذا تريد أن تبني أو تكتب؟

ـ هل تذكر أني حدثتك مرة في بيتك في حلب عن شبح،

كائن، شخص، سميته علاّم؟ أردت...

وعجز واصف عن أن يتابع. ولما طال عجزه، قال يزن مستنكراً:

- إياك أن تظن نفسك نجيب محفوظ.

قال واصف بضيق:

- هذه لم أفهمها. اشرحها لي.

- هو أراد أن يكتب قصة الله ورسله في روايته (أولاد حارتنا)، وواصف عمران ليس أقل من نجيب محفوظ. نجيب محفوظ كتب قصة الجبلاوي،وواصف عمران سيكتب قصة علاّم! يا سلام!

عندئذٍ خاف واصف من أن يوصم بالإلحاد وهو المؤمن، فقرر أن ينسى علاّم. ومن أجل ذلك قرر أن ينأى عن يزن، وأن يهجر الدفتر الأنيق الصغير.

التنّين:

لم تكن السماء هي التي تصّب صبيبها على البحر. البحر هو الذي كان يصب عليها صبيبه، فيغرقها ثم يغرق نفسه. ومن غرقه وغرقها غمر الطوفان أوغاريت، وجرفها من على وجه الأرض، لكن هذا الخم /الوكر/ العش المحشور بينها وبين البحر، أعجز الطوفان.

عندما تيقن واصف من المعجزة، كانت السماء قد أخذت تصحو، وكان البحر قد غدا أقلّ خبطاً وعكراً، فأسرع واصف بالخروج، وأسرعت عيناه إلى بيت أبو زيزفونة، لتطمئنا عليه، ثم تسرحان على الرمل، وقدما واصف تتبعانهما.

من خطوة إلى خطوة، كان الفضاء يمتلئ براً وبحراً بما جعل يقظة واصف مناماً، كي يستطيع طيّ الزمن طية بعد طية، فإذا بسفينة تقترب وسفينة تبتعد، وإذا بصيادين أو بحّارة أو حمالين لواحدهم شبه كبير بأبو زيزفونة، وإذا بمستودعات عامرة ومشاغل للصباغ الأرجواني، ومساكب للنحاس، ومناشر للأصواف والأنسجة، لا تدع منفذاً في المينا البيضا، حيث سيقف واصف مذهولاً، ويستدير ليبارك لأوغاريت مرفأها، ويدعو للاذقية بمثله. وقبل أن يتم الدعاء، تنعم عليه

نافذة بامرأة، ربما كانت حورية، وربما كانت جنّيّة، في مثل عمر رمزية، ولها مثل شعرها، ومثل عينيها، وأصابعها تنقر على دفّ.

اقترب واصف من النافذة. ولما توقف تحتها كان الدف المستدير قد صار حُقاً بقدر الكف، بيضوياً وله رأس بطة. ولما اقترب الحُق من صدر الحورية الجنية رمزية، تاقت أصابع واصف إلى أن يكون لها أن تعطّر الصدر، فالنحر، فالخدين، فما تخفي الأذنان. وأغمض عينيه ليتشمم العطر الذي حملته الأمواج من قبرص أو من مصر، فأسكرته الشمّة، وراح يتطوح وهو عائد إلى الشاليه، وظل يتطوح بين السكرة والصحوة حتى حضر أبو زيزفونة، وكانت السماء قد أخذت تستعيد غضبها، مثلها مثل البحر.

كان واصف قد صادف أبو زيزفونة مراراً منذ بدأت أوغاريت تستميله مع الدكتور والغريبة: هكذا كان أبو زيزفونة ينادي الدكتور عبد الرحمن هلال وزوجته التي تعلن شقرتها وقصّة شعرها ولكنْتها أنها غريبة. ولما عبّر واصف عن حلمه بشاليه، عينٌ لها على البحر، وعين على أوغاريت، قال أبو زيزفونة:

- ممنوع يا أستاذ.

وأكد عبد الرحمن ما كان واصف يعرفه، فالشاطئ ملك الدولة، وبيت هذا الصياد الودود أبو زيزفونة، وكل بيوت أهله وجيرانه، ملك للدولة. لكنكم تبيعون وتشترون وتعمرون وتهدمون البيوت، وتورِّثون وترثون: قال واصف.

بعد زمن أحكم المودة بين واصف والصياد، فكانت المفاجأة السعيدة:

ـ أنا سأبيعك شقفة أرض، وأعمّر لك فيها غرفة لتكون جاري. هات.

قال أبو زيزفونة. غير أن اللعبة لم ترق لرمزية، كما سمّتها:

ـ بكرة تحبسك شرطة البلدية وحرس الشاطئ، بينما ضحكة صاحبك الصياد تفرقع.

ولم ترق اللعبة لعبد الرحمن:

ـ مخالفة بناء وتهريب رمل وبحص وحديد ودورية راحت ودورية جاءت، والأستاذ واصف عمران متهم بالاعتداء على أملاك الدولة وبالرشوة.

لكن واصف أغمض عيناً وفتح عيناً، كما طلب أبو زيزفونة، فإذا بالحلم قد تحقق، سوى أنه لم يأت شاليه، بل خماً أو وكراً أو عشاً، كما شيده الرجال الثلاثة الذين أوكل أبو زيزفونة الأمر لهم: هذا أبو حسيب أقرب لي من أخ، وهذا عبد وهذا العراج أقرب

لأبو حسيب من أخ، وهذه هي الشاليه: غرفة واحدة٥ ٥×٤= ٢٠م٢ تقريباً، وشرفة مطلة على البحر ٣×٢=٦م٢ ، ومرحاض وحمام٢×١=٢م٢، وتحتها حفرة ٢×٢=٤م٢ وبعمق ٢ م، إذ ما من صرف صحي هنا.

فيما تبقى من قطعة الأرض سيزرع أبو زيزفونة للجار الأستاذ ياسمينة وجوريتين وكومة من بصلات الزنبق والأضاليا والفتنة، وعشر شتلات بندورة وعشر شتلات فليفلة ومثلها من الخيار والباذنجان.

كانت الشاليه تخضرّ وتزهر ربيعاً وصيفاً. وكانت تصفرّ خريفاً وتتعرى شتاءً. وكان واصف يرغب في أن يقضي في الشاليه من الشتاء مثل ما يقضي فيها من الصيف، لولا ذلك اليوم الذي اجتمع فيه غضب السماء مع غضب البحر، فاجتمع واصف وأبو زيزفونة خلف النافذة، صامتين، وواجفين.

كان النهار القصير قد أوشك أن ينقضي. وكانت العتمة قد أخذت تظلل ما يظهر من البحر وأوغاريت، كما ظللت الشاليه. لكن ما يشبه النور أو النار أطبق أجفان واصف وأبو زيزفونة، كما أطبق سمعهما رعد أو قصفٌ أو انفجارات. ولما تباعدت الأجفان رأت ثعباناً أسود هائلاً ينشف قلب البحر، ويندفع إلى كبد السماء، ضارباً بذيله فيما بين الشاليه وبيت أبو زيزفونة.

ولم يكد يختفي حتى جن جنون البحر والسماء، فصاح واصف يسأل بذعرٍ وبلاهة:

- ما هذا يا أبو زيزفونة؟

عمرك ما شفت التنين يا أستاذ؟

سألت صيحة أبو زيزفونة وهو يدعك عينيه وأذنيه، فأرجح واصف رأسه، فتابع أبو زيزفونة متشامخاً بعلمه:

- التنين يا أستاذ هو الريح السوداء في أرض البحر. عمرك شفت أو سمعت بريح سوداء، ولاّ ابن آدم رآها؟ لكن من كان البحر جاره مثلي سمع بها. أرض البحر يمكن أن يراها واحدنا في الغطس، أما الريح السوداء، فعندما تشب من البحر تنقلب إلى ثعبان أسود يلمع مثل الضوء. رأيت الثعبان يلمع أم لا؟ لا أحد يعلم ماذا يمكن له أن يفعل، لولا أن حلم الله يرسل ملائكة الغيم لتقود هذا الثعبان إلى أرض يأجوج وماجوج. لو مرّ من هنا وصادف في طريقه هذه الشاليه لحملها وحملنا معها إلى القمر.

- ما الذي مرّ إذاً بين الشاليه وبيتك؟

- هو، الثعبان، التنين، ذيله. احمد الله يا أستاذ.

وما كاد يتم عبارته حتى كانت أم زيزفونة تخبط على الباب وتصيح:

- يا خراب بيتك يا أبو زيزفونة. ما بقي عندك لا توتة ولا تينة. يا ويلي، التنين حمل توتاتك وتيناتك، والله أعلم أين رماها.

حكايات أبو حسيب وعبد والعراج

- ١ -

في مقهى الاسكندرية التقيا بعدما غيّب موسم الصيد أبو زيزفونة طويلاً، وبعدما جعل اضطراب المدينة واصفاً لا يكاد يغادر البيت، بعد أن ينهي دروسه في الثانوية الصناعية.

قبل أن يثنّي أبو زيزفونة رشفة من القهوة، تنحنح، وحاص، ثم سأل:

- كيف ترى الدنيا في هذه الأيام يا أستاذ؟

- الدنيا كلها دفعة واحدة يا أبو زيزفونة؟

سأل واصف ممازحاً، وقد أدرك أن سؤالاً آخر على الأقل يخبئه أبو زيزفونة الذي أجاب:

- أقصد دنيانا نحن يا أستاذ. بلدنا.

- أنت كيف تراها؟

- أراها على برميل بارود.

- ما تركت لي ما أقوله.

ثلّث أبو زيزفونة رشفة القهوة، وتنحنح، وحاص، ثم سأل:

- نتركها تحترق ونتفرج عليها؟

ـ مدرس مثلي أو صياد مثلك ماذا يستطيع أن يفعل؟

ـ غيرنا يفعل. على الأقل نساعد من يفعلها.

ـ ما فهمت. وضح لي.

ـ بسلامة فهمك يا أستاذ.

ـ نساعد من يقتل يا أبو زيزفونة؟ نساعد من يغتال الأبرياء؟

ـ حاشا لله، ولكن صدق من قال: الظالم لا بد ما يُبلى بأظلم. الظلم سبب، بل الظلم أقوى سبب، لكنه ليس السبب الوحيد.

ـ أنا لا أعرف غيره. خربت البلد، وصدق من قال: دار الظالمين خراب.

ـ لا تنسَ أنها ديارنا على كل حال. ولا تنسَ الأصابع التي تلعب بالبلد من خارج الحدود.

أتى أبو زيزفونة على ما تبقى في فنجانه، ثم تنحنح، وحاص، قبل أن يقول:

ـ لا أظنك نسيت أصدقائي الذين عمّروا لك الشاليه؟

ـ أبو حسيب وعبد والعراج. كيف أنساهم؟

ـ الجماعة في ضائقة وقد لجأوا إليّ، وأنا لجأت إليك.

ـ المطلوب؟

ـ الشاليه.

ـ الشاليه؟

صاح واصف مستنكراً، وانتفض واقفاً، ثم ارتمى على الكرسي وهو يتلفّت خجلاً من أن يكون أحد ممن حوله قد سمعه أو رآه، وكان صوت غريب يقرعه: ما بك أيها **الوغد**؟

لا بد أن يكون واصف قد أجاب أبو زيزفونة إلى طلبه. ربما قال بصوتٍ مسموع:

ـ هي لك ولهم.

وربما قال بصوت خافت:

ـ أنا لا أكاد أدخل الشاليه في الشتاء. أنت تعرف، تصرّفْ كما تشاء.

وربما صمت، فعمل أبو زيزفونة بالحكمةالتي ترى في السكوت قبولاً، تماماً كما في طلب الأب أو الأم لابنتهما أن تبدي الرأي فيمن جاء خاطباً لها، أو فيمن أناب عنه أباه في خطبة الفتاة التي ألجمها الخجل، فأطرقت، وخفق قلبها فرحاً وارتياعاً. لماذا خالفتْ رمزية هذه السنّة؟

قلْبُ واصف لم يخفق فرحاً، بل ارتياعاً من أن تكشف كشافات أي فرع من فروع الأمن اختباءَ المطلوبين الثلاثة: أبو حسيب والعراج وعبد في الشاليه. عندئذٍ لن يُكتفى بالتحقيق مع أبو زيزفونة لن يُحقَّق معه وهو حر طليق، بل وهو معتقل حتى لو صدق هو والمطلوبون الثلاثة في إنكار أية صلة

لواصف بالأمر. فكيف إذا ما أضعف التحقيق أي التعذيب أياً من الرجال الأربعة، وأقرّ أحدهم، أو أقروا جميعاً، بأن الاستاذ واصف عمران قد تبرع بالشاليه، لتكون ملجأ لهؤلاء الذين قد يكونون أطلقوا الرصاص في ليالي اللاذقية وفي نهاراتها، وقد يكونون قتلوا من رجال الأمن من قتلوا، وجرحوا من جرحوا، وروّعوا من الأهلين من روّعوا؟

عندئذٍ سوف يقع واصف في شر أعماله، أي فيما دأب على أن ينأى بنفسه عنه من مواطن الشبهة والخطر: هل كنت كذلك حقاً طوال عمرك؟

لم تأبه رمزية تلك الليلة بما بدا عليه من الشرود الذي كان يتلون أحياناً بالقلق. كانت تنتقل رشيقة، وبخفة بالغة، بين مجلس واصف في زاوية الصالون المجانب لباب الشرفة، وبين غرفة ثريا التي ساءها وداع واصف لها ببرود. وإلى غرفة النوم مضت رمزية، حيث طالت غيبتها قبل أن تطل بفتنتها التي عرّت الذراعين، والصدر حتى منبت النهدين. وبينما تضوع عطرها ملء الصالون، وتراقصت منامتها الفضفاضة لتشف عن امتلاء الوركين أو الفخذين أو الساقين، كان واصف مستسلماً للجهامة والسهوم. ولأن رمزية كانت مكتفية تلك الليلة بنفسها، أي لأنها تزينت وتعطرت لنفسها، لم تأبه بحال

واصف الذي أخذت نظراته لا تهدأ، كما أخذت زفراته المفاجئة تكثر.

قبل ذلك كان قد أزعج رمزية أنْ لم يستطع أنْ يتناول العشاء معها ومع ثريا. وعندما أنهت رمزية واجبها التلفزيوني اليومي، وتمنت له أن يصبح على خير، لم يسترخ كعادته أمام التلفزيون، بل طفق يخاتل الندم على أنه تبرع بالشاليه، لتكون ملجأ المطلوبين، وليس ليوم أو يومين، بل ربما لأيام تتلوها أيام. ولئن خاتل الندم أيضاً على أنه ألف أن يهجر الشاليه شتاء، إلا أنه استحسن ذلك، إذ يظل الأمر أهون من أن تجمعه الشاليه بالمطلوبين. وكما في تلك الليلة، سيقرّع نفسه في الليالي التالية على الخرع والهلع، كما سيثني عليها جزاء ما عدّه تضحيتها الكبرى.

غير أنه قبل أن يقرّع أو يثني، سيتردد في الصباح بين أن يذهب إلى عمله في الثانوية الصناعية، أو أن يعتكف في البيت، ريثما تنجلي الغمة، ويبشر أبو زيزفونة بالفرج: راحوا يا أستاذ. راحوا بالسلامة، والحمد لله على السلامة. لن ينسوا فضلك. اللاذقية كلها لن تنسى فضلك.

ولأنّ البشارة المأمولة هونت على واصف، فقد مضى إلى عمله، وظل طوال الوقت يناجي البشارة كلما نسيته، ويستحلبها

قطرة قطرة كلما اكتفت بالمثول أمام عينيه بلهاء خرساء. لذلك لم يراقب بنفسه الفرن وهو يذيب الألمنيوم السائل في البوتقة، ولم يراقب البوتقة وهي تملأ القوالب. وهكذا، فقد وقع خطأ ما، وقد يكون أكثر من خطأ، حتى تكشفت الريازك عن عصارات شائهة، فترك واصف الطلاب الثلاثة يتبادلون التهم، وزملاؤهم يسخرون منهم، وأسرع إلى مقهى الإسكندرية، عازماً على أن يوبخ جميع الطلاب في الدرس القادم على ما لحظه من التماع آثار الغرافيت فوق أرنبة أنف أحدهم، أو رأس وجنة أحدهم، أو كبقع شتى من بزات الآخرين الزرقاء.

في المقهى، حيّا بنظرة خاطفة صورة قديمة لجمال عبد الناصر، وقضى أكثر من ساعة بانتظار أبو زيزفونة، تطامن خلالها أمام نظرات بعض الزبائن الذين لم يألفوا بينهم هذا الذي لا يدخن «أرجيلة»، وما من أحد قبالته ليلعبا المنقلة أو الزهر. وربما زادت ريبة الآخرين بواصف أنه لاقى ملهوفاً أبو زيزفونة الذي كان من زبائن المقهى، لكن القدامى منهم افتقدوه منذ زمن بعيد، فما الذي جاء به أمس، واليوم؟ وما الذي جمع هذا الصياد بهذا الذي يبدو أنه أستاذ مدرسة أو موظف في المرفأ، على الأقل؟

لم يزد اللقاء واصف اطمئناناً: الشباب ناموا أمس في

الشاليه. أبو حسيب نام على سريرك. ومن عندي أحضرت بطانيتين وفراشين صغيرين من الإسفنج، أقصر من العراج ومن عبد، وبلا وسادة. شباب يا أستاذ واصف، يتحملون البرد والنوم على الأرض، وللأستاذ منهم الوعد بأن يعمروا لك غرفة ثانية فوق الشاليه، مع درجها، بلا أجر. ما عليك إلا أن تحضر الحديد والإسمنت والخفاف، ووعد الحرّ دين: يقولون لك.

وأسرع أبو زيزفونة بالانصراف، ليحضر للشباب العرق والبطاطا والبيض وعلب السردين والمرتديللا والخبز، وكروز من سجائر الحمراء ومثله من سجائر الشرق، ومثله من التنباك العجمي، ولما صار واصف وحيداً، فكر في أنه كان عليه أن يؤمن طعام الشباب وشرابهم وسجائرهم، فهم ضيوفه هو، لا ضيوف أبو زيزفونة. كان عليه، على الأقل، أن يدفع ثمن ما سيشتريه أبو زيزفونة، خصوصاً أن حال الرجل تكون رقيقة في مثل هذه الأيام التي لا صيد فيها: غداً عليك أن تعوض ما فاتك اليوم يا واصف. ستكون غداً حاتم الطائي. وستكون فرصتك الأخيرة لتلتقي الشباب، وتعرف أحوالهم منهم مباشرة، وبالتفصيل، وليس بالقطارة ولا مداورة عبر أبو زيزفونة.

- ٢ -

حدّث أبو حسيب، قال:

عن أية مدرسة تتكلم يا أستاذ؟ بعد ألف عصا من أبي، ومثلها من الأساتذة «شرواك»، وصلت إلى الصف الرابع، وفي منتصف السنة قلت: دايمة إن شاء الله. اترك المدرسة لأهلها يا أبو حسيب.

يمكن كنت ابن ١٤ لما نزلت إلى الساحة لأساعد والدي. كنت بلغت مبلغ الرجال، ولما عجز والدي تركت الساحة ونزلت إلى البحر، ولكن ما نزلت كصياد مثل شيخ الشباب أبو زيزفونة. نزلت كمهرّب. كنت مع عبد ندور باللنش في الليل حول الباخرة، أي باخرة، وغيرنا يدور مثلنا، فيرانا البحارة وينادي واحدهم على واحدنا: ويسكي؟ فايسروي؟ مارلبورو؟ نشتري ما نشتري ونتسلل بأمان الله من حوض المرفأ إلى من يكون بانتظارنا، ولكن على الشاطئ أو في المقهى.

يتوقف أبو حسيب عن الكلام ريثما يعب نفساً فنفساً من الأرجيلة التي أحضرها أبو زيزفونة من بيته، وتوجها عبد بالتنباك العجمي الملغوم، بما يدخره هو أو أبو حسيب من الحشيش. وحين تنتقل الأرجيلة إلى عبد، يتابع أبو حسيب: نحن ثلاثة شباب وبنت، الله وفقها وكتب نصيبها على أبو زيزفونة. الكبير منا خُلق أعمى، والوالد أصابه العجز: مرة فتاق، ومرة بول أحمر مثل الدم، ومرة غضب الله، لا إله إلا

الله. واحد من إخوتي اشترك بسرقة من المرفأ. وقع وحده في الفخ، قبضوا عليه وحده، ونجا رفاقه. أنعمت عليه المحكمة بسبع سنوات سجن، والجرم سلب ونهب. يمكن شجعني الحكم عليه على أن أترك المدرسة. وبدلاً من الإملاء والحساب تعلمت الحشيش قبل أن أحلق ذقني، وعلمته لعبد. بعد فترة جاء دور المسدس: اشتريته من المهربين، وتعلمت التسديد، وعلمته لعبد. صرت معلم بالحشيش وبالمسدس وبالتهريب قبل أن أخدم العسكرية. ابن حرام من المهربين أعماه الحسد، وأراد أن يزيحني من الدرب. أطلق عليّ بدل الرصاصة عشر رصاصات، ولكني نجوت والحمد لله. كنت أطير بين الرصاصة وأختها مثل الجني. وبعدما نجوت قلت له: خذ. رصاصتي لا تخيب يا أستاذ، لذلك صوبت على كتفه اليمنى وعلى مشط ساقه اليسرى. ما أردت قتله، فهو، والشهادة لله، لم يرد قتلي. ما كان يرمي عليّ بقصد القتل. بعدها يا أستاذ ذاع صيتي في المرفأ، وفي الحارة، وفي اللاذقية كلها.

أخي الأصغر مني سبقني إلى العسكرية. عشية سفره اعتدى عليه عدد من شباب الحارة. حتى الآن لا أعرف السبب. نحن من آخر من سكن الطابيات. نادوا لي من القهوة: أخوك راح. لحقت بالمعتدين عند خزان الماء. طاخ طاخ طاخ. كانوا ثلاثة.

أطلقت عليهم وتركتهم على الأرض يسبحون بالدم. الحمد لله ما مات أحد منهم، ولكن الناس صارت تحسب لأبو حسيب ألف حساب. أعرف أن كل هذا لا يهمك، ولكن للحكي معك حلاوته يا أستاذ. أعرف أن ما يهمك هو أن تعرف سبب وجودنا نحن الثلاثة في الشاليه. أين كان الأستاذ يوم قتل الشيخ يوسف صارم رحمة الله عليه؟

أجاب واصف:

- أين كنت؟ في بيتي.

قال أبو حسيب:

- قَتْلُ الشيخ أشعل اللاذقية. صرت أحرس حارتي مع الشباب. كنا نقضي الليل مثل النهار: من فوق نطل على الصليبة، على البحر، على الحرش، على القلعة. استعنا بالأطفال على المفارق. وواحد منا كان معه رشاش، لا أعلم من أين حصل عليه. أنا كان معي الكلاشينكوف التي هربت بها من العسكرية. كان لابد لواحد منا أن يهرب. إما أنا وإما أخي الذي سبقني. لولا الفقر والحاجة ما كنت هربت من الجيش يا أستاذ. ما بقي لأبي العاجز وأخي الأعمى غير أمي المسكينة: من يعيلهم؟

يوم مقتل الشيخ يا أستاذ لم يهدأ الرصاص في اللاذقية. في عصر ذلك اليوم ملأت دوريات الأمن الطابيات، فاختبأت

في البيت فترة قصيرة، ثم طلبت الدعاء من أبي ومن أمي، وهربت. أبو زيزفونة، هذا الذي تراه أمامك، أخفاني حتى دبّر لي عبد جواز سفر أردني بغير اسمي. عبد أقرب لروحي من أخي الذي رضعت من الحليب الذي رضع منه. وأنت أيضاً يا أستاذ لك عندي معزة مثل أخي، يشهد الله. يشهد الله أني أحببتك من يوم ما عمّرنا لك الشاليه، وإن شاء الله نعمّر لك فوقها أحلى منها، بسّ ربك يفرجها على سورية، من الظُلاّم.

ـ أنت ضد الحكومة لأنك فراري من الجيش أم لسبب غيره؟

سأل واصف محاذراً، فاستعاد أبو حسيب الأرجيلة من عبد، وشفط شفطتين عميقتين، ثم جاء صوته موشّى بالحزن:

ـ الفرار سبب، وعندي غيره مئة سبب.

-٣-

وحدّث العراج، قال:

ـ أنا كما ترى أصغر من أبو حسيب ومن عبد. تعلمت حتى ختمت العلم في الصف السادس. بعدها أخذني أبي إلى دكان حدادة لأتعلم الصنعة. عجزت عن الصنعة كما عجزت عن المدرسة: ولكن صبرت، وصبر الحداد، وصبر أبي حتى سحبوني للعسكرية. بعد العسكرية ناديت البحر الذي كان يناديني من صغري. عملت في الباخرة ثلاث سنين، ما

نزلتْ لي خلالها قدم على برّ. رجعت بجيوب مليئة والحمد لله. تزوجت واشتريت المقهى. لا أظنك تعرف أين هو. مقهى على قدّنا ولا يليق بالأساتذة. أنت تعرف الصليبة. المقهى في أولها، أول دخلة على اليمين، في رأس الدخلة، يعني كأنك في الشارع الرئيسي. المقهى هو الذي جمعني مع عبد ومع أبو حسيب. في صغري كنت أرى عبد وأرى أبو حسيب، يا سلام! زينة شباب البلد. بعد سنة، سنتين، صرنا أكثر من الإخوة. وفي ليلة من الليالي، بلا إحم ولا دستور، حضر أخوك أبو حسيب وقال لي: خذ يا عراج هذه الأمانة: أربعين ألف ليرة. مبلغ يكسر الظهر ويشتري بيتين. وفجأة اختفى أخوك أبو حسيب، وكانت الحوادث صارت كثيرة وخطيرة في البلد. كان أولاد الحرام اتهموا أبو حسيب بكل تهمة تلفّ حول رقبة صاحبها حبل المشنقة. عدّ ولا تعدّ: الفرار من العسكرية، الكلاشينكوف، تهريب الدخان والمشروبات، وهذا كله لا شيء. ما عدت تسمع في البلد إلا أن أبو حسيب قاوم الأمن بالرصاص. كلما قُتِل قتيل في اللاذقية قالوا: أبو حسيب، أبو حسيب تقدم عصابته إلى حارة الرمل قبل الفجر، قطعوا الكهرباء وحرقوا البيوت. قتلوا وجرحوا ونهبوا. أبو حسيب من الإخوان المسلمين. أبو حسيب عدو الحكومة رقم واحد. احزر من هو رقم ٢ يا أستاذ؟ أبو حسيب مطلوب حياً أو ميتاً وعبد مطلوب ميتاً وحياً. اختفى

عبد، وبعد مدة طويلة حضر إلى المقهى بلباس مهلهل وذقن طويلة، ولكن العراج يعرف عبد مهما تنكّر. ما كان في المقهى غير أربعة وأنا الخامس. كنت قد فتحت المقهى قبل ساعة. أحلف لك براس سيدنا محمد: دمعت عيني ساعة رأيت أخي عبد. طلب مني أن أحوّل أمانة أبو حسيب إلى دولارات لأنه سيرحل إلى لبنان. قال لي إنه أحضر جواز سفر لبنانياً له وجواز سفر أردنياً لأبو حسيب. قال: أنا راجع لك يا عراج بعد أذان المغرب مباشرة. وعندما رجع طلبت منه أن يأخذني لأبو حسيب حتى أودعه. في حضن أبو حسيب فرطت دمعتي. كانت ذقنه هو الآخر طويلة وحالته حالة. أنا عاطفي يا أستاذ، ولكن وقت الشدة أعجبك. أعطاني أبو حسيب ألف ليرة حتى أسلمها لوالدته، وأوصاني أن أقول لها: أبو حسيب سافر في البحر. ورأس سيدنا محمد لا أعرف ما جرى لي بعدما سافر هو وعبد. شعرت أنه ما عاد لي أخ ولا صديق في اللاذقية. ما عاد لي في البلد سند. ما عدت أتمنى إلا أن يظهر أبو حسيب أو عبد حتى أتعلق بمن يظهر. ورأس سيدنا محمد لن تسافر بدوني. كنت أتخيل وأحلف بيني وبين حالي. وفجأة يا أستاذ، وأنا كلني غمّ وهمّ، ظهر عبد. شعرت أن روحي رجعت لي. سألته عن أبو حسيب، قال: أبو حسيب باللوج.

بعد شهر، أقل من شهر، حضر مرة ثانية، وبشرني بقدوم

أبو حسيب: رتبْ لنا سهرة بكرة يا عراج. العراج غشيم ولكنه سأل: ما القصة يا عبد؟ قال: الله أكرمنا برزقة دسمة. ما روى كلامه غليلي. سألته بلا كلام، فقال: أنت ما عليك سرّ. هذه المرة سلاح يا عراج. كل نقلة سلاح فيها المبلغ الفلاني، وفيها خدمة لأولاد الحلال المجاهدين. بكرة يصل أبو حسيب مع سيارة براد عرمرم. وقبل أن يكمل كلامه طشت. طاش صوابي. سلاح يا عبد؟ سلاح يا أبو حسيب؟ كله إلا هذا. يا حيف يا عراج: عيّرني عبد وانصرف. ورأس سيدنا محمد ما نمت الليل. ومن الصباح إلى العصر وأنا على نار. صرت أحسب كل زبون في المقهى من الأمن. صرت أرى كل من يعبر أمام المقهى من الأمن. ولما صرت أظن نفسي من الأمن، قلت: اخرجْ يا عراج. شمّ نسمة نظيفة وطرية يمكن أن تهدأ روحك. سبحان الله يا أستاذ! خرجت لحظة وقوف سيارة في رأس الدخلة. قلت: سيارة أمن، وأدرت ظهري ومشيت على مهل وأنا أراهم بلا عيون. رأيتهم يهجمون على المقهى، وكنت من البشر صرت من الطيور. ركضت وركضت وركضت حتى وصلت إلى بيت عبد، ومن على الباب صحت: الأمن لاحقني. الحقني على أوغاريت.

— ٤ —

وحدّث عبد، قال:

ـ ما قضى عليّ إلا أخوك أبو حسيب. نحن أولاد حارة واحدة وجيل واحد. ولكن هو ترك المدرسة وأنا وصلت للبكالوريا. يوم رمى من اعتدوا على شقيقه كنت بجانبه، كتفي إلى كتفه، ولكن هو نفد بجلده وأنا وقعت بين أيدي الشرطة. حبسوني شهرين وطردوني من المدرسة. صعت فترة قصيرة، والتحقت بعدها بالجيش. أخذت البكالوريا وأنا أخدم العسكرية. كنت برتبة العريف، صرت بعد البكالوريا برتبة الرقيب. الله سبحانه وتعالى وفّقني بضابط ابن حلال، أستاذ وخريج جامعة مثل جنابك. شرح لي كتب البكالوريا كلها: التاريخ والفلسفة والأدب والجغرافيا، ولما نجحت كانت فرحته مثل فرحتي. نصف عسكريتي قضيتها تحت إمرة هذا الضابط في بيروت، وبفضله صار لي أصدقاء وإخوة في بيروت، حتى بين من كان يقاتل ضد الجيش السوري.

بعد الجيش اشتغلت في باخرة يونانية سنتين ونصف تقريباً، وكنت أرجع إلى اللاذقية كل مدة. كنت ألتقي أخي أبو حسيب كل مرة، وكل مرة كان لسانه برْ برْ برْ برْ: يا عبد اترك الباخرة وتعال. ترك عبد الباخرة واشتغلنا بأمان الله أقل من سنة. نصف تهريب المرفأ بيدنا. حتى أبو زيزفونة الذي لا يبدل الصيد برئاسة البلدية صار يفكر بالعمل معنا.

ومثل أبو حسيب صرت أفكر بالزواج. صرنا نشكو من أننا كبرنا وتأخرنا بالزواج، ولكن بدأت الحوادث في اللاذقية. بدأت الحوادث في سورية كلها، وأخذتنا النخوة مثل كثيرين. خرجنا في المظاهرات وهتفنا. حملت أبو حسيب على كتفي وتصدينا للشرطة وللأمن، ولكن النحس ركبنا نحن الاثنين. حتى من استشهد ارتاح، حتى من اعتقلوه ارتاح، أما نحن..

أبو حسيب تخفّى في بيت أخته عند أبو زيزفونة، وأنا تخفيت عند واحد من أعمامي في القلعة، جيران المغربي، وكان أبو زيزفونة هو المرسال بيني وبين أبو حسيب، وهو رتّب لنا لقاء في قبر من قبور أوغاريت.

قال أبو حسيب: ضروري أن يكون في جيب كل واحد منا جواز سفر، وهذا مستحيل في اللاذقية، مستحيل في سورية. قال: حتى لو هربنا إلى لبنان، لبنان ليست آمنة. المخابرات السورية فيها أقوى منها في اللاذقية. جيشنا في بيروت أقوى منه في الشام. قلت له: هذا صحيح، ولكن بيروت تخفي الجن الأزرق، ولن يصعب عليها أن تخفيك وتخفيني. قال: الاحتياط واجب. يجوز أن يأتي يوم تضطر فيه للهرب من لبنان، بماذا ستهرب؟ بالهوية السورية؟ قلت حاضر يا أبو حسيب. سبحان من أنعم عليك بهذا العقل! ذهبت إلى تلكلخ، ومنها إلى البقيعة. الحدود قريبة، وكانت أسهل من العريضة ومن

الدبوسية. قصدت أعز أصحابي من أيام العسكرية: أبو إيفين الله يذكره بالخير، من خيرة الناس، شرواك يا أستاذ. طلبت منه الجوازين، قال: تكرم يا نور العين، وكل شيء بحسابه. أبو إيفين من جماعة أبو أرز، ولا تسأل من هو أبو أرز.

الواجب أن ترد المعروف لصاحبه،، ومن هو صاحب المعروف يا أستاذ؟ أبو إيفين على من قال: هنيئاً لمن نفع واستنفع، وانتظر حتى طلبت أن يوضح، قال: عند أبو أرز سيارة سلاح، ومن غير عبد يمكن أن يوصلها بالسلامة إلى اللاذقية؟ قلت في سري: حظك يفلق الصخر يا عبد. سيارة سلاح إلى اللاذقية! يا سلام! وقلت لصاحبي: عمرنا ما اشتغلنا بتهريب السلاح. لا أنا ولا أبو حسيب. رجعت بالجوازين سالماً غانماً وإذا بحبيبي أبو حسيب يأمر: إلى قبرص يا عبد. خير يا أبو حسيب؟ نعمل بنقل الويسكي والنبيذ والدخان والذي منه من قبرص إلى اللاذقية. سبحان الله! من أين يأتي أبو حسيب بأفكاره الجهنمية؟ دبّرت الأمور وسافروا بلا تأشيرة، وانقضى أول شهر، وثاني شهر، ونحن نصرف من كنوزنا، لا نعرف لغة وليس لنا عمل، حشيش وسهر وسكر، حتى راحت السكرة وجاءت الفكرة: إلى بيروت، إلى أبو إيفين: الحقنا يا صاحبي. ما في جيب واحدنا ما يكفيه حتى لشهر. ذكّرني أبو إيفين بالجوازين وقال: السيارة تعرف طريقها، ولكن

كنا ننتظر من يرافقها من طرفنا، أنت واحد منا، والتهريبة لجماعة في اللاذقية ضد الحكومة. كنا بحاجة إلى من يلاقيها من طرفنا، وها هو الله قد كتب النصيب. أنت واحد منا، ولهذه النقلة ما بعدها. كل نقلة يا نور العين بأربعين ألف. احسب حسابك: يمكن أن تكلفك الطريق نصف المبلغ، ثلاثة أرباع والباقي بينك وبين السائق والسيارة. دبّر أمورك. يمكن أن تصير حصتك بقدر الحصتين أو أكبر، شرط أن يكون الجميع راضين. وأخرج شقفة من ليرة ورق لبنانية، وكتب عليها: أبو زيزفونة. صحت: هذا صهرك يا أبو حسيب، ليس في اللاذقية إلا أبو زيزفونة واحد. قال أبو إيفين: تجد صاحب هذا الاسم في مقهى الإسكندرية ناطرك على نار. كرسيه تحت صورة جمال عبد الناصر في صدر المقهى، ومعه الشقفة الثانية من الليرة. قال أبو حسيب: هذا صهري سند ظهري. خفت على أبو حسيب. قلت إذا وقعت الفاس في الراس يروح فيها هو وصهره. قلت له: انتظرني هنا. هذه النقلة لي، وإذا صار غيرها، هي لك. ودعنا أبو إيفين وقادنا واحد من رجال أبو أرز إلى سيارة براد جديدة، عروس. تعرفت على السائق، ووضعنا في السيارة ثلاثين قطعة: رشاشات وكلاشينكوف، ووضعنا صناديق ذخيرة، وتوكلنا على الله حتى طرابلس. في طرابلس توقفنا عند

مستودع، وغطينا الصناديق بعلب حليب نيدو وعلب موز. كنت كلما اقتربنا من حاجز للردع أكتم النفس حتى نتجاوزه، أما على الحدود، فلا تسأل عن عبد يا أستاذ. أنا قلبي على التهريب حديد، ولكن ليس تهريب السلاح. هل تصدق أن الحدود اختفت؟ قبل العريضة اختفت الحدود والسيارة والسائق وعبد. وجاءتني نوبة ضحك لم تهدأ حتى ارتخى حنكي وآلمتني خاصرتي. ساعتها اكتشفت أن الحدود صارت وراءنا، والدورية أمامنا. طلبوا الأوراق من السائق، فغمزني، فغمزت جيبي، وناولت الضابط رزمة، وبعدما عدّها زعق: شو أربعتعش ألف؟ عدَّتْ له أصابعي في جيبي ثلاثة الآف. تناولها ولم يعدّها. حشرها في جيبه وأمرتنا تكشيرته: تيسروا. قلت في سري وفّرت لنفسك ثلاثة آلاف ليرة، حلالك زلالك يا عبد. عند حاجز طرطوس ركبني الخوف أكبر وأكبر. تفاهم السائق مع الحاجز، وبعدما تابعنا قال: سجّل لي عندك ألفين. وعند حاجز اللاذقية رجع لي الخوف، لكن السائق تصرف، ولما تابعنا قال: سجّل لي عندك ألفين. طار ما وفرته من أول دورية. والآن جاء دورك يا أبو زيزفونة. تفاهمنا بدون الليرة اللبنانية المقسومة نصفين، وكانت السيارة ناطرة قبل دوّار بوقا. سلمته السيارة وطرت إلى بيت أهلي. رأيت أمي بين الموت والحياة. أبي أيضاً كانت

حالته لا تسرّ الخاطر، كأنه يودع. حتى البيت كأنه مهجور. خفت أن يكون البيت تحت العين، فودعت بسرعة، وتسللت إلى المقهى. لم أدخل، لوحت للعراج حتى خدرت يدي قبل أن ينتبه، وقضيت الليلة عنده.

أراد أبو حسيب أن يتولى النقلة الثانية. خفت من أن تكون النقلة الأخيرة، وكان قلقي على أبي وأمي يكبر كل يوم. قلت لأبو حسيب: رجلي على رجلك، سأل: وإذا انكشفنا؟

قلت: لا سمح الله. قال: حتى لا نضيع إذا سمح، اسبقني، وحضّر لنا بكرة سهرة عامرة مع العراج.

سبقته، وكان ما كان.

قبل أن يختفي واصف مباشرةً

أسرع واصف إلى الشاليه صباح السبت، فأوفى بوعده أو بوعيده لرمزية، ولنفسه قبل رمزية وبعدها: سوف أدير ظهري لك ولثريا ولكم جميعاً.. سوف أدير ظهري لكل شيء.. للدنيا كلها.. سوف أدير ظهري لي.

في لحظة كانت نادرة قبل أن يبدأ بمنازلة الموت، انتفض وصاح، كمن دبت فيه الحياة فجأة، ثم همد كمن ليس فيه عرق ينبض، وأطبق الليل تماماً، بعد أن كان ثمة هلال يلاعبه. لكن رمزية لم تقلق، إذ كانت اللحظة النادرة قد أخذت تحضر بين ليلة وليلة، وبخاصة بعدما بدا أن ما تعرض له واصف، قد أخذ يقع في النسيان.

مع حقيبته الصغيرة التي كانت هدية عنان موسى في زيارته الأخيرة للاذقية متى؟ رمته سيارة الأجرة عند مفرق الطريق الترابية الضيقة التي ستعبر بمدخل أوغاريت، فبيت أبو زيزفونة، قبل أن تتلاشى خلف الشاليه.

عندما أدارت السيارة له ظهرها، رثى لقدمها واهتراء لونها: مرسيدس ١٨٠ منتفخة، ما صادفها مرة في المدينة هي أو أي من أخواتها إلا تذكر رمزية في ذروة حملها بثريا: هذا ما حلا

78 كتاب دبي الثقافية
الإصدار «٧٨» مارس ٢٠١٣

لك أن تشبه به رمزية أيها الوغد؟!

قبل أن تختفي السيارة التفت عنها إلى أوغاريت، فهاله العتاب الذي لاقته به. أطرق مستغفراً حتى غفرت له، ولفحت ذقنه بأنفاسها الدافئة العطرة، فرفع رأسه، وهاله أن اجتمع في هذه اللحظة إله الفجر مع إله المغيب على مرمى حجر في باحة القصر.

يا شحر

يا شلم

همس متضرعاً والليل يطبق، فحملته نسمة إلى الحضرة، وهاله ما تصطخب به الباحة: السدنة على النار يطبخون عشرين جدياً باللبن والنعنع والزبدة، وشباب وشابات يتوزعون زوجاً زوجاً، فليس من فرد مفرد إلاّه. وربما كان ذلك سيورثه حزناً مفرياً، لولا أن بوقاً صدح ملء نافذة من القصر، فاشرأبت إليها الأعناق، ولما أطلت منها فتاة بالكاد تبرعم صدرها، تصدع الليل، وإذا بامرأة أكبر سناً تهلّ من النافذة المقابلة، فصمت البوق وانحنى، واشرأبت الأعناق للمرأة التي أخذت تصدح كأنها تحكي حكاية، فأخلد واصف لها أو للحكاية أو لكليهما: كان يا ما كان في قديم الزمان، كان فيه عرس، والعريس اسمه إيل، وبدلاً من عروس واحدة،

هي هذه أشارت إلى فتاة النافذة كان لإيل عروسان. ولما حلّت الساعة نامت عروس تحت إيل، ونامت عروس فوقه أين نمت أنتِ؟ سأل واصف فتاة النافذة واحدة تناجيه: يا أب، وواحدة تناجيه: يا أم. ولم تكد النجوى تُسْكِر سمعَ إيل حتى استطالت يده كالبحر، فأشهرها في السماء، وراح يخرط ريش عصفور، والعروسان تصدحان: مطّ يدك يا أب، فقبّل شفاههما، وهامست فتاة النافذة واصف: شفاه حلوة كالرمان يا حبيبي، فانتفض مذعوراً، لكن ذعره تلاشى عندما اكتشف أن ريقه يتحلّب، كأنه «يقرط» حبات الرمان الحلوة الحامضة.

عن أوغاريت التفت إلى البحر، وحياه مشوقاً، فنفحه البحر بالعزم كي يستطيع حمل الحقيبة الصغيرة الخفيفة إلى أن يقترب من بيت أبو زيزفونة، ويفتقد رتل التوت والتين.

هنا ظهرت زيزفونة التي كبرت سريعاً، وصارت تغطي رأسها، فهنأته بالسلامة، وحملت الحقيبة، ولحقت به حتى شرفة الشاليه، وسأل واصف:

- لستِ في المدرسة؟

قالت الفتاة بحياد:

- تركت المدرسة يا أستاذ.

ولأنه رماها بنظرة مستنكرة، أسرعت بالقول:

أبي أمرني يا أستاذ.

- أين هو؟

- لا أحد يعرف يا أستاذ.

التفت واصف، ولما رآها تهرب من نظراته إلى بلاط الشرفة، داهمه القلق، فقال:

- ما فهمت؟

قالت زيزفونة وهي تهرب بنظراتها إلى البحر:

- حضرتْ سيارة من كم يوم وسألونا عنه. كان في الصيد. قعدوا معنا في البيت حتى رجع، وأخذوه معهم.

- لهذا لم أره منذ.. منذ متى؟

تمتمت شفتا واصف المطبقتان وهو يسترد نظرات زيزفونة من البحر. ودوّى في مكان ما حوله من حيث كان رتل التين أو رتل التوت، من شرفة بيت أبو زيزفونة، من الرمل المبلل القريب صوت أبو زيزفونة يخبر باعتقال أبو حسيب وعبد والعراج. وحين تلاشى الصوت، اكتشف واصف أنه يروز مفتاح الشاليه، وأن الفتاة اختفت. ولما انفتح الباب، سبقته عيناه لتطوفا فوق السرير والطاولة والكراسي الأربع والقرآن الكريم والرفوف وأشياء أخرى صغيرة ومتناثرة أخذت تبهت وتغيم، مثل نظراته، فلجأ إلى الباب مرتاعاً.

ذات القرنين

كان يكفي أن يبث الراديو أو التلفزيون وصلة أو موشحات لصباح فخري أو لمحمد خيري، أو أن تدور المسجلة بكاسيت لمن لقبتها صفا بالفتاة المعجزة: ميادة بسيليس؛ كان ذلك كافياً لأن يفجر الحنين إلى حلب، مثلما كان كافياً لذلك أن يتفجر السمع بهاتف من رياض الصالح الحسين أو حامد بدرخان أو زهراء أو غيثاء، أو بخبر عن مظاهرة في الجامعة أو بخبر عن اغتيال أو عن مجزرة أو إضراب.

من شراء البيت وتجهيزه إلى شراء المكتبة وتجهيزها، إلى التآلف مع دار المعلمات، انطوت شهور يزن الأولى بطيّ حلب في الحنايا. لكن حلب لم تكن لتستكن طويلاً. وسواء طالت يقظتها أم قصرت، ففي كل مرة تكون أكبر إيلاماً، فيلجأ يزن إلى السينما، كما في ذلك العصر الخريفي الغائم الرطب الذي وعد يزن نفسه فيه بفيلم ستانلي كوبريك (٢٠٠١ أوديسة الفضاء) في سينما الأهرام التي يعلوها بيت ليلى.

كانت ليلى قد أسرعت إلى المكتبة أثناء تجهيزها، لتحيي المرأة التي ذاع صيتها: ستفتح مكتبة للكتب الحديثة واليسارية ولكاسيتات الموسيقا الكلاسيكية والأصوات الجديدة.

هكذا يجب أن تكون الواحدة منا: قالت ليلى. ومع صفا ألفت بعد افتتاح المكتبة أن تشرب القهوة صباحاً، مرة في المكتبة، ومرات في المقهى القريب الذي تعود على هذه الفنانة الشابة، ذات الشعر الأحمر القصير، والعينين الواسعتين النابضتين بالدهشة والصفاء: ليلى نصير ذات النظرة الخارقة، ستقول صفا وهي تقدم ليلى ليزن على العشاء في البيت.

لم يتذكر يزن مما شاهد من معرض ليلى في المركز الثقافي منذ سنوات، إلا ذلك الوجه الملتبس لامرأة، وفيه من وجه ليلى بقدر ما ليس فيه منه، ومثله وجه الرجل الذي يشكل الأسود تقاسيمه بعنف، بينما هو يحدق من زاوية اللوحة في فضاء أبيض يزينه الرمادي، وينفحه بالطمأنينة.

عن سعد يكن ولؤي كيالي أفاض يزن بالحديث في ذلك العشاء؛ وعلى الرغم من أنه عبّر بحرارة عن رغبته بزيارة مرسم ليلى، إلا أن لقاءهما تناءى حتى كانت مصادفة ذلك العصر أمام سينما الأهرام.

كانت ليلى في طريقها إلى المقهى: الآن هو أهدأ، قالت، وكان الوقت لا يزال مبكراً على عرض الفيلم، لذلك تمشيا في الزقاق. هي تسأل عما جعله يختار فيلم كوبريك، وهو يقول: ما قرأت عنه أثار حنيني لأفلام الخيال العلمي أيام الجامعة. هي تتحدث عما شاهدت في النادي السينمائي هنا في اللاذقية

أو في الشام، من أفلام جان رينوار وجان لوك جودار؛ وهو يتحدث عن أفضل ما شاهد لهذه السنة: (أبي وسيدي) للأخوين باولو وفيتوريوتافياني، و(بواب الليل) لشارلوت رامبلنغ. وكتم خطأه عندما اكتشف أنه نسي اسم المخرج، ولم يتذكر إلا شارلوت التي فتنته بما تتقد به من الأنوثة والشهوة قَصّةُ شعرها الصبيانية.

بالعودة من نهاية الزقاق إلى مدخل السينما كانت ليلى قد كررت الحسرة على دور السينما التي أُغلقت جراء أحداث السنتين الماضيتين، وكان يزن قد سأل ليلى عما ترسم، وكانت قد قالت: تعال انظر بنفسك، وكان قد استجاب، وكانا قد قررا أن يشاهدا معاً فيلم كوبريك في يوم آخر.

في الصالة الفسيحة التي تفور باللوحات الناجزة، وبمشروعات فمشروعات، أقبل يزن على رأس يتوسد خلفية زرقاء، وفي أقصاها رأس بعين حمراء، كأنه من رؤوس سعد يكن. وتلا الرأس فخذ مطوية وساق طويلة وجذع طويل، والجسد كله ملفوح بالزهري، وبالغ الشفافية. وإذ عاد يزن إلى مبتدأ اللوحة، بوغت بعينين واسعتين وشفتين رقيقتين مطبقتين. وتراءى له قرن من الشعر هنا، وقرن هنا، فسمى اللوحة: ذات القرنين، ثم انتقل إلى اللوحة التالية الصغيرة، وإذا بالخطوط السماوية، وبالبقع الصفراء، تعلن عمن هي

أولى بأن يكون اسمها: ذات القرنين، ففكر بأن مثل هذا الاسم قد يكون لكثيرات، شرط أن يكنّ نساء لوحات أو نساء حكايات. وانتقل إلى اللوحات الثلاث التي تكاد تملأ الزاوية المقابلة: خطوط المرأة الجاثية، يداها خلف ظهرها، ولعيني يزن باطن قدميها وباطن كفيها: هل هي مكبلة؟

تساءل وهو ينتقل إلى اللوحة الثانية: رجل طفل من خطوط ناحلة، هنا هو واقف، وفي اللوحة الثالثة: أعبل، ونظراته مكفهرة كما في اللوحة السابقة.

على تتمة الجدار الذي شطره الباب، توزعت اللوحة إلى أرباع: هنا ثلاثة وجوه، فوقها في ربع متطاول امرأتان، وإلى يمينهما في ربع متطاول أيضاً، لكنه أكبر عرضاً، ثلاث نساء واقفات، وحزنٌ حائر، وشكوى صامتة.

كانت ليلى قد تركت يزن وحيداً مع لوحاتها. وحين آب إليها حيث انتحت في زاوية الصالون الشرقية، كانت قد أعدت القهوة، وكان قد عبر باللوحة الأولى، وسرق من الرأس ذي العين الحمراء نظرة، وقال لسعد يكن: ليس بين هذا الرأس وبينك نسب. هذا الرأس لليلى. وحين تناول منها فنجان القهوة، تعلقت عيناه بأصابعها، وفكر بما رأى للتو من أصابع الألوان، وتساءل عن السر المكنون في هذه الأصابع وفي تلك، وأبرقت سكاكين وفراش ومساند وخرق مبقّعة، ليس ها هنا

فقط، بل هناك أيضاً، في مرسم سعد يكن وفي مرسم لؤي كيالي.

وربما كان سيحدث ليلى عن ذلك، لولا أن أومأت له من على المسند الخشبي المقابل كأسٌ صغيرة ترتكز على قاعدة، وعلى كل من جانبيها وجه امرأة، فأقبل يحدق في الكأس، وفكر في أن يسميها ذات الوجهين، والتفت ناحية اللوحة التي سماها ذات القرنين، بينما قالت ليلى:

- كأس أوغاريتية.

فعاد إلى الكأس مشرقاً، وقال:

- هذه الكأس رأيتها في متحف حلب، وأخي واصف المهووس بأوغاريت هو من دلني عليها، وعلى عصا على هيئة صقر، وعلى إبريق حدوة الحصان ذي العروتين، وكلها من أوغاريت.

قالت ليلى وهي تنظر إلى الكأس:

- الأصل في متحف حلب، صحيح.

ثم عادت إلى يزن قائلة:

- عرّفني على واصف. أنا أيضاً مهووسة بأوغاريت. كلنا أوغاريتيون.

فترك فنجان القهوة معلقاً بين أصابعه، وأقبل يتقرى في جبين ليلى، كأنه يبحث في رقيمٍ عن نسب ضائع.

مهرجان الجمعية

لم تكن مديرة الدار الست جميلة أول من دعا يزن إلى المركز الثقافي في ذلك المساء الذي يسميه يزن مرةً بمساء الجمعية، ومرةً بمساء المسار.

كان معاون المديرة الأستاذ عاهد قد لاقى يزن أمام غرفة المدرسين والمدرسات بالدعوة، قبل أن يرد على تحيته الصباحية: بطاقة مذهبة، وصوت يهمس ويغمز كأنه يحذّر. وكما اعتذر يزن للرجل، اعتذر للست جميلة، ونسي الأمر كله حتى نادته ساعة يده في الخامسة وعشر دقائق مساءً، فتسلل من البيت خوف أن تضبطه بالجرم المشهود صفا أو ثريا. ومشى كالمنوَّم إلى المركز الثقافي، لكأن عينيه تريان ولا تريان، وكأن أحداً لم يحدثه عن اللقاء الهام الذي لا يجوز أن يتغيّب عنه الأستاذ يزن عمران، وهو الكاتب الوحيد في دار المعلمات، بل والكاتب الأهم في اللاذقية!

لا، ليست الست جميلة، ولا معاونها، من امتدح الأستاذ يزن عمران، بل مدير المركز الذي أقسم بشرفه: لا أستطيع أن أصدق أن الأستاذ يزن عمران هنا في المركز. منذ معرض الأستاذة ليلى نصير لم أرك هنا.

عندئذٍ أفاق يزن، والتفت إلى الوراء، ثم تلفت يميناً ويساراً، فإذا به وسط حشدٍ ولغط، فأطرق، واستسلم لقدميه اللتين ناءتا تحت حمله الذي تثاقل، فرمتاه على أول مقعد فارغ صادفتاه، وأسلمتاه إلى السؤال الذي راح يسخر منه: ما الذي جاء بك إلى هذا الحفل يا أحمق؟

حاول أن يهوّن على نفسه، فزيّن لها الفضول لتعرف عن قرب هذه الجمعية التي دوّى صيتها سريعاً وعالياً، ليس في اللاذقية وحدها. وعزّى نفسه بأنه تابع في اللاذقية ما كان نهجه في حلب، فلم يحضر مثل هذا اللقاء، على الرغم من الدعوات التي تلاحقه، وبخاصة من اتحاد الكتّاب، ومن نقابة المعلمين أيضاً. لكن صوت الشيخ إمام راح يترّجع في أعماقه: يا واد يا يويو يا مبرراتي، فتقلقلت جلسته، وفكر بالانسحاب، وأخذ يحث نفسه عليه. وربما كانت ستطاوعه لولا أن التصفيق علا، والجالسون انتفضوا وقوفاً، فأخذ ينظر من جلسته التي تخافضت إلى الأعالي التي تعالت. ولما هدأ التصفيق، وجلس الواقفون التقت عيناه بعيني جاره، فتنبه إلى أنه ارتكب جريرةً قد يكون لها عقباها، إذ لم يقف، ولم يصفق. لذلك انكمش، وعلّق عينيه بالمنّصة، محذراً من أن تلتفتا ناحية الجار. وانقضى وقت طويل، تخلله التصفيق مراراً، وشارك فيه

يزن كل مرة، بينما تبدل على المنصة خطيب فخطيب، قبل أن يدرك أن الرفيق رئيس الجمعية هو قائد المسار، وأن المسار هو اسم المجلة التي سوف تصدرها الجمعية قريباً جداً، لتكون ملتقى الأقلام الوطنية والمميزة، فأهلاً بالكتّاب والشعراء والمفكرين، أهلاً بك يزن عمران في هيئة التحرير، بل رئيساً لهيئة التحرير: لا.

ضيّع التصفيق هتفة يزن، وجعله يحمد الله على أن أحداً لم يسمع اعتراضه. كما أن أحداً لم يسمّه. وربما جعله ذلك أقدر على أن يعي ما ترتج به القاعة، ويدرك أن الجمعية مع الإسلام الواحد، والعيسوية الواحدة، والموسوية الأصيلة. وبلا مشقّة أدرك أن أعضاء الجمعية الميامين يشاركون في الكفاح ضد الإخوان المسلمين هكذا ترجم يزن ما ردده الخطيب مراراً: إخوان الشياطين والعصابات المجرمة، كما تبرعوا بالدم لأبطال جيشنا في لبنان.

ولما أطلّ رئيس الجمعية اشرأبت إليه عنق يزن مثل سائر الأعناق، وتعلقت عينا يزن مثل سائر العيون بالشفتين المباركتين، لكنهما لم تتكلما، بل انفرجتا بابتسامة عريضة وطويلة، مشفوعةً بتلويحة الذراع اليمنى، ثم بتلويحة الذراع اليسرى، فتلويحة الذراعين معاً، بينما هدرت الأكف، ووقف

أصحابها، إلا كفّي يزن عمران الذي حرنت ساقاه، وحرن ظهره، فعجز عن الوقوف، فأطرق خذلان وخائفاً، وتعرق، وحاول أن يخلص الإصغاء لمن أخذ يخطب بلسان الرئيس: نحن نعمل من أجل الحب الخالص النابع من القلب، والخالي من كل الشوائب، كالكراهية والحقد والبغضاء. نحن نعمل بالشورى لتحقيق الديمقراطية. نحن نعمل من أجل القضاء على المذهبية والطائفية والعشائرية والقبلية. وفجأة تبدل الصوت، فانتفض يزن واقفاً، وسمعت عيناه مثلما رأت أذناه الرئيس يخطب: لهذا أيها الرفاق رفعت جمعيتنا شعارها المعروف بأنها ساقية من سواقي العطاء لتصب في عطاءات قائدنا الكبير. ولم يدع التصفيقُ الرئيسَ يكمل عبارته، فكررها، بينما كان يزن يلوك الندم على ما فاته من العبارة أول مرة.

وريثما خلت المنصة، وبينما أخذ هياج القاعة يهدأ بالأحرى: أخذت تخلو كانت أذنا يزن قد أخذتا تصدان مكبرات الصوت التي شرعت تقصف بمطلع أغنية وطنية فمطلع، كما كانت عيناه قد تملّتا في ستائر المنصة والجدران العالية، بعدما حارتا بين ما يبدو أنه عناق أو تنافس بين علم الجمهورية العربية السورية وعلم حزب البعث العربي الاشتراكي. كما كانت العينان الحائرتان قد قرأتا العبارة الوحيدة المرشوشة

حيث يقع النظر: قائدنا إلى الأبد. وساء يزن أنه لم ير من يعرفه أو يعرفها أين الست جميلة والأستاذ عاهد على الأقل؟ فأسرع بالخروج منقبضاً، بل وخائفاً، ولم يتوقف حتى بوغت بساحة أوغاريت في منتهاها، فانفتل، وعاد نزولاً صوب البحر.

بعد سينما الأهرام أخذت خطاه تتباطأ. وبعد سينما دمشق أخذت تتسكع، رافلةً بالنسائم البحرية. ورويداً أخذ يتندى بالرطوبة الراشحة من زمنٍ يبدو الآن بعيداً جداً، لكنه أيضاً طري جداً، وساخن، ومؤثر، ولم يكن ليزن فيه ما يُكْربه. ما كان ليزن في أي يوم تكثر غيومه، مثل هذا اليوم، إلا أن يلبي فيه النداء، فيسبق أقرانه في القفز على سور الثانوية، رغم أنه أصغرهم كان بينهم من يشبهه بالقرد ثم تتسابق خطاهم وأصواتهم إلى حيث يفضي بهم شارع المالكي: من هذا الزقاق إلى ثانوية البنات. وسواء صادفوا خروج الطالبات، أم صخبهنّ خلف السور، أم الصمت الغامض، فلا بد لخطاهم وأصواتهم من أن تتابع السباق من أمام سينما إلى أمام سينما، حتى يبلغوا الكورنيش، حيث يتحلب الريق على شعرٍ يتموج أو صدر يترجرج، أو ساقين تبرقان، أو ضحكة مسروقة، أو عيني صبية أجرأ من عيني أي منهم. أما الآن، فلا أحد على الكورنيش إلا الأستاذ يزن الذي يُقبضه انكفاء المدينة، ليس في ليلها فقط،

بل في نهارها أيضاً. ولذلك اختار الزاوية الخفية من كازينو السياحة والاصطياف ولبد فيها تحت الظل الكثيف الذي ترخيه فوقها الخرنوبة العملاقة.

على الرمل كانت قعدته. وإلى جدار حديقة الكازينو أسلم ظهره. وفيما بين قدميه وذؤابات الموج الرخيّ، راحت عيناه تلاعبان العتمة، ثم تبعتاها أبعد فأبعد، بينما كانت هي تضاعف عتامتها. ولما أظلم المدى، ما عاد للبحر من أثر، أغمض يزن عينيه، ولم يفتحهما حتى امتلأتا بأخيلة جهمة. وكانت أذناه قد أخذتا تمتلئان بهرج ومرج، فانتظر حتى عاد إليه البحر بوجه واحد كاد ينكره، لولا أن صاحب الوجه استعار من الموج هسيسه، وهمس معاتباً: نسيتني يا يزن؟ نسيتني يا أخي؟

لم تسمح الدمعة التي حشرجت في حلق يزن بأن يرد. لكن رأسه أنكرت النسيان، وهمت أصابعه بأن تمسح على الخدين اللذين بَدَوَا أكبر ضموراً منهما عندما كان واصف في المستشفى. غير أن الأصابع ارتدت مجفلة وقد خُيِّل لها أن رأس واصف قد صغر. كما خُيِّل لعيني يزن أن عيني واصف تنطفئان، لكن صوته لم يتبدل على الرغم من الهرج والمرج في سمع يزن عنه في آخر لقاء ليزن به: منذ متى يا أخي؟

أوجع السؤال يزن. ولكي يشغل واصف عن العتاب، بل وعن عقاب قد يوقعه واصف عليه، أخذ يشكو له المركز الثقافي والجمعية والخطباء والست جميلة ومعاونها ومدير المركز، ولما همّ بأن يشكو نفسه أيضاً قاطعه واصف:

- هذه الجمعية جمعية طائفية يا أخي، وهذا مخالف لقانون تشكيل الجمعيات.

فسأل يزن:

- هل تظن أن الجمعية مرخّصة قانونياً؟

- ما الفرق ما دام ليس لتشكيل الجمعيات قانون في سورية؟

- قل ما دام ليس في سورية قانون.

- كأن حماستك زادت بعدما شاركت في مهرجان الجمعية.

- أخي واصف: كأنك تنفخ في الحملة المعادية للجمعية. كم جمعية مسيحية في سورية مثل جمعية المرتضى؟ كم جمعية إسلامية مثلها؟ لماذا هذه الحملة عليها وحدها؟ ألا يكفي أنها تنتشر في الطوائف والمذاهب كلها؟

يا سلام يا أستاذ يزن! ما هذه الدرر؟! هنيئاً لك بالجمعية وهنيئاً لها بك. متى ستنتسب لها؟ أم إنك انتسبت ولا تريدني أن أعرف؟ لو انتسبت للإخوان المسلمين أما كان أفضل لك؟

- الإخـوان المسلمون حزب مذهبي وطائفي. هل سمعت

بمسيحي أو علوي بينهم؟ هل سمعت بدرزي أو اسماعيلي أو يزيدي بينهم؟ كيف تقارن بين إخوان الشياطين وبين جمعية المرتضى؟ إخوان الشياطين حركة دينية تتستر بالسياسة، وجمعية المرتضى حركة سياسية.

- حركة سياسية تتستر بالدين. يزن، أخي أكمل العبارة. أراك صرت تتكلم مثل المذيعين في الإذاعة والتلفزيون. هل يمكن أن تفيدني أفادك الله بمعنى انتشار جمعيتك في أنطاكية بين العلويين؟

- هؤلاء سوريون. أصلهم سوري، وانتشار الجمعية بينهم نقطة لها، لا عليها.

لكنه تدخّلٌ في الشؤون التركية. هل ترضى بأدنى تدخل تركي في شؤوننا؟

- ما بك يا أخي؟

- ليس المهم ما بي. المهم ما بك أنت. كأنك لا سمح الله أعمى لا ترى، أو كأنك أطرش لا تسمع. هل تعلم في أية بلاد تقوم المظاهرات وتقع الاغتيالات والاعتقالات والانفجارات، ويسقط القتلى وتتوزع المنشورات، وتزدهر تجارة السلاح وكل ما لا يخطر لك على بال؟ أنت وسط هذا كله يا أخي.

حاول يزن أن يرد، لكن الضيق غلبه، فانتفض كأنما ينشد

فراراً ويطلب نجاة من قضاء وشيك ومدمّر لا رادّ له. وهوت كفه بعنف على قعدته تنفض الرمل. واستسلم لما أخذ يداوره من الحنين إلى واصف: منذ متى لم تره؟ منذ متى لم تزره، لا في بيته ولا في الشاليه؟ بل منذ متى لم تهتف لرمزية حتى تطمئن عليه؟

كانت الأسئلة توقّع له وهو يقترب من نادي الضباط. ولما اكتشف أنه وحيد على الكورنيش، اضطربت خطواته، فأسرع وعيناه تطوفان بالنادي، حتى إذا وازى الباب، وهمّ بأن يحييّ الحارسين، صدته بندقيتاهما المصوبتان عليه، فالتفت عنهما يميناً. ولما تجاوز النادي بمئة خطوة عدّها خطوةً خطوة تنهّد عميقاً، وسال لعابه، فأخذ يزدرده متلذذاً بالأمان. لكن الأمان لم يصبر عليه غير دقائق، تزلزلت إثرها المدينة بانفجار ورصاص ودخان وغبار، فكاد يزن أن يرتمي على بلاط الكورنيش، ثم كاد أن يقف، قبل أن تطير ساقاه نحو قلب المدينة.

أسرار الاختفاء

١ إفادة أم زيزفونة:

أحكمت أم زيزفونة غطاء رأسها، وجاء صوتها مرفرفاً مثل أهدابها:

ـ ناموا أربعة أو خمسة أيام قبل أن يحضر الأستاذ. الأستاذ واصف نفسه نام بينهم ليلة. أخي أبو حسيب كان بينهم. كانوا يقضون النهار في البحر، ومعهم أبو زيزفونة. لم يكن الصيد غرضهم، لكنهم كانوا يعودون كل مساء بحمل، ما شاء الله. وزعنا من السمك على الأهل والجيران ما لا نوزعه في سنة. أظنهم كانوا يختبئون في البحر. أنا خمنت هذا، ولما صارحت به أبو زيزفونة ابتسم، ثم نهرني: اخرسي يا حرمة. ابلعي لسانك. لا أعرف متى كانوا ينامون. أظنهم كانوا يسهرون الليل بطوله. سألت نفسي: هل ينامون في الفلوكة؟ الأستاذ واصف قضى نهاره الأول نائماً. عند الغروب غطس في البحر غطسة وخرج. كان بصحة جيدة. لم أره من قريب ولم أكلمه، ولكن رأيته من بعيد على الشاطئ، على الشرفة. وقفته وحركته ما شاء الله. رأيته وهو يمشي إلى الخرائب كما كان يمشي إليها كل مرة. أنا لا أعرف كيف أقول أوغاريت ولا أحب هذا الاسم. هنا كلنا نقول: الخرائب، إلا المتعلمين.

يوم حضر الأستاذ أخذ أبو زيزفونة آخر اسفنجة عندنا. كانت زيزفونة تنام عليها. نامت زيزفونة على الأرض، وقال أبوها: الأستاذ ينام في سريره، والشباب الثلاثة ينامون على الأرض. قلت له: خذ هذا الشرشف وخذ هذا الغطاء له وهذا الغطاء للمخدة. لماذا بقي الأستاذ معهم؟ لماذا لم يعد إلى بيته؟ سألت، ولكن لم يرد أبو زيزفونة. قلت: الجواب واضح، ولا يحتاج إلى ذكاء: هذه المرة ليست مثل كل مرة. الأستاذ ينام في الشاليه عادة وحده، يومين، ثلاثة، هذا صحيح، وكنت في البداية أظن أنه يهرب من الست رمزية، عدم المؤاخذة. ولكن تبين لي أن هذا غير صحيح. أبو زيزفونة شرح لي، وأوصاني: ابلعي لسانك. صدقت أن الأستاذ يحب أن ينفرد بنفسه من وقت لوقت. سبحان الله، كل إنسان حر في طبعه. حتى أبو زيزفونة يكتفي بساعة مع الأستاذ، فنجان قهوة، صحن توت أيام التوت، صحن تين أيام التين، وصحن السمك حاضر دائماً. أنا أحضّره وأدعو للأستاذ: ألف صحة وعوافي. لكن هذه المرة ليست مثل كل مرة. ما السر يا أم زيزفونة؟ ما الذي يجمع الأستاذ بهؤلاء الشباب، وأبو زيزفونة معهم؟ ألمحت بشكوكي لأبو زيزفونة فزورني، فخرست وبلعت لساني من غير أمر.

أنا لا أنكر أني حمدت الله لما تيسّر الشباب. أخي وأصحاب زوجي، على رأسي، ولكني كنت قلقة من ساعة حضروا حتى

تيسروا. الأستاذ نفسه أظن أنه ارتاح منهم، ولكن يا حسرة ما تمت الفرحة. جرّوا خلفهم أبو زيزفونة وجرّوا الأستاذ. قولوا لي يا أهل الخير، يا أهل النخوة والناموس، قولوا لي يا مسلمين، قولوا لي يا من دينكم أي دين، ماذا تعمل الآن أم زيزفونة؟ من أين تؤمن لأولادها اللقمة؟ يوم كان يرجع أبو زيزفونة من البحر بهزّ الكتف، كنا ننام بلا عشاء. أين أنت الآن يا أبو زيزفونة؟

٢ إفادة زيزفونة:

قالت زيزفونة وهي تنظر إلى أصابع يديها مرة، وإلى الأرض مرة، وبعد كل مرة تهرب نظراتها إلى البحر، بينما تزداد التماعاً خصلاتُها المنسربة من تحت غطاء الرأس:

ـ قبل أن يحضر الأستاذ لم يسمح لي أبي أن أقترب من الشاليه. كان يحمل بنفسه للضيوف كل شيء من البيت. وأنا كنت أخاف إذا رأيت أحدهم أمام الشاليه أو حتى في الفلوكة. حتى من خالي أبو حسيب كنت أخاف.

بعد حضور الأستاذ صرت أنظف الشاليه كالعادة، ولكن من بعد أن يركب الضيوف في الفلوكة. سمعتهم مرة يختلفون على الدور في النوم، طبعاً في الفلوكة. بعدما راحوا ارتحنا كلنا، ما عدا الأستاذ. الأستاذ ما كان على الحشيشة، لا قبل أن

يرحلوا ولا بعدما رحلوا. من أول يوم رأيت الأستاذ يقع على الأرض. ما كنت بعدت عن الشاليه ساعة واحدة سمعت الخبطة، وركضت. دخيلك يا أستاذ. دخيلك يا رب. ندهت وانحنيت فوق الأستاذ وبكيت. ناديت أبي، أبي كان في البحر. ناديت أمي، ما سمعتني. ولكن الله لطف وقام الأستاذ، واستند على كتفي حتى وصل إلى السرير. أشّر لي، ناولته كأس ماء. ارتاح والحمد لله، وقال لي: روحي يا زيزفونة. والله العظيم الأستاذ بمعزة أبي، بمقام أبي، ولكن عمري ما رأيته كما كان هذه المرة. حتى أبي ما كان هذه المرة كعادته. فكرت أن الأستاذ خائف، وأبي خائف. صرت أنا نفسي خائفة.

أنا أول من رأى السيارة والبواريد. كنت أول من نهض قبل شروق الشمس خفت وركضت، وسمعت أحدهم يقول: اتركوها، ولكن صاح آخر: «وليه تعي لهون». جمدت في أرضي. كان ظهري لهم، وحاولت أن ألتفت، ما قدرت. حاولت أن أصرخ، أن أبكي، وبقيت جامدة حتى صرت وسطهم. انتظرت أن يكلمني أحدهم. تجاوزوني نحو البيت، سمعت صياحهم وصياح أبي وأمي وأخوتي. لم أتحرك. كنت مغروزة في الأرض. رجعوا إلى السيارة وأبي محشور بينهم، وأمي وراءهم تبكي وتلطم.

ومرة ثانية كنت أول من رأى السيارة والبواريد. السيارة

نفسها، ويمكن البواريد نفسها، ولكن الرجال تبدلوا. كان وقت الغداء، ولكن ما بلع واحد منا لقمة: لا أنا ولا أمي ولا إخوتي. خفت من الرجال ولكن لم أركض. تفرجت عليهم وهم يركضون نحو الشاليه، ويتوزعون حولها. انتظرت حتى خرجوا وكان الأستاذ بينهم: واحد يمسك به من اليمين وواحد من اليسار، وكانت خطواته ثقيلة. لم أرفع نظري عنه، لكنه ما رآني. ركضت إلى أمي وحكيت لها. قالت: الله يستر، الله يعينك يا أستاذ واصف. قالت: كيف يمكن أن نخبر أهله وأنا لا أثر لهم عندي ولا لي إليهم طريق.

٣ـ في بيت الأثرم:

بالمختصر المفيد يا يزن: أخوك اختفى. أنا لا أنفعك بشيء. كل ما عندي أن الجفوة بيننا كبرت حتى ما عادت تُطاق. الله وحده يعلم ما الذي كان يبدلك يا واصف كل يوم إلى الأسوأ. حتى مع ثريا تبدل. صحته تراجعت، أما طباعه، يا ستار! وأنا كنت أصبّر نفسي: تحمّلي يا رمزية، كرمى لثريا، كرمى للعِشْرة. دوسي على كرامتك واصبري. حتى صباح الخير ما عدت أسمعها منه. وإذا قلت له: تصبح على خير، لا يرد.

صدقني خفت عندما رأيته يخرج من البيت آخر مرة. خفت

من أن تكون آخر مرة. ماذا كان بيدي أن أفعل بعدما أدار ظهره لي ولثريا من السبت إلى الخميس؟ كنت كل يوم أسأل نفسي: إلى متى يا رمزية؟ كنت كل يوم أقول لنفسي: اتركيه مثل ما تركك أنت وبنتك. إلى متى كان عليّ أن أنتظر؟ أنا بنت حلال يا يزن. أنا بنت أصول، لذلك لن أتخلى عنه حتى يفرجها الله عليه وعلى الجميع. بعدها لا أنا أعرفه ولا هو يعرفني. هو من طريق وأنا من طريق.

* * *

أمام الأثرم خاطبت رمزية يزن بحزم لم يعهده منها، ولا من امرأة. ولما انتهت حاول أن يستعيد صوتها، فحيّره أن الصوت قد تلفع بالرقة كما تلفع بالحزم. وربما لذلك حدق فيها لأول مرة منذ حضر في هذا العصر الكابي. ولأن نظرتها إليه ظلت ثابتة، تراجع، وأدار نظراته في الأصص التي تزنّر الشرفة، فأكبر نظافتها وتنسيقها ونضارة الألوان فيها. وأحسّ بالامتنان للأثرم الذي يُعنى بكل هذه الأحواض. وفكر في أن العجوز أنيس حقاً في هذه الجلسة، وسوف يزداد أنساً كلما حضر يزن إلى هذه الشرفة، ليطمئن على زوجة أخيه وعلى ابنة أخيه.

لكن الأثرم لم يكن كذلك في المرة الأولى التي يعود الفضل

فيها لصفا. ويزن نفسه كان مثل نار مشبوبة: هكذا شبهته صفا التي لم تصدق أنه حضر أمسية جمعية المرتضى في المركز الثقافي، بينما كانت هي أيضاً ناراً مشبوبة هكذا شبهت نفسها جراء غياب يزن في تلك العشية التي زلزل الانفجار فيها المدينة من أقصاها إلى أقصاها. ولما جهر يزن تلك الليلة بقلقه على أخيه، وبإحساسه بالذنب لأنه ابتدأ القطيعة بينهما، أو يواصلها، على الأقل، عندئذٍ رقتْ له صفا، وحنت عليه، واقترحت بالأحرى: أمرت بلطف أن يزورا معاً غداً واصف ورمزية، بعد أن تغلق المكتبة في المساء.

غير أن صفا تأخرت في إغلاق المكتبة، لأن هايك وانشراح قضيا وقتاً طويلاً وهما يقلبان فيما في المكتبة من المجموعات الشعرية، قبل أن يهدي كل منهما الآخر مجموعة، وما عاد يمكن لصفا أن ترافق يزن، إذعاناً لموعد عمرو مع النوم. لذلك ذهب يزن وحيداً إلى بيت أخيه. ولما طال صياح ديك الجرس دون أن يفتح أحد الباب، لام صفا لأنها لم تهتف لرمزية وتحدد موعداً، وتبسم لأنه لم يلم نفسه، وربما لأن الباب ظل مغلقاً: هل أنت راغب حقاً بالمصالحة مع واصف، أم إنك غير مبالٍ بها؟

هرباً من السؤال الذي لم يفارقه حتى أغفى، وباكره منذ

أفاق، هتف مراراً إلى بيت واصف، لكن أحداً لم يرد، فحكم بعون من صفا أن واصف في خلوة جديدة في الشاليه، ورمزية في بيت أبيها. ولذلك نسي يزن أخاه يوماً آخر. وربما كان سينساه يوماً ثالثاً لولا أن صفا اقترحت عليه بالأحرى: أمرته بلطف أن يزور الأثرم مساءً، وكانا يتناولان الغداء، فلم يكمل يزن غداءه، ولم ينتظر إلى المساء، بل أسرع إلى الباب الذي فتحته ثريا، فتلقفها وهي تسأل:

- عمّو وين بابا؟

ولكي يجيبها، كان عليه أن يتقمص غلظة المحقق، ويرمي بسؤالها الأثرم الذي كان يقترب من الباب:

- أين واصف؟

- ارم السلام أولاً.

قال العجوز باستياء، بينما كان صوت رمزية يسأل عن القادم. ولما ظهرت بادرها يزن بغلظة المحقق أيضاً:

- أين واصف يا رمزية؟

- ما بك يا يزن؟

سألت بصوت خافت، لكنه ينضح بالزجر واللوم، وأومأت إلى ثريا التي أسرعت إليها، ثم تابعت بصوت أعلى:

- ألن تدخل؟

وقال الأثرم:

أخوك في الشاليه. أين سيكون؟

وبدا يزن كالمحاصر بين رمزية وأبيها، فنظر إلى ثريا آسفاً وشاكياً، ثم اندفع خارجاً.

* * *

انتظر يزن يوماً بطوله حتى بات قادراً على أن يعود إلى بيت الأثرم، بعدما علم باختفاء أخيه. وربما كان انتظاره سيطول لولا أن رمزية هاتفت صفا تسأل عما إن كان يزن زار أخاه في الشاليه. وحين التقاها تقمصت غلظة المحقق، بينما بدا الأثرم بالغ التأثر، ولكن بهدوء عميق. ولما انتهت رمزية من التحقيق القصير، قال أبوها وهو يسرح نظراته بعيداً فوق المقبرة:

- عليك أن تبحث عن واصف في مخافر الشرطة أولاً.

فأسرعت رمزية تقول:

- الشرطة لا تعتقل الناس بهذه الطريقة.

قال الأثرم وكأنه يفكر بصوت عالٍ، وليس حوله أحد:

- قد يكون بناء الشاليه هو السبب، ولولا ذلك لما اعتقلوا أبو زيزفونة.

قال يزن جازماً:

- لا شرطة ولا.. هذه طريقة الأمن والمخابرات.

قال الأثرم:

- لذلك عليك أن تتابع السؤال في فروع الأمن، إذا لم يكن أخوك عند الشرطة.

- في أي فرع تنصحني بالسؤال؟

قال يزن ساخراً، بينما غادرت رمزية الشرفة، ملبية بتذمّر نداء ثريا، واستعاد الأثرم نظراته من فوق المقبرة إلى الأحواض، وقال:

- اسأل أولاً في فرع الأمن الجنائي.

- الأمن الجنائي اختصاصه المخدرات، العاهرات، التهريب، السرقات، ومن يدري؟ قد تكون لواصف علاقة بهذا كله.

قال يزن مصطنعاً الجد، فعقب الأثرم بصوت محذّر:

- بعد الشرطة والأمن الجنائي يأتي الجد. ابدأ بأي فرع. لا فرق. خذ رمزية معك. إذا سألت عنه زوجته أيضاً، فهذا أفضل من أن يسأل عنه أخوه وحده.

نظر يزن إلى داخل الصالون، وكانت رمزية مقبلة، فاستقبلها بما نصح به أبوها، فخاطبت أباها معاتبة:

- كأنك تتمنى لي الشرشحة. امرأة تسأل عن زوجها من الأمن الجنائي إلى الأمن السياسي إلى الأمن العسكري! يا سلام!

قال يزن محرضاً:

- لماذا نسيت فرع أمن الدولة؟

- ولماذا نسيت حضرتك ونسيت حضرتها فرع الأمن الخارجي أو فرع التحقيق وغيره وغيره؟

سأل الأثرم غاضباً، فقال يزن متعالماً:

- هذه الفروع في دمشق، وواصف اعتقل هنا في اللاذقية.

- وما أدراك أنهم لم ينقلوه إلى دمشق؟

سأل الأثرم وهو ينهض متثاقلاً، فأدرك يزن أن عليه أن ينصرف، على الرغم من أن رمزية رمته بنظرة تحثه على الجلوس.

دُوَار الفروع

١ - فرع دار المعلمات:

- قبل أن نجيب على سؤالك، عليك أنت أن تجيب عن أسئلتنا.

- حاضر.

- لماذا تظن أنه ليس في فرع آخر؟

- بلا سبب. يمكن لأن دار المعلمات ملاصقة لهذا الفرع، وأنا أدرّس فيها كما ذكرت لك. فكرت أن أبدأ بالأقرب. قلت لك بلا سبب.

- لابد من سبب. أنت أستاذ وكاتب، هل تريد أن أساعدك؟ شكراً سلفاً.

- أنت تعرف أن هذا الفرع مختص بالأحزاب والجمعيات. وأنت تعرف أن واصف عضو في جمعية، في حزب، على الأقل: نصير لحزب، لجمعية، لذلك قصدتنا دون غيرنا.

- لا والله، لا أعرف.

- على الأقل تعرف ميوله.

- ميوله ميول أي سوري. واصف يحب سورية، يحب وطنه.

- لو طلبت إليك أن تصنفه: مؤيد؟ حيادي؟ حيادي إيجابي؟ حيادي سلبي؟ معادٍ؟

- معادِ لمن؟

- للدولة، للحزب، للقائد.

- أخي حيادي. حياد إيجابي.

- عظيم. تصنيفك له مثل تصنيفنا تماماً. إياك أن تكون تعمل معنا من تحت لتحت.

- أنا؟

نعم أنت؟

- أنا أعمل معكم؟

- ومالك احمريت واصفريت؟ عيب أن تعمل معنا أو مع غيرنا؟ بين من يعملون معنا ومع غيرنا أساتذة كبار، أكبر من الأستاذ يزن عمران بكثير. كلنا نخدم الوطن يا أستاذ. أنت في دار المعلمات، ماذا تعمل؟ في كتاباتك تخدم الوطن أم تخدم من؟

- يا سيادة الرائد: أنا جئت أسأل عن أخي: هل هو عندكم أم لا؟ سؤال وجواب. مالي ولكل هذا الذي تضيّع به وقتك ووقتي؟ أنا تغيبت عن الدرس الأول وجئت قبل أن يحضر أي مسؤول منكم. حراسكم ما تركوني أرجع إلى شغلي. صلبوني ساعة أمام الباب الخارجي. وصلبني من لا أعرف ساعة في البهو تحت. وأمام باب مكتبك صلبني الحاجب ساعة. ثلاثة دروس

ضاعت عليّ وعلى البنات حتى الآن. إذا كان أخي ليس عندك، قل لي مع السلامة.

- وإذا كان عندي؟

- أكون اطمأنيت عليه.

- وأقول لك مع السلامة، لأني موظف عند الأستاذ يزن عمران.

- يا سيدي لا أنت موظف عندي ولا أنا موظف عندك.

- على مهلك يا أستاذ. أنت بهذه الطريقة تعقّد الموضوع. لو غيرك خاطبني بهذه اللهجة لتركته ينام في القبو نومة أهل الكهف. انسَ الآن ما جئت من أجله، واسمح لي أن أسألك: ما الذي لا يعجبك في جمعية المرتضى؟

- أنا؟

- لا، أنا. أنا من صدر عني كلام غير لائق بحق الجمعية. كلام لا يجوز أن يصدر عن الأديب والمربي الفاضل الأستاذ يزن عمران.

- كأن من كتب لك ضدي نسي أن يذكر أني حضرت أمسية الجمعية في المركز الثقافي.

- هل تظن أني لا أعرف؟ كانت حركة ذكية منك، ولكنها لا تنطلي علينا. من يظن أنه وحده الذكي ماذا يكون؟

ـ أنت أدرى مني.

ـ يكون غبياً. وأنت كما يظهر لي لا ينقصك الذكاء، ولكني أتساءل ما إذا كان لا ينقصك الغباء. على كل حال قل لي، بلا ذكاء وبلا غباء، أقصد بلا تذاكي وبلا تغابي.

* * *

صفا: حبيبتي:

كان يتسلّى بي، كأنْ لا شغل له غيري. ساعة بعد ساعة ولم يملّ ولم يكلّ. السؤال نفسه يكرره عشر مرات. أحياناً لا يبدل فيه حرفاً. ما ترك عليّ الستر. فلأّني تفلية: **واصف**، أنت، رمزية، شفق، سائدة، عنان موسى... وهذا كله هيّن، أما أبو رمزية؟ أما الأثرم؟ ما أدراني بأبو رمزية وأبو زيزفونة؟ من هو أبو حسيب؟ من هو العراج؟ وعبد من يكون؟ **واصف** يهرّب السلاح؟ واصف يتاجر بالسلاح؟ واصف معارض؟ واصف على علاقة بإخوان الشياطين؟

ـ حبيبي يزن: ماذا كنت تتوقع؟ احمد الله على أنهم تركوك ترجع إلى البيت. الست جميلة سألت عنك. رمزية سألت عنك. أبوها سأل عنك.

ـ الست جميلة غداً أراها. لن أقول لها أين كنت. سأطلب منها أن تعتبر غيابي إجازة بلا راتب. رمزية لا أريد الآن أن أكلمها

ولا أن أراها. قولي لها: لا أثر لواصف.

- لكنك ستبحث عن الأثر يا حبيبي. ستبحث عن أي أثر. إذا لم تبحث فلن تستطيع أن تنام. ما دمت مشيت في هذه الطريق فلن تستطيع أن تتوقف، ولا أن تتراجع، ليس فقط من أجل واصف. الطريق نفسها هي هكذا: لا وقفة فيها ولا رجعة. نسيت ماذا قلت بعدما سألت عن واصف في قسم الشرطة الشرقي؟ في قسم الشيخ ضاهر؟ في قسم الرمل الشمالي؟ بعد كل قسم كنت تعلن التوبة، وفي اليوم الواحد تنقض توبتين. حبيبي يزن: بعد أقسام الشرطة، هل كان الأمر أفضل في فرع الأمن الجنائي؟ كم مرة رحت ورجعت، قبل الظهر وبعد الظهر، طابق فوق وطابق تحت، شرطي وملازم وعقيد وأنت صرت المشبوه أكثر من واصف. في أقسام الشرطة ما خفت عليك، أما في الفرع الجنائي، يا ويلك يا صفا! ما أحلى أن يحبسوا الأستاذ يزن عمران مع هذا الحرامي ومع هذا المهرّب ومع هذا القوّاد! ما كان لك أن تأخذ بنصيحة الأثرم. عجوز خرف يورّط الأستاذ يزن: ابدأ بالشرطة أو ابدأ بالجنائية!

- والعمل يا صفا؟

٢- فرع الحرية:

درسك اليوم لا يبدأ قبل الحادية عشرة. لماذا لا تتوكل على

الله وتمشي من هنا إلى موقف الباص؟ يعني: امشِ إلى مدرسة الحرية، ولكن لا تبكّر. لا تذهب قبل التاسعة. البارحة قصدت الفرع الأقرب إلى عملك، لماذا لا تسميه فرع دار المعلمات؟

واليوم تقصد الفرع الأقرب إلى بيتك. لماذا لا تسميه فرع الحرية؟ قبل أن تدخل إلى الفرع درْ حول مدرسة الحرية، تفرّجْ عليها من الخارج لأول مرة، على الرغم من أنك تأتي إليها بفئتك من الطالبات كل أسبوع مرتين. دَوْرُ مَنْ منهنّ في الدرس القادم؟ دروس التطبيقات نعمة من نِعَم دار المعلمات التي لا تحصى عليك. والآن يكفي يا أستاذ. قلت لك امشِ إلى الفرع، ولم أقل لك تبخترْ أمامه. ماذا ستقول الآن للعسكري الذي ينهرك ويأمرك:

عندك يا..

- نعم؟

- أنعم الله عليك ورحم الله والدينا ووالديك. ماذا تريد؟

- أريد أن أدخل.

- عندك موعد؟

- لا.

- هل وضع أحد اسمك في المحرس؟

- لا.

- كيف تريد أن تدخل إذاً؟

ـ أريد أن أقابل المسؤول.

ـ أي مسؤول؟

ـ من المسؤول هنا؟

ـ إذا كنت لا تعرف فلا تسأل.

ـ ولكن يجب أن أدخل.

ـ من رماك عليّ في هذا الصباح؟ لماذا تريد أن تدخل؟

لأسأل عن أخي إذا كان هنا أم لا.

ـ أخوك يعمل هنا؟

ـ لا.

ـ معتقل هنا؟

ـ لا أعرف. محتمل.

ـ هات هويتك، ورحْ انتظر هناك، تحت التوتة. لم يحضر بعد أي مسؤول. ما اسمه؟

ـ من هو؟

ـ أخوك.

ـ واصف. واصف عمران.

ـ لا تقترب من هنا ولا تنظر إلى هنا حتى أناديك.

* * *

صفا حبيبتي:

حتى الآن لم أسمع باسم أحد، ولم أقرأ اسم أحد. كأن الناس في الفروع الأمنية بلا أسماء. وبالمناسبة أقول لك: كأن هذه الفروع للرجال فقط. لا مطرح لامرأة في فرع كما ظهر لي. وللرجل هناك رتبة، رتبة فقط: نقيب، مقدم، مثلاً. أما من يلبس البذلة العسكرية بلا رتبة فهو عسكري ونقطة. لكنني أخطأت يا صفا. يمكن له أن يكون برتبة كبيرة، لكنه يتعفف عن أن يضعها على كتفيه. قولي: يتواضع. لا لا. أخطأت مرة ثانية. أخطائي أمس كثيرة، واليوم أكثر. للرجل في الفرعين اللذين تشرفت بزيارتهما لقب أيضاً، وليس رتبة فقط: سيدي: احترامي سيدي ابني: هات الأوراق من الذاتية يا ابني دلّوع: الشاي يا دلّوع أمك لسه ما إجا الوحش؟

والمهم يا حبيبتي أن الرجل كان فائق التهذيب. أقصد الرجل الذي قابلني في فرع الحرية. أظنه في عمر أخي واصف. طويل ما شاء الله، شعر طويل ومدلّل ولمّاع. الكرافتة خمرية، وأنت تعرفين كم أحب هذا اللون. كم أحب الكرافتة الخمرية والقميص الخمري وخدودك الخمرية. الرجل بلا شوارب، مثلي. عفواً عفواً، أنا مثله. على يمين المكتب علم صغير وأنيق، وعلى يساره علم صغير وأنيق. هذا علم الجمهورية العربية السورية وهذا علم حزب البعث العربي الاشتراكي. وفوق رأس الرجل،

أقصد على الجدار، صورة للرئيس وتحتها تقرأين: قائدنا إلى الأبد. الصورة الكبيرة تحيط بها صورتان أصغر لشقيقي الرئيس. إلى اليمين تقرأين تحت الصورة: قائد سرايا الدفاع، وإلى اليسار تقرأين تحت الصورة: رئيس جمعية الإمام المرتضى. تركني الرجل أسرق نظرة من حولي ونظرة من يميني ونظرة من يساري ونظرة من الصورة الكبيرة، ونظرتين من الصورتين الأصغر. الرجل تركني على راحتي حتى وسوس لي الشيطان بأن أسترخي على الكنبة فاسترخيت، وشربت فنجان القهوة على مهل، بينما كان الرجل غارقاً في ملفات وأوراق تكاد تغطي مكتبه. لا أعلم كم مضى من الوقت قبل أن ينادي الحاجب ليكنس الملفات، فيبرق الزجاج على سطح المكتب، ومثله يبرق وجه الرجل. وبعدما أغلق الحا جب الباب خلفه، ابتسم لي الرجل، واعتذر عن انشغاله عني، وطلب مني بلطف أن أعيد ما كنت قلته عندما دخلت.

هذه المرة لم أكن متضايقاً، ولا خائفاً. لا تقولي : أنت على نياتك، والرجل ماكر، خدعك بلطفه. الرجل كان صادقاً بلطفه، وأنا لست ساذجاً حتى يضحك علي بكلمة رقيقة أو بيسمة. قبل أن ينتهي من طلبه كانت ساعة الجدار قد وشوشت معلنة الثانية عشرة. نظرت إليها، ثم نظرت إلى ساعتي، وشكوت للرجل أن

درساً قد ضاع على الطالبات حتى الآن، فكرر اعتذاره، فطمعت وشكوت له معاملة الحراس لي بفظاظة، كأنني لا سمح الله مذنب أو متهم. قلت له بكل جرأة وصراحة:

ـ حتى لو كنت معتقلاً، لا يجوز أن أعامل هذه المعاملة.

فقال الرجل مبتسماً:

ـ بسيطة أستاذ يزن. ازرعها بذقني.

ـ أستغفر الله.

قلت وخجلت، وأسرعت بغرضي من الحضور إلى الفرع، ففرك الرجل كفيه، وقال مبتسماً:

ـ أنا أعرف واصف. عندما أصابته رصاصة طائشة زرته في المستشفى، واستمعت لأقواله. وبعد ما خرج من المستشفى زرته في البيت، ولم يتذكرني. واصف صفحته نظيفة، صفحته بيضاء عندنا. هل يمكن أن يكون أبناء الحرام قد أوقعوه في ورطة في الفترة الأخيرة؟ ليس عندي شيء مؤكد. ثق يا أستاذ يزن بأني سأهتم بالموضوع مثلك، بل أكثر منك. اختفاء أي مواطن أمر مهم جداً في الأحوال العادية، فكيف في هذه الأحوال؟ وكيف إذا كان هذا المواطن هو واصف عمران؟ أقصد إذا كان المختفي سبق أن أصيب في مظاهرة؟ سأكتب لك رقم هاتفي هنا وفي البيت. يجب أن نبقى على اتصال. والآن

يهمني أن أعرف رأيك بما يجري في بلادنا، إذا لم يكن لديك مانع.

* * *

حبيبتي صفا:

هذه المرة لم أكن ساذجاً، ولا على نياتي، كما تظنين. هذه المرة لعب الفأر بعبي على الرغم من دماثة الرجل. فكرت بأن كل هذه المعاملة المهذبة وهذا الحديث الرائق، إنما هو تمهيد، والآن بدأ الجد. لذلك ادعيت أنني مشوش منذ اختفاء أخي، وما عدت أتابع ما يجري. ولما لم يعقّب قلت إن متابعتي لما يجري قبل اختفاء واصف كانت متقطعة وضعيفة.

أشهد أن الرجل بارع يا صفا: ازداد لطفه لطفاً، وازدادت ابتسامته عرضاً، وأحسست أنه ضبطني متلبساً بالجرم المشهود، فطأطأت، ولم أرفع رأسي حتى قال متجاهلاً جوابي:

- لن آخذ من وقتك أكثر حتى لا يضيع درس آخر على الطالبات. سيرافقك الحاجب إلى مكتب آخر. فنجان آخر وعشر دقائق.

لكن فنجان القهوة صار اثنين، وتلاهما كأسان من الشاي، وكأسان من الماء، لأن الدقائق العشر صارت ساعتين وخمساً وعشرين دقيقة، وضاع يوم آخر على الطالبات، وبدلاً من يوم، صرت سأطلب من الست جميلة إجازة يومين بلا راتب.

تريدين أن تعرفي ما جرى في المكتب الآخر؟

باللطف نفسه ناولني رجل أقل وسامة وأناقة، وأكبر سناً، استمارة طويلة عريضة، مليئة بالأسئلة القصيرة الصارمة والجداول الفارغة الصغيرة التي تنتظر يزن عمران حتى يكتب بخط يده كل ما يخصه، منذ أن كان نطفة في ظهر أبيه أو بويضة في رحم أمه، حتى الرشفة الأخيرة من كأس الشاي الأخير.

إذا كنت أعرف اسم وعمر وعمل أبي وأمي وواصف وشفق وسائدة، وصفا ورمزية، فما أدراني باسم وعمر وعمل أخواتك وإخوتك أنت أو رمزية أو..؟ ما أدراني بالميول السياسية أو الانتماء الحزبي لأي منكم ومنكن يا أهلي ويا خلاني؟ ما أدراني بمن هو محكوم؟ وبأي جرم؟ وبمن هو خارج البلاد؟ وما عنوانه أو عنوانها؟ من هو في الجيش أو في الأمن أو في الشرطة أو كان في...؟ من هو موظف ومن هي هاربة من وجه العدالة أو مطلقة؟ هل كان عليّ أن أكتب شكوكي في عنان موسى وتبدلاته؟ لكن الجدول الفارغ الصغير لا يتسع لجملة طويلة. هل عليّ أن أكتب: أختي شفق عضو في رابطة العمل الشيوعي، أو صديقة للرابطة على الأقل؟ ومن هم أصدقاؤك وصديقاتك يا يزن عمران يا مواطناً يا مخبراً لوجه الله والوطن؟ أتعرفين من ذكرت في جوابي على هذا السؤال الذي

حرك عواطفي وشهيتي وشهوانيتي؟ ما لن يخطر لك ببال يا حبيبتي: ابن فتكة وزوجته غيثاء، الأثرم أبو رمزية، الست جميلة والأستاذ عاهد ومن أعرف ومن لا أعرف من الكتاب: من حلب ذكرت رياض الصالح الحسين ووليد إخلاصي وجورج طرابيشي وذكرت لؤي كيالي رحمه الله، ولا أدري لماذا نسيت سعد يكن. من هنا ذكرت هاني الراهب وبوعلي ياسين والياس مرقص. للأسف اكتشفت أنه ليس لي صديقة حتى أكتب اسمها. طبعاً تذكرت زهراء، ولكن زهراء صديقة رياض. لماذا لم يطلبوا مني البارحة في فرع دار المعلمات أن أملأ استمارة مثل استمارة اليوم؟

- حبيبي يزن: ما حلا لك أن تسأل إلا صفا؟ قم الآن إلى الحمّام. اغسل تعب نهارك بينما أحضّر لك الغداء. رمزية سألت عنك. أبوها سأل، والست جميلة سألت.

- وبعدين يا صفا؟

من حكايات الخباص وسيرته

على كرهٍ رضخ مساءً لأمر صفا، واستجاب لرجاء الأثرم، فمضى إلى بيته. كان يتمنى لو أن رمزية أمرته، أو رجته أن يحضر. لكن رمزية اكتفت بما نقل أبوها وصفا عنها: شو صار معك؟

انتظر الباص في موقفه عند مدرسة الحرية، مديراً ظهره لأول مرة للمدرسة: للمدرسة أم للفرع الملاصق لها؟

حاول أن يُخْرِس السؤال الذي يظل يُلحف عليه حتى رماه الباص على رصيف مقبرة الفاروس. عندئذٍ اعترف بخوفه من أن يرى الفرع ثانية، حتى من الخارج، بل حتى أن يسرق منه نظرة. وشعر بالحزن لأنه لن يرى المدرسة من بعد إلا خائفاً.

عندما حدّث الأثرم ورمزية بما كان اليوم وأمس في الفرعين، أحسّ فجأة بأن حملاً مبهظاً نزل عن صدره، وأنه بات خفيفاً، وبوسعه أن يمرح وأن يضحك. وتعجّب مما بدا على رمزية بخاصة من كدر. وفجأة أحس أنه متناقض، بل وسخيف، فأعلن كأنما يعلن لنفسه، وليس لرمزية ولا لأبيها أنه سيتابع في الصباح بحثه عن واصف، فقال الأثرم:

- انس الفروع الأمنية الآن، وأسرعْ إلى جمعية المرتضى.

- وبماذا ستنفعني الجمعية ما شاء الله؟

سأل يزن ساخراً، فتلاعب حاجبا الأثرم وهو يسأل:

- هل تشك في أن واصف في واحد من الفروع الأمنية؟

قالت زمّةٌ لشفتي يزن:

- على الأرجح هو في واحد منها.

قال الأثرم بحماسة:

- قل: حتماً. أين سيختفي؟ هذا رجل ملء ثيابه أم فص ملح وذاب؟ لو كان في حلب أو في حماة، أو في الشام نفسها، لقلنا: من المحتمل أن تكون عصابة خطفت واصف. حتى الآن ليس في اللاذقية خطف.

قال يزن وهو يغالب ضيقه:

- ولكن ما لهذا كله وللجمعية؟

ابتسم الأثرم بظفر، وقال:

- بكلمة من رئيس الجمعية ينكشف السر. بهاتف منها إلى من يهمهم الأمر يكون واصف بيننا غداً في مثل هذه السهرة، إن شاء الله.

التفت يزن إلى رمزية ليشهدها على دهاء أبيها، فبوغت بأن كرسيها فارغ. وأنكر أن تكون قد انسحبت وهو غافل. وفكر في أنها قد تكون اختفت هي الأخرى، كأنها فص ملح

وذاب. وربما أخفاها فرع من الفروع، أو قد تكون اختطفتها عصابة في أول حادثة من نوعها في اللاذقية. ولذلك سيكون على يزن أن يبكر غداً إلى الجمعية. وعاد من هجسه إلى الأثرم الذي كان لا يزال ينتظر جواباً من يزن، أو قراراً. وقرأ الأثرم الجواب أو القرار في محيّا يزن، فأشرق محيّاه هو. عندئذٍ فكّر يزن بأن عليه الآن أن يعرف كل شيء عن الأثرم، حتى لا يقف غداً كالأبله، إذا ما طُلب إليه أن يملأ استمارة أخرى، سواء في الجمعية أم في فرع آخر. لذلك جعل من نفسه موظفاً أمنياً مرموقاً، ومن الأثرم مراجعاً، وجعل الموظف لطيفاً جداً وذكياً جداً، كالرجل الذي جالسه هذا الضحى في فرع الحرية. كما جعل من الأثرم شاباً ومدرساً في دار المعلمين، وليس في دار المعلمات. وأطلق عنان الأسئلة، وسرّه أن الأثرم أطلق عنان الأجوبة في جدية بالغة، وليس كمن يلعب، أو يمثل، أو يقضي الوقت جزافاً ريثما تظهر رمزية. ولما ظهرت تابع يزن والأثرم إطلاق الأسئلة والأجوبة. وسرّ يزن أن رمزية أصغت باهتمام، بل وبتشوّق، فقررت أن تكافئ الرجلين بعشاء حتى قبل أن ينتهيا من الإطلاق، ولذلك اختفت من جديد، ولما ظهرت كان يزن قد بات يعلم عن الأثرم ما لم يكن يعلم، وما لم تكن رمزية نفسها تعلم.

* * *

الأثـرم نيّف على السبعين. اللهم صلّ على النبي وآلـه. علامات الكبَر عليه بادية، لكن وجهه مـورّد، وسيجارته لا تنطفئ، وذاكرته ألماس.

الأثـرم عجوز من ذاكـرة، فـالنسيان لم يعرف له سبيلاً. وعلى الرغم من أن يزن لم يكن بحاجة إلى التفاصيل المملة إذليس في جداول الاستمارة فراغ كاف الا أن الأثرم أغرقه بها: الاسم الرباعي، أسماء الأعمـام والأخـوال والعمات والخالات والأصهار.. ومن هو من أولاء في مراتب عليا، علمية أو اقتصادية أو دينية أو اجتماعية أو عسكرية، ومن هو في مراتب دنيا أيضاً.

والأثـرم إذاً هو خير من يصلح ليملأ الاستمارة الأمنية: فكّر يزن وهو يغرق في سيل أعمال من ذكرهم ومن ذكرهن هذا العجوز ذو الذاكرة الألماسية، وفي مقاماتهم ومقاماتهن، وفيمن هدها أو هدّه المرض، وفيمن نبت العشب على قبره أو على قبرها، وفيمن قبره أو قبرها من رخام، وفيمن هو عقيم ومن هي عاقر. ولسوء حظ يزن طالت غيبة رمزية، ولكن ليس في المطبخ فقط، بل في غرفة ثريا التي جافاها النوم، وصعب عليها فجأة فقدان أبيها، وما عادت حكايات رمزية تطيب لها.

ولسوء حظ يزن أيضاً، أصغت رمزية لأبيها بعد ما نادت

إلى العشاء، وجلست بجانب يزن الذي أخذ يلهو بلقمة بعد لقمة، والأثرم يتنقل بين شبابه وكهولته وطفولته، ليراه يزن مثلاً مع رهط من صحبه يمضون عصراً بعد خروجهم من التجهيز إلى عين أم إبراهيم أو يصعدون إلى القلعة، يدورون حول جامع المغربي، ويتفرجون على المدينة، يتفرجون بخاصة على البحر، وفي يوم آخر يختارون جهة أخرى، والأثرم يفضل دوماً الطابيات، لكن الرهط قد يبعد حتى يبلغ رأس شمرا، إذا ما كانوا في يوم عطلة. وفي ثنيّات أوغاريت وبين أحجارها، يحلو للأثرم أن يتقرى الأزهار، كما يحلو له أحياناً أن يجمع لأمه باقة من بخور مريم. وإذا كان المشوار في الربيع، أسكرت الألوان الأثرم. فسكر بألوانها، وبخاصة ما كان منها بنفسجياً، وقد يجتاحه الشجن، وبخاصة إن كان وحيداً وكان الوقت عصراً، فيهمهم قليلاً ثم يتمتم، كأنه هو شخصياً صالح عبد الحيّ، إذ يتوحد بعوده ويغني: ليه يا بنفسج بتبهج وأنت زهر حزين؟

بفجاءة تذهل يزن يكون الأثرم قد صار يقضي مع رهط آخر من الصحب مساءه في المقهى، وما كان ليخلص لمقهى أكثر من موسم، أي أكثر من صيف يجعله يتطاول من أيار حتى تشرين الأول، أو أكثر من شتاء يجعله يتطاول من تشرين

الثاني حتى نيسان. لذلك كان على يزن أن يلهث خلف الأثرم من مقهى الشلا في القلعة إلى مقهى بيت الهرشة في العوينة. في الأول يتفرج يزن الآن على الكراكوزاتي كأنه الأثرم قبل خمسين سنة. وفي الثاني يصغي يزن الآن للحكواتي الخباص كما كان الأثرم يصغي قبل خمس وأربعين سنة، مثلاً، أو تقريباً. وبينما راح الأثرم يزين شبابه بأماسي الشاي والأرجيلة وطاولة الزهر في مقهى السباهي في الشيخ ضاهر، أو في مقهى أبو سالم في الصليبة، كان يزن قد لقبه بالحكواتي الخباص، واستسلم له، عازماً على أن ينخل فيما بعد ما يسمع، ليختار منه ما سيملأ به الاستمارة العتيدة، ويحكي ما تبقى لابنه عمرو، قدراً، ويرمي بالبقية في النسيان.

أما أول ما سيرمي فهو مساءات الأثرم وصحبه في مقهى كشاشة الحمام، وفي مقهى السمّاكة، وفي مقهى الشغري، وفي مقهى السوركة، حيث فاحت روائح زرق الحمام، وحراشف السمك، وأقراص السوركة المهترئة، وعرق التين أول قطفة، ودخان أبو ريحة. يا محترم.

يا محترم هكذا صار الأثرم يخاطب يزن كان المزارعون يعلقون خيطان الدخان المعدّ للتصدير في بيوتهم، عصياناً منهم على تحالف الحكومة مع التجار ضدهم. وفي الشتاء، كيف كان المزارعون الفقراء يتدفأون يا محترم؟ طبعاً ليس

على مدافئ المازوت، ولا على المدافئ الكهربائية، كما تتدفأون في هذه الأيام، بل على الحطب الموقد في حفرة مدورة صغيرة وسط البيت الطيني، فيسوّد دخان الحفرة خيطان الدخان: التبغ يا محترم.

في الموسم التالي حضر تجار من دمياط ليشتروا الدخان، فأعجبهم اللون الأسود، ودوختهم الرائحة التي أودعها دخان الحفرة في دخان الخيطان، فاشتروا بالغالي من خلف ظهر الحكومة، ومن خلف ظهر التجار من أبناء اللاذقية. ولكن متى كانت هذه الحكاية يا محترم؟

قل قبل مائتي سنة، وزِدْ زادك الله من نعيمه. ولكن لا تنسَ أن الحكاية نفسها رجعت إلينا بثوب جديد. فمن يسوّق الدخان إلى أوروبا هو صاحب شركة الأمبريال الإنكليزية. ودخان أبو ريحة صار الدخان المدخون، لأن الفلاح صار يعلق الخيطان في السدة، بعد أن يحفر أرضها شبراً أو شبرين، حيث يشعل أوراق الشجر حتى يتدخن الدخان.

أنت لا تعرف يا محترم كيف كانت شركة الأمبريال تحصل على الدخان المدخون. أنا أحكي لك. أنت لا تعرف أن المزارع يحتاج إلى كل قرش ليأكل ويلبس هو وأسرته. والقرش مع السمسار، والسمسار يسمسر للتاجر المرابط في اللاذقية، والتاجر يورّد للشركة، ولكن قبل كل هذا يكون السمسار قد

حضر إلى القرية في آخر الخريف أو أول الشتاء، ودفع للمزارع سلفة على الموسم القادم، وثمن الموسم القادم لن يكفي لسداد السلفة والفائدة عليها، فالسمسار هو من يقدر الثمن ويحدد الفائدة. والآن ماذا يمكن للمزارع أن يفعل حتى يبرئ ذمته؟

أنت لا تعرف أن عليه أن يرهن الأرض للسمسار، وسنة بعد سنة يكبر عجز المزارع عن سداد مبلغ الرهن، فماذا يفعل؟

أنت لا تعرف أنْ ليس أمامه إلا أن يبيع الأرض للسمسار، ويتحول من ملاك إلى مرابع، ولكن متى كانت هذه الحكاية يا محترم؟

أنا أقول لك: على أيام شبابي، عندما كان في اللاذقية جريدة يومية واحدة، هي: الخبر، وأربع عشرة جريدة أسبوعية. ولكن بفضل الله، وبفضل ما أنعم به علينا من الحكم التقدمي العسكري البعثي، ليس الآن، جريدة واحدة في اللاذقية.

هنا خشي يزن من أن ينحرف الحكواتي الخباص إلى ما سيجر عليهما معاً غضبُ أية منظمة شعبية أو نقابة أو فرع حزبي أو فرع أمني، لو تسربت حكاية الجرائد في اللاذقية إلى الاستمارة العتيدة. ويبدو أن الأثرم أدرك ذلك، فلوى الحكاية إلى ما كانت عليه المدينة التي ليس مثلها مدينة: حبيبته التي كانت تسوّرها من ها هنا من الفاروس، ثم تابعْ شمالاً بساتين

الزيتون والتين، وعدّ ما يحلو لك من الفواكه يا محترم، ولا تعدّ. وسرْ بعد العدّ كما تشتهي قدماك على الرمل الأحمر النقي، والبحر يغني لك: يا محلا الفسحة يا عين عيني، على شط البر، والقمر منّور عين عيني، على مو على موج البحر. أما إذا كنت هناك، شرق المدينة، فما عليك إلا أن تتابع الصعود. تجاوزْ بيت واصف ورمزية. بعد درجات البيت الأربع والخمسين عدّ خمسين، وزدْ ثم تابع في الدرب الترابية الضيقة الصاعدة المغطاة بظلال التوت، ثم تجاوزْ جامع المغربي، لتملأ عينيك بالبساتين على ضفة النهر الكبير هذه وعلى ضفته هذه، ولا تنسَ أن تملأ عينيك بجبال العلويين الخضراء.

بعد أن ترتوي من الحسْن الذي أنعم الله به على مدينتك، في البر والبحر، امش معي في الحواري والشوارع والأزقة، ولا تخف. أنا أعرفها شبراً شبراً. ما لم أخبره بنفسي حفظته من والدي طيّب الله ثراه: قال الأثرم وهو يبحث عن علبة الكبريت لا يشعل السيجارة إلا من عود الكبريت فاغتنم يزن الفرصة، والتفت إلى رمزية، كأنه يستشيرها فيما إن كان عليه أن يترحم على جدها، لكن شفتيه لم تفترقا، خوفاً من أن يكون الجد حكواتياً خباصاً مثل ابنه. وقبل أن يصحو يزن مما خامره، عاجله الأثرم بحكاية الحجر الناري الأسمر الذي

شيدت منه البيوت العتيقة في الشيخ ضاهر والعوينة والقلعة والشحاذين، ثم أردف الحكاية القصيرة بحكاية أقصر هي حكاية الحجر الرملي الأبيض الذي شيدت منه بيوت الكاملية ذات السقوف القرميدية، وهذه هي الحارة الأرقى يا محترم، تليها حارة الصليبة في الجنوب، حيث سأسقيك ماءً زلالاً، هو ماء السندلكس المكنون مثل الدر في الكهف.

آه يا محترم على تلك الأيام. آه يا بنتي يا رمزية لو رأيت أمك ليلة عرسها، الله يرحمها ويجمعني بها في جنات النعيم. لو سمعت يا بنتي جارتنا أم حنا الله يحسن إليها، كيف كانت تنغّم صوتها وتنادي على أمك وتهاهي:

« قومي اركبي يا عروس والخيل تنقطْ عرقْ
ونحنا حطينا بإيدكْ ميتين ليرة ورقْ
قومي اركبي يا روحي والخيل على التلّه
ونحنا حطينا بإيديكْ ميتين عصملّة
قومي اركبي يا حلوة والخيل قلبت الوادي
ونحنا حطينا بإيدك ميتين ليرة جهادي »

طبعاً يا محترم ما كان فيه خيل، ولا كان فيه ليرة عصملّي ولا ليرة جهادي. نعم كان فيه مئة ليرة ورق، ولكن من أهل العروس، والعروس كان صوتها هدية من الله لي كما

كان هدية لها، لكنها كانت خجولة، لا بد أنك تذكرين غناءها يا رمزية، ولو أنك كنت صغيرة عندما فارقتنا. كنا مساء كل جمعة نغني معاً بعد أن ينام الأولاد. ولكن قبل أن أحكي لك حكاية غنائنا وأغانينا، عليّ أن أحكي لك حكاية السيران كل جمعة مع الأحباب والأصحاب. ما تركنا شبراً يعتب علينا يا محترم، بدأنا بالقريب فالبعيد فالأبعد. عدّ ما يحلو لك ولا تعدّ: بستان البحيرة وبستان جورتنا، مغارة البزاز ومينة القزاز، مغارة الحمام ومينة القصب، جورة الحصور وجورة شحننا، شير بطرننا وشير طرشانا، لا تنس شير المدور وشير قويقه، لا تنس تل الرمل وعينوص والغراف والصيريج، والجباب يا محترم من ينساها؟ جب العسل وجب القيق، جب زرنيخ وجب دليلة وجب الكنافة. أما العيون فآه على العيون يا محترم. آه على القريب منها وعلى البعيد، على ما نشف في هذه الأيام وعلى ما نحل وعلى ما زال كما كان: عين السمية وعين التمرا، عين الصفصاف وعين المجوية وعين الجرب وعين البيضا. حتى إلى عين العروس وصلنا. ويوم كان السيران في عين شقاق أجبرنا البعد على المبيت، رجعت إلى البيت بحالة مزرية من التعب والوسخ. بعدما اغتسلت وتعشيت انتبهت إلى حرد حبيبة القلب. أردت أن أراضيها فبدأت أغني لها:

«براس النبع واصلني حبيبي
وفي عين البحر أطفى لهيبي
وفي القلعة أكلنا كل طيب
وبالفاروس فيه غدا الشرابا»

فبان سنّها، فطمعتُ وتابعت:

«لباب مغارة البابين سرنا
وليّ الله شيخ قرعوش زرنا
بمار طاطروس هناك قد أدرنا
كؤوساً قد شربناها احتسابا»

فقالت:

- صوتك حلو.

قلت:

- صوتك أحلى.

قالت:

- ما سمعته حتى تعرف.

سبحان الله، الله وفقّني فقلت:

- الآن أسمعه.

فالتفتت عني، حتى ما عدت أرى إلا بعض اليمين من كتفها ومن شعرها، وقالت:

- غنِّ معي.

وفاجأتني بأن تابعت بما كنت قد بدأته من شعر الشيخ عبد الرحمن المحمودي:

إلى المسعود سيدنا ابن هاني
توجهنا جميعاً في أمان
فناديناه يا غوث الزمان
بنا فاشفعْ غداً يوم الحسابا

هنا أخذتني النشوة فكبّرت وغنيت معها:

ومن ثم ومن هناك إلى البطرني
مغازي المشركين ومن يزرني
أناديه ألا دوماً أجرني
فإني إليك قد حزتُ انتسابا

ثم تركتها تغني وحدها:

بطابيّات خضر الحيّ غنى
مُغنّينا أزال الهم عنا
ومنها إلى أبي الدرداء زرنا
مقاماً عالياً قطباً مهابا

هل تصدق يا محترم أنني ما عرفت أن زوجتي تفك الحرف إلا في تلك الليلة؟ على كل حال هيْ الحكاية حكيناها، وبعبّك حطيناها: قال الأثرم، تماماً كما تقول صفا عندما تختم حكايتها أو حكاياتها لعمرو، أو كما تختم رمزية حكايتها أو حكاياتها لثريا.

الورقة الزرقاء تلفظ يزن وهو يلغظها

لم يخف يزن على الست جميلة سبب غيابه ليومين متتاليين. وحين عدّت الغياب إذناً، ورفضت أن يكون إجازة بلا راتب، أبلهت نظراته، ولعثمت كلماته. وربما كان ذلك ما جعله ينتبه لأول مرة إلى أن الست جميلة ليست على حافة التقاعد، ولا ضخمة، ولا خشنة أو مسترجلة، كما كانت في يقينه منذ دخل إلى هذا المكتب الذي تخلى عن توفزه، فبات ودوداً، بل ورحباً، مثلما بدت الست جميلة أربعينية على الأكثر، ومتوسطة الطول لا طويلة وأقرب إلى الامتلاء لا السمنة بل إن شعرها ليس قصيراً، وهو مصفف بعناية تحت هذا الغطاء الذي أبعدته عينا يزن مؤقتاً، مثلما رققتا من صوت الست جميلة ومن نظراتها.

هكذا بات يزن قادراً على أن يستشيرها فيما أشار به الأثرم من التوسط لدى جمعية المرتضى. لكنها اعتذرت عن إبداء الرأي، وأخذت تعود إلى ما كانت عليه قبل قليل، فأسرع بالخروج، وصادف بعد خطوات باب مكتب الأستاذ عاهد معاون المديرة مفتوحاً، فأسرع بالدخول، وقبل أن يجلس طلب الرأي الذي بخلت به الست جميلة. ولعل الرجاء وربما الاستجداء الذي نضح به صوته، هو ما جعل كلمات الأستاذ

عاهد تندفع بتأثر:

- فكرة صائبة يا أستاذ يزن. حتى لو لم تتمكن من اللقاء بالرفيق رئيس الجمعية، بل حتى لو لم يسفر التوسط لدى الجمعية عن شيء، يكفيك أنك بذلك تقترب منها. بل عليك أن تقترب منها. عليك أن تكون عضواً فيها.

ومدّ يده بورقة زرقاء كبيرة. ناصحاً بقراءتها استعداداً للقاء المأمول.

في البيت، وقبل أن يعود عمرو من الروضة وصفا من المكتبة، دقق يزن النظر في الورقة التي تروست بالبسملة، وباسم الجمعية الخيرية الإصلاحية الاجتماعية، وبالعنوان المهيب: من الفكر المفتوح لجمعية المرتضى في التجدد والتطور.

في القراءة الأولى، التهمت عينا يزن السطور، ثم عادتا إلى التدقيق في القراءة الثانية، ابتداءً بالنداء المفتاح: أيها الرفاق. وتساءل عما إذا كان هذا النداء موائماً لجمعية خيرية، وهو المتداول في حزب البعث وفي الحزب الشيوعي بكل شقوقه، وربما في سواهما من الأحزاب التي لا علم ليزن بها. ولما بلغ في القراءة الثانية منتصف الورقة، تريث عندما ذكرت مهاجمة إذاعة لندن ومعها صدام حسين وأنور السادات، للجمعية. وضاعف يزن من الريث عندما ذكرت الورقة أمريكا

التي تتبنى الإخوان المسلمين، وقرأ:

«حـزب خـوّان الإسـلام والعروبة والإنسانيـة، ولتتبنى الانتهازيين الطفيليين عصابة المكتب السياسي ورابطة العمل الشيوعي، وما ذلك إلا ليكونوا أعداء للإسلام ولشعبنا العربي وجماهيره الكادحة، ولكافة الشعوب التي تنشد الحرية وتطلب العزة والكرامة.. لهذا أيها الرفاق قامت المخابرات المركزية الأمريكية ترسم المخططات لهؤلاء الخونة وللرجعية القذرة في هذا القطر..».

فجأة اعترت يزن رعشة من خوف. وطرد ما أومض له من بيته في حلب: ذكريات تظلل البيت بأخيلةٍ من الحزب الشيوعي المكتب السياسي ومن رابطة العمل الشيوعي، بالسهر والحوارات والبيانات والاختلاف وفناجين القهوة أو كؤوس العرق. وحين قسر نفسه على متابعة القراءة، أومضت له شفق مؤكدة أنها عضو في رابطة العمل الشيوعي، فغادر مكانه ليبعدها عنه وعن الرابطة. ثم تابع القراءة الثانية وهو يقطع الصالون ذهاباً وإياباً، وسرّه ما قرأ عن الدورات التعليمية التي تقيمها بيوت المرتضى للخدمات الإنسانية لطلاب الشهادات في البلدات والقرى. وسرّه أيضاً ما تقيم تلك البيوت من رياض الأطفال. لكنه لم يستسغ دعوة المشرفين على الرياض لتدريب الأطفال على الرماية ببارودة ضغط، في الفرصة الأخيرة من

كل يوم، على الرغم من أن الدعوة تدرعت بالحديث النبوي الذي يحضّ على تعليم الأولاد السباحة والرماية وركوب الخيل. وقرأ أخيراً بلا حماسة:

«ونريد من العضو في هذه الجمعية أن يكون مصلحاً اجتماعياً وطبيباً نفسانياً يعرف كيف يعالج الناس بعد أن يكشف الداء بعطائه العلاج الشافي والحاسم».

وفوجئ بهمهمته تقطع القراءة لتسخر منه، ولتؤكد أن يزن عمران لا يصلح لهذا القول، فطوى الورقة عازماً على أن يقرأها للأثرم: لولا اقتراحك، لولاك، ما وصلت هذه الورقة إليّ. أنت أَوْلى بها مني. أنت تصلح عضواً في الجمعية أكثر مني.

سوف يقول يزن ذلك للأثرم، ولكن بعد أن يذهب في المساء إلى مكتب الجمعية، ويشرح لمدير المكتب سبب طلبه اللقاء برئيسها. وبعد أن يمضه الانتظار في المكتب الذي يعج بالواقفين والجالسين، وبرنين الهواتف التي تملأ امتداد سطح المكتب، إلى يمين مديره الذي هامس يزن أخيراً:

ـ آسف. لا لقاء اليوم. تعال غداً. تعال غداً وبكّر، ربما. لماذا لا تشرح مشكلتك خطياً، فهذا..

ولم ينتظر يزن أن يكمل الرجل كلامه، بل شكره وصافحه بحرارة، وأسرع بالاختفاء.

الأثرم يحكي حكايات أمه وعروسه والفهد

في بيت الأثرم تجرع يزن اللوم من نظرات رمزية قبل أن يؤكد لها أنه سيتابع البحث غداً عن أخيه في بقية الفروع الأمنية. وبينما كان الأثرم يقرأ الورقة الزرقاء، تراءت ليزن الاستمارة التي سيكون عليه أن يملأها غداً في فرع جديد. وحدق في الأثـرم ملياً، محاولاً أن يحدد ما سيكتب عنه في جدول صغير وفارغ. ولذّ له أنه لا يذكر الآن من الأثرم حتى اسمه، وخاف من شر النسيان. وكأنما أدرك الأثرم ما به، فطوى الورقة الزرقاء قبل أن يتم قراءتها، ثم أقبل على يزن كما تقبل صفا على عمرو، أو كما تقبل رمزية على ثريا. ولذّ ليزن أن يصغر للحكاية، كما يصغر الأثـرم، حتى يعود شاباً يتوسط أقرانه في مشواره المسائي إلى جنينة البلدية أو في شارع الحكومة، والبحر دوماً هو المرتجى. ومثل يزن الصغير، أي مثل عمرو وثريا، يصير الأثرم وهو يخبص حكاية أمه مثلاً فيجعل لها خرزة الحليب البيضاء التي أهدتها لها أختها، لماذا؟ لأن الأثرم كان لا يزال رضيعاً، وحليب أمه لم يدرّ حتى جاءت الهدية التي جعلتها تباري أختها من بعد في

اقتناء الخرزة فالخرزة: هذه خرزة الهدهد، والكعبة الشريفة من عظمة الهدهد، وما عليك يا أختي إلا أن تقولي: يا هدهد يا هدهد حلّفتك بخالق الخلق عن بيتنا لا تبعد، وبعد هذا انظري يا أختي أية رقية ستكون هذه الرقية. أما هذه فهي خرزة الفأس. انظري يا أختي: أليس لها شكل الفأس؟ ضعيها في شعرك وانظري أية رقية ستكون. وهذه خرزة السلوى، صحيح أنها بقدر حبة الزيتون، يا ستيّ وبلونها، ولكن جربي وقولي: سلوى سلاك عن أمك وأباك، وانظري أية رقية ستكون.

فجأة خبص الحكواتي الحكاية خبصة ثانية، فصار الأثرم شاباً وتزوج: أمك يا رمزية. ونصحني أبي رحمه الله النصيحة التي نصحت بها صهري العزيز أعاده الله بالسلامة: أخوك يا يزن. تأمر النصيحة ابن آدم، من أجل أن يرزقه الله بذكر، بأن يضع كفه اليمنى على سرّة حرمته وهي نائمة، وتأمر النصيحة ابن آدم بأن يمسح على سرّة حرمته في أول حملها، ثم يردد ثلاث مرات: اللهم إن كنت خلقت خلقاً في بطن زوجتي هذه، فكوّنه ذكراً، وأنا أسميه محمداً. رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين. فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب وبشروه بغلام عليم. أخوك لم يسمع النصيحة فرزقه الله بثريا. بربك ألم تطبق هذه النصيحة حتى رزقك الله بعمرو؟

استرق يزن من رمزية نظرة، فإذا بها ساهمة. وحكم بأنها لم تسمع من أبيها كلمة، فقرر أن يحذو حذوها. لكن الأثرم اقترب منه، وسدد إليه نظرة محيرة، كأنما سيستودعه سراً، أو يفضي إليه بما يكدره، فتنبه يزن، وقال الأثرم شاكياً إن إخوته طماعون، وقد أرادوا أن يلهطوا ديون حميه عليهم، فرسموا تزويج أخيهم الأصغر من بنت الدائن الذي كشف خبثهم. فلماء جاءوا يخطبون لأخيهم، أراهم حموي الذي كان لقبه الطير الناطق لهول ذكائه، ابنته الصغرى التي كانت آية من آيات الحسْن، وكانت العادة أن يرى العريس وأهله العروس مرة واحدة قبل الزواج، حتى إذا حُمَّ القضاء تبين في الليلة الليلاء أن العروس ليست من رأيتها أنا وإخوتي، بل هي الأخت الكبرى لست الحسن والجمال، وشتان ما بين...

- أمي لم تكن بشعة.

قالت رمزية مقاطعة، وبامتعاض، فسأل الأثرم متمسكناً ومسترضياً:

- من قال إنها رحمها الله كانت بشعة؟

ثم خصّ يزن بالقول:

- الألماسية التي كانت تحلّينا بها رحمها الله، لا تجدها عند حلواني في اللاذقية. والمربيات يا يزن: مربى السفرجل،

مربى العنب ومربى التفاح. كانت ست بيت بحق وحقيق. في عز الشتاء كانت توّفر لنا من الخضار التي تخلّلها وتجففها، كل ما يخطر على بالك: الباميا والباذنجان والبندورة، ورق العنب والفاصولياء. الله يرحمها.

ويبدو أنه آثر السلامة، فلم يكمل حكاية العروس، بل استدار إلى ما اشتهر به أبوه، ليس في اللاذقية فقط، بل في سوارها الجبلي أيضاً: صيد الفهد يا محترم.

لن تصدقني، كما لم يصدقني أخوك أعاده الله بالسلامة. الفهد السوري ليس له مثيل يا محترم. لا الفهد الأفريقي مثله ولا الفهد الآسيوي. أنت تظن أن الفهود كلها مثل بعضها، وأنا كنت أظن أيضاً. لكن والدي علمني من حكاياته، خصوصاً بعد ما كبرت وصرت أرافقه في الصيد. كنا نمشي يا محترم من هنا إلى مقامات بني هاشم. شرق جبلة. مشينا إلى شرق طرطوس وشمالها. حتى هنا، حول النهر الكبير الشمالي كنت تقع على أثر للفهد. متى ما رأيت خنزيراً منهوشاً ومعلقاً على جذع شجرة، فاعلم أن الفهد مرّ من هنا. كانت الفهود كثيرة في الجبال، لذلك وصلنا إلى جبل الشعرا، وما تركنا سنديانة ولا بلوطة تعتب علينا. كنا نصادف الدب أيضاً، ولكن مقابل عشرة فهود لا نصادف إلا دباً واحداً. الشهادة لله يا محترم:

نهدة الدب نهدة. كانت ترج الغابات والصخور والوديان، وتزعزع الواحد منا زعزعة. الفهد لا يؤذي البشر. اسألني أنا. مرة صادفته وحدي. كان أبي قد تاه عني وكنت قد تهت عنه، واذا بفهد يقطع عليّ الطريق. طريق ضيقة لا تتسع إلا لي أو له. صلب عينه على عيني، ونشف ريقي. يبست يدي، والحمد لله أنها يبست. لو هاجمته من هذه المسافة فمن كان ينجيني منه إلا الله؟ بعد نَفَس نَفَسين، بدأت أهدأ. رجعت لي الروح وتلفّتّ حولي، تلفّتّ إلى الوراء. ربما كنت أبحث عن مهرب دون أن أدري. ولما رجعت للفهد كان اختفى. بثانية واحدة اختفى. تربعت على الأرض ولم أتحرك حتى عثر عليّ والدي، ولما حكيت له ما كان من الفهد قال: متى ما مال نظرك عنه، يمضي في حال سبيله.

وكأنما طابت الحكاية ليزن، فسأل لهفان:

- متى شاهدت الفهد آخر مرة؟

قال الأثرم:

- سنة الوحدة بين سورية ومصر. سنة الجمهورية العربية المتحدة.

قال يزن متشوقاً:

- صفه لي.

قال الأثرم:

- لا بد أنك رأيت صورته، لا بد أنك رأيته في السينما أو في التلفزيون.

قال يزن:

أنت تتحدث عن الفهد السوري.

- مثل القطة. عيناه مثل عينيها وأنفه مثل أنفها. أظافره مثل أظافرها، وجلده مرقط مثل جلدها. لا فرق بينه وبينها إلا أنها صغيرة، صغيرة جداً، وهو كبير، كبير جداً جداً.

قال الأثرم ونظراته تغيم، ففكر يزن بأن الفهد السوري إذاً مثله مثل غيره، إلا أن يكون الأثرم لم ير الفهد السوري قط، وإنما هو يخبص الحكاية التي قد يكون أبوه خبصها له. ولعل الأثرم قد اشتبه بصمت يزن، فأيقظ نظراته، وتابع الحكاية:

- الفهد يا محترم يعيش في الغابة. والغابة تتاخم القرية. والقرية لها قطيعها من الغنم والماعز، والقطيع له راع، والراعي قد يغفل بين يوم وآخر، فينقص القطيع خروفاً أو معزاة، فلا يشك الراعي بالضبع، ولا بالذئب ولا بالدب، حتى بالثعلب لا يشك. لا يشك الراعي إلا بالفهد، لذلك صار يسمم قطعة من اللحم ويعلقها على شجرة، فيأتي الفهد ويأكل اللحم، فيقتله السم، ويحضر الراعي، يسلخ جلد الفهد ويملحه ويجففه،

وينتظر أحياناً شهوراً، حتى يأتي يوم ماطر، ويطير بما يكون قد تجمع لديه من الجلود إلى المدينة. ولما انتقل الخبر من قرية إلى قرية أخذ الرعيان فيها يسممون الفهود حتى لم يبق منها واحد في جبالنا ولا في غاباتنا. وْهَيْ حكاية حكيناها وبعبّك يا يزن حطيناها.

وداعبت أصابع الأثرم شعر يزن، تماماً كما تداعب أصابع صفا شعر عمرو، عندما تختم حكايتها، أو كما تداعب أصابع رمزية شعر ثريا، عندما تختم حكايتها.

رحلة صفا من فرع الحرية إلى ا السرير

بعد يومين غائمين ولفحات ناعشة في النهار وباردة في الليل، فتحت السماء قِربها، في غير موعدها، إثر شهر من الحر الكاوي.

لم تكن مطرة صيفية قط، ولا خريفية، كما جزمت صفا وهي تتسلل من السرير وتسرع إلى غرفة عمرو، تملأ عينيها وأنفاسها منه، ثم تسرع إلى الشرفة. ولا تكاد تملأ عينيها من الحديقة، ولا أنفاسها من رائحة المطر، حتى جزمت أنها مطرة من كانون أخطأت زمانها. وتمنت لو أن يزن وعمرو ينفضان النوم والكسل، ويقفان حولها حتى تصحو هذه السماء المطبقة والسكرى، ولكن متى يفعلان؟

لم تأبه السماء بالسؤال، فاضطرت صفا إلى أن تنصرف إلى الطقس الصباحي لها ولعمرو، بينما ظل يزن يرفل في النوم: لا دروس اليوم له في دار المعلمات، ولن يبكر إلى ما تبقى من الفروع الأمنية.

إلى المكتبة وصلت صفا مبلّلة، لكنها كانت جذلى. وربما كانت ستظل جذلى طوال النهار لولا أن تحية هذا الشاب أفزعتها:

ـ صباح الخير مدام. كيفك؟ كيف الأستاذ يزن؟ تفضلي.

وقبل أن يستقر المغلف المبلل الذي رماه الشاب على سطح المكتب، وقبل أن تتلاشى تحيته المبللة أيضاً، كان قد اختفى.

تلمست صفا المغلف المغلق، وانتفضت كأنه لسعها، وطارت إلى الباب، ونادت الشاب الذي كان يكاد يتجاوز باب الكنيسة، على الرصيف المقابل، محاذراً حبات المطر.

لم يرد الشاب، أو لم يسمع، فكررت النداء أعلى، فالتفت، ورآها من بعيد تلوح بالمغلف غضبى، فهرول حتى غيبته الزاوية التي يحتلها المصرف التجاري. وربما كانت صفا ستتمكن من اللحاق به، لولا أن عطلتها عن الانتقال إلى الرصيف المقابل سيارةٌ تلو سيارة.

وهي تعود إلى كرسيها حانقة، مزقت المغلف، دون أن تفتحه، ربما كانت المرة الرابعة أو الخامسة، وليس في المغلف إلا عدد جديد من (الراية الحمراء): قلت لك يا أخي يا عيني يا روحي المكتبة باب رزق، هنا مكان عمل. الأستاذ يزن في دار المعلمات. هل أدلك على بيته؟ خذْ له جريدتك، ولا تأت بها لي.

لكن الشاب ظل يحضر إلى المكتبة، وصفا لسبب ما لم تحدث يزن عنه. ربما خافت من أن يكرر سخريته من خوفها عليه بعدما كاد الرصاص أن يقتل واصف.

حبيبي يزن: لا تزعلْ مني. الله وحده يعلم كم أحب شفق. والله حتى أختك أتمنى ألا تزورنا في هذه الأيام. شفق من رابطة العمل الشيوعي. لا أحتاج إلى الذكاء حتى أعرف ذلك. أظن أن صديقها هزار هو أيضاً من الرابطة. حبيبي مبروك له ولها. ما يهمني ألا يقترب أحد من المغضوب عليهم منا، في هذه الأيام. لا رابطة ولا بعث ديمقراطي، لا اتحاد اشتراكي ولا مكتب سياسي ولا تجمّع وطني ولا من يحزنون.

أمرك صفا خانم: قال يزن مرة. وفي غيرها قال: يا حيف يا صفا خانم. ما كنت هكذا في حلب. وربما كان سيقرعها بما هو أقسى لو حدثته عن هذا الشاب الذي عكّر صباحها، ولم يزايلها العكر حتى دخل إلى المكتبة هذان الشابان، قبيل موعد الغداء، وبادراها معاً بصوت موحّد وجهير:

– مرحبا مدام صفا.

ردت التحية متوجّسة. وما كادت نظراتها تنتقل بين الشابين حتى همس أقصرهما بأنهما من الفرع، فانتظر الآخر حتى بلعت ريقها، ثم همس بأنه يتمنى أن ترافقهما، فلم تنبس، بل أغلقت المكتبة كالمنوَّمة، وجلست كالمنوَّمة إلى جانب الأقصر الذي قاد سيارة الجيب.

إلى فرع الحرية: ستقول صفا ليزن عندما تعود إلى البيت

عصراً، جائعة ومرهقة، لكنها ليست خائفة، فقد خافت في ساعتها الأولى في الفرع ما كان كافياً لأن يجعل المنوَّمة تنتفض، وتسأل عن التواليت، وتسابق البول، حتى إذا أعادت ربط الحزام، أحست كأن الخوف زايلها ومضى مع البول، فأسرعت إلى المغسلة، ومسحت وجهها مرتين، وعادت إلى الممر تنتظر الضابط الذي سيقدم لها فنجان قهوة وسيجارة دنهل، بعد أن يعتذر عما إذا كان حضورها إلى الفرع قد تسبب لها بأي إزعاج. ولكي لا يؤخرها عن أي أمر كما أكد مرتين أسرع بالسؤال عن (الراية الحمراء).

هذا هو السر إذاً: فكرت صفا وهي تبتسم في سرها. ثم حكت للضابط حكاية الشاب الذي عكّر صباحها اليوم، مثلما فعل من قبل مراراً. وما كادت تنتهي وكان فنجان القهوة قد انتهى، كذلك السيجارة حتى ابتسم الضابط، وقال:

- أقدر صدقك وأشكر تعاونك، لحسن حظنا وسوء حظ الشاب: اعتقلته الدورية قرب المكتبة، بعد المصرف التجاري بقليل، وقد حكى لنا ما تفضلت به. ما تركنا نحتاج معه إلى كفّ. آمل أن تخبرينا إذا ما اتصل بك أحد في المستقبل من أي حزب كان، أو من أية جماعة. إذا لم يتعاون المواطنون معنا، فماذا نستطيع أن نفعل وحدنا؟ هذا رقم هاتفي، والسيارة

جاهزة لتوصلك: إلى البيت أم إلى المكتبة؟

شكرته قالت ليزن واعتذرت عن السيارة، فأصرّ، فأصرّت: وجئت على رجلي، الحمد لله أن السماء صحت.

وفجأة اشتبك كلامها بكلام يزن:

– والله الجماعة أوادم.

– أخشى ألا يكون الأمر انتهى.

– ماذا تقصد؟

– أقصد أن يكون للأمر تتمة.

– شفق؟

– مثلاً. ما سألت نفسك لماذا لم يذكرها؟

– لأنه لا يعرف أنها في الرابطة.

– لكنك تعرفين.

– أنا أخمّن. لو كانت في الرابطة لكان يعرف.

– لماذا تجاهل أنك زوجتي؟ لماذا لم يسألك عني؟

– رحْ اسأله.

– لماذا لم يطلب منك أن تملأي استمارة مثل التي ملأتها؟

– الله وفقني بضابط ابن حلال.

– كيف عرفت أنه ضابط؟

– لما دخل العسكري بالقهوة قال له: احترامي سيدي.

- وواصف؟

- ما به؟

- ما سألتِ نفسك لماذا لم يسألك عنه؟

- الحق علي. كان يجب أن أسأله أنا. ما رأيك بأن أسأله الآن؟ هذا رقم هاتفه.

- بدأت أيامنا تتلخبط يا حبيبتي. هل تذكرين ابن فتكة؟

- ما به؟ ما الذي ذكَرك به؟

- لا شيء. الفروع تذكّر ببعضها.

- المهم ألا نتلخبط نحن يا حبيبي.

قالت وهي تسرع إلى الحمّام، آمرةً بأن يعدّ هو الغداء، ريثما تغتسل من أثر هذا النهار، فمضى إلى المطبخ قفزاً.

وكما تمنى وهو ينظر عبر نافذة المطبخ، قبل أن يفتح البراد، عادت السماء تمطر. وكما تمنى عندما أقبلت صفا متوهجة، لم يرن الهاتف، ولم يرن جرس الباب إلا عندما عاد عمرو من الروضة.

هكذا سيكون لكَ أن تتنعم بكل هذا الوقت المترامي من العصر حتى ينتصف الليل: تغافل صفا إذ تدير ظهرها، أو تنحني لأمر ما، أو تمشي إلى المطبخ، وإذ تقبل بهيجة ورضية كأنها صغرت سنوات وعادت إلى بيت أبيها وهي تسرع

بفنجان القهوة لك، كما تسرع به إليها أنت الآن، ثم تعتذر منك ضاحكةً لأنها نسيتْ كأس الماء، كما تنسى أنت الآن وتعتذر وتضحك. وكما كانت عيناك تلوبان على ما تصادفان منها، ها هما تلوبان: الكتفان وقد ضيّعا نحولهما، غَمْرُ الشعر الأكرت يضاعف سواده ويقصر حتى يعري العنق الأملس، بطن ليس بالخامص ولا بالمستوي، كأنه لم ينتفخ بعمرو. وليس هذا بالأحلى ولا بالأمتع، بل هي نظرات صفا التي تؤكد أنها قد أدركت ما بك، وإن تكن أنت نفسك جاهلاً بما اعتراك منذ خرجتْ من الحمام، وجلستْ قبالتك تتناول ما أسرعتَ به: صحن من المقلوبة مما تبقى من غداء الأمس، زبدية من الخيار باللبن، مما أعددت بالمهارة التي تفاجئك مرة، كي تُدِلَّ بها على صفا عشرين مرة. وفي انشداهك أو جَذْبتك تتشبه بها، فتصغر لقمتك الكبيرة، لكنك تزدرد اللقمة الصغيرة كالكبيرة، طمعاً في أن تسمع صوت صفا يوبخ كعادته: على مهلك حبيبي، لا أحد يركض خلفك، ولسنا في سباق.

ربما كان ظلاً من الخوف هو ما سرى في يزن، فأقبل على صفا يتنسّم أماناً. وربما كانت هي أيضاً في مثل حاله، فدقّت الأنفاس واحترّتْ، وتلامست أصابع وكفّان في مصادفة عامدة بعد مصادفة عامدة. ولا بد أن عمرو نفسه قد قدّر ما بوالديه،

فانفرد فترة على الشرفة، يحكي حكايات للمطرولذؤابات الزنزلخت والصنوبر، كما انفرد في غرفته فترة، يحكي حكايات للدبدوب، واللوح الصغير والأقلام الملوّنة.

أبكر من موعدها، حلّت عشاء عمرو التي تولاها يزن، ثم ترك لصفا أن تهيئه للنوم أبكر من موعده، لكن غيبتها طالت في غرفة عمرو، فغالب يزن شوقه إليهما حتى غُلِبَ، فاندفع إلى الغرفة. وعلى سرير عمرو قابل صفا، فانبترت الحكاية التي كانت تحكيها، وتراءى الأثرم ليزن يدعوه إلى أن يكون هو الآن الحكواتي الخباص الذي يلاعب الأخيلة في كل عشية مثل هذه العشية، فابتسم يزن للأثرم ملبياً دعوته،ثم ابتسم لصفا، وداعب ذقنها حتى تعود صغيرة مثل عمرو، وداعب ذقن عمرو، وسمّى باسم الله، وقال:

كان يا ما كان، كان فيه صبية ليس لها مثيل بين الصبايا. جبينها مثل جبينك يا صفا، وعيونها مثل عيون أمك يا عمرو. قدّها مثل قدّك يا صفا، وخدودها وصدرها وأصابعها كأنها أمك الخالق الناطق يا عمرو، لكن اسمها: ذات القرنين.

هنا قاطعت ضحكة عمرو الحكاية، وضحكت الطفلة صفا، فأصرّ يزن على أنها ذات القرنين، ونفى أن يكون لها صلة بلوحة ليلى نصير التي سمّاها هو (ذات القرنين). كما نفى

أن يكون لها في رأسها قرنان مثل قرني الخروف أو التيس، ثم نفى أن يكون لها بذي القرنين صلة، وإن تكن مثله: عبدة صالحة، وصاحبة للخضر، وملكة على قحطان وعلى حِمْير، ولها ملاك صديق ينقل لها أخبار السماء، واسمه، لنفرضْ أن اسمه: واصف.

في عشية صيفية، لكنها ماطرة، مثل هذه العشية، أخبر واصف ذات القرنين بأن في الأرض بقعة ظلماء،لا يطأها إنس ولا جان، وفيها شجرة ليست كالأشجار، بجوار عين ليس من ماء مثل مائها، وليس من عين مثلها بين العيون.

أخذت ذات القرنين تحلم كل ليلة بزيارة تلك البقعة. ولما تمكن منها الحلم انطلقت وحيدة، تصل الليل بالنهار سيراً على قدميها المباركتين الصغيرتين الرهيفتين اللدنتين مثل قدمي أمك يا عمرو، حتى دخلت في بقعة مظلمة، فظنت أنها وصلت، لكن زمردة حمراء أضاءت السبيل، فاكتشفت ذات ا لقرنين أنها أخطأت، فتابعت السير حتى بلغت قصراً ليس مثله قصر، وإذا بطائر أسود يشبه الخطاف، في أنفه علاقة من حديد محمر تصل الأرض بالسماء.

حيّا الطائر ذات القرنين، وقال لها:

- أرجوك أيتها الفريدة بين النساء أن تصعدي إلى سطح القصر.

لبّت ذات القرنين الرجاء، وإذا بصورة شاب، سبحان من أبدع وصوّر، تملأ السطح الفسيح المزوق المهيب كأنه قاعة العرش. صلّت ذات القرنين على النبي المصطفى وأهله، وهي تتأمل الشاب الذي يتلع بعنقه إلى السماء، ويرفل بثيابه الأرجوانية، واضعاً يده على فمه. ولما وقفت تتأمله مسحورة، خاطبها:

ـ أنا الملاك الموكل بالصُّوْر، أنفخ فيه يوم القيامة. بإذن الله. ألم تكفك يا أمة الله أرض الإنس والجن حتى جئت إلى أرض الملائكة؟

ولم يكد ينهي الملاك سؤاله حتى وقعت ذات القرنين على بلاط السطح مغشياً عليها. ولما أفاقت من غشيتها استولى عليها نوم عميق، ورأت في منامها صلّوا على خير الأنام أنها على شفا واد يطل على جهنم، وأن سلماً قد انتصب لها، فعرجت عليه حتى بلغت السماء الدنيا.

هنا قيض لها الله سيفاً، وأسلط السيف على نجم سهيل. وفي منام جديد رأت النائمة الحالمة الرياح والجن تسعى طيّعة بين يديها. ورأت نفسها تبلع الأرض والبحار حتى تبلغ طيناً وحمأةً، فتتوقف عن البلع. ثم رأت الشمس تطلع من المغرب بيضاء صافية، فسارت نحوها، وفي طريقها داست على النجوم. ولما بلغت الشمس صحت النائمة الحالمة من

نومها ومن حلمها، فهل تفسر هذه الأحلام يا عمرو؟

سأل يزن، فأعلنت نظرة من عمرو أنه لم يفهم السؤال. وربما كانت النظرة تعني أيضاً أنه لم يفهم الحلم، لذلك لجأت نظرة أخرى منه إلى صفا، فلحق بها سؤال يزن:

- هل تفسرين يا حبيبتي هذه الأحلام؟

ولأن صفا لا تزال طفلة مثل عمرو، أنكرت نظرة منها السؤال، وربما أنكرت النظرة الحلم نفسه، بل لعلها أنكرت كل ما حكى يزن الذي أسرع بالقول:

طلباً لمن يفسر الأحلام لذات القرنين، حجتْ إلى مكة المكرمة، ومنها حجت إلى القدس المطهرة. هنا التقت بصديقها الملاك الذي ينقل إليها أخبار السماء، ومضيا معاً: من وادي الياقوت إلى صخرة منيرة.

أرادت ذات القرنين أن ترتقي الصخرة، فإذا بالصخرة ترتعد وتتصدع، تراجعت ذات القرنين فسكنت الصخرة. أعادت ذات القرنين الكرّة مرتين، ثانيةً وثالثة. عندئذٍ نادى منادٍ من السماء:

- احفري يا أمة الله تحت الصخرة حتى يتحرر النبع. تطهري بمائه واشربي، لتعيشي حتى يحل موعد النفخ في الصُّوْر.

أسرعت ذات القرنين بالحفر بأصابعها الطويلة الحليبية،

وساعدها صديقها واصف. وقبل أن تغيب شمس ذلك النهار الصيفي الماطر، كما كان نهارنا ماطراً، تفجرت عين ليس مثل مائها ماء، وما لها بين العيون مثيل، فشربت ذات القرنين حتى ارتوت، ولم تنتبه إلى أن صديقها الملاك قد اختفى، لأنها كانت مأخوذة بالماء الذي يستدير إلى حيث تفجرت به العين، فهو يسيل ولا يسيل.

تلفتت ذات القرنين حولها ذاهلة، وتساءلت عن سر الماء. ولعلها كانت ستظل ذاهلة تتساءل حتى الآن، لولا أن صوتاً قد دوّى:

- يا ذات القرنين ارجعي، فليس لك مزيد.

وْهَيْ حكاية حكيناها، وبعبك يا عمرو حطيناها. لا لا. هَيْ حكاية حكيناها، وبعبك يا صفا حطيناها.

قال يزن منغّماً صوته، وتسلل من السرير، متشككاً في أن يكون قد أمتع عمرو. ووقف خلف زجاج باب الصالون، يتفقد المطر الذي أخذ يتلاشى. وما إن ظهرت صفا حتى عاجلته بمرح:

- حكايتك للكبار يا حبيبي، لا تصلح للصغار، لكنها بشارة خير.

فقال آسفاً:

- تهت بينك وبين عمرو، فتاهت الحكاية. ولكن ماذا قصدت بالبشارة؟

قالت وقد وقفت قبالته، ورمت ذراعيها على كتفيه:

- بشرتني الحكاية بأنك ستبدأ الكتابة، ولكن ليس كما كنت تفعل. هذه المرة ستكمل ما بدأت به.

- سأطرد ذات القرنين من الحكاية لتكون لك وحدك.

همس بينما كانت ذراعاه قد سوّرتا خصر صفا. وأخذت سبابة يمينه وإبهامه تخطّان على صفحة ظهرها مثل قلم يخط على ورقة. لكن ورقة صفا كانت مُسْكِرة، لذلك سكرت أصابع يزن جميعاً، فأخذ ما منها في اليمين يكتب ملء ظهر الورقة اللين المترامي من عنق صفا حتى قمة أليتيها، وهمّ ما من الأصابع في القدمين بخطوة نحو غرفة النوم، فسبقتها خطوة صفا. ولأن كلاً منهما اكتشف نية الآخر، تراقص ضحكهما معاً. وعلى باب غرفة النوم انبترت الضحكة، إذ التحمت الشفاه في قبلة ندر أن عرفتها منذ سنوات. ولما افترقت كانت صفا قد ارتمت على السرير.

أشلاء حلبية

صفا الآن ريشة من طائر فريد: اسمه هو كل الأسماء، ولونها الريشة هو كل الألوان.

صفا الريشة ناعمة وخفيفة، تطيّرها النسمة لأنها هي راغبة في أن تطير، مشتاقة للرفرفة في علياء من الفضاء الرحيب.

قد تكون بدت كذلك من قبل مرة واحدة، حين اختلت ويزن في سرير العرس: حلب مقابل الجامع، عمارة الإسماعيلي، أي الدكتور قهوجي القادم من عاصمة الإسماعيليين: السلمية، الطابق الأول، غرفة النوم التي أشبهت مرجاً زاهياً ومعطراً وبلا نهاية.

لم يكن يزن قد حظي من صفا بأكثر من قبلة خاطفة وضمّة خائفة. كما لم يكن قد رأى من عريها سوى ذراعين، وما تحت الركبتين، ذات صيف. ولعل كل ذلك هو ما جعل ثوب العرس يملص من دون أن تمتد له يد، فوقفت صفا الآن وسط المرج تتأود، كأنها عروس قد توسطت سرير الليلة الأولى، حرة، ولهفى، ترمق من اختارت وهو يرمح حولها من أقصى المرج الذي لا نهاية له إلى أقصاه. ولن يكون ما تبقى من

ليلة العرس إلا كالذي سلف منها، أو كالنهار الذي تلاها: فرحاً ولذاذة واتحاداً ولعباً وموسيقا وآهات وغناء.

ويزن الآن مثل صفا، لذلك أشفق على نفسه من أن يعتكرا بالسؤال عن واصف، أو بمشاهدة أخبار التلفزيون، أو بفتح المكتبة، أو بالذهاب إلى دار المعلمات. فمثل ليلة الأمس هو هذا النهار، لهما وحدهما، بعد أن يستوفي عمرو نصيبه.

ولكن إن أمكن لكل ذلك أن يثنّي الليلة الفريدة، فأنى له أن يثنّي النهار، لذلك تفرقوا باكراً: عمرو إلى الروضة، وصفا إلى المكتبة، ويزن..

* * *

بجفاء استقبلته الست جميلة. لم تدعه إلى الجلوس، بل ناولته الورقة. وما إن أتم قراءتها حتى رأى الست جميلة دون أن يرفع رأسه عن الورقة قد صارت بالغة القصر، بالغة السمنة، شعرها شائب وخفيف جداً، حتى لتكاد تلتمع صلعة تحته. ولما رفع يزن رأسه رأى الست جميلة بعين اليقين قد كبرت عدداً من السنين يكفي لأن يجعلها متقاعدة قد شاخت، وصار صوتها مشروخاً، كأنها تدخن منذ خمسين سنة وبالضبط من دخان أبو ريحة المدخون كما صارت نظراتها زائغة، فتبسم يزن شامتاً، وخرج دون وداع.

ومن الدار أيضاً خرج دون وداع. ولما صار على الرصيف توقف، والتفت يساراً إلى حيث يرابط الفرع الأمني الذي سماه فرع دار المعلمات، وعندئذٍ فقط أدرك أن الورقة التي تناولها من الست جميلة، وتقبع الآن في جيبه، هي قرار بنقله من دار المعلمات إلى ثانوية أسامة بن زيد للبنين. وهكذا إذاً بدأ تبعيث التعليم، وسوف يشعر يزن بقليل من العزاء عندما سيعلم غداً أن قرار التبعيث قد نقل أيضاً إلياس مرقص من دار المعلمين إلى ثانوية جول جمال للبنين.

للمرة الأخيرة نظر يزن إلى دار المعلمات، ثم مشى حزيناً. ومع كل خطوة كان حزنه يكبر ويمتزج بالحنين إلى كل ما ظل مكيناً خلفه: البوابة الحديدية، سارية العلم، العلم الذي ما فتئ يتبدل منذ حيّاه يزن أول مرة حين كان يلبس البنطلون القصير ويلثغ بفضل الفأرة التي بدأت تسرق أسنانه الممر الذي يفضي إلى غرفة الست جميلة وغرفة الأستاذ عاهد، ثم ينعطف إلى غرفة المدرسين والمدرسات، الممر الذي يفضي إلى قاعات التدريس والهمسات والضحكات والصخب والطالبات اللواتي سيصبحن بعد شهور معلمات، ثم سيصبحن زوجات وأمهات، وهذا هو الممر الأخير: المكتبة وغرفة الموجهات وأمانة السر والمستودع ولم يبق إلا الساحة الصغيرة المسفلتة، وشجيرات

الجاكاراندا المتناثرة لصق السور في جهاته الأربع.

بعد سنتين أو ثلاث ستكون الشجيرات قد صارت أشجاراً تتمرأى بالبنفسجي، بينما يكون من لفظته دار المعلمات الآن قد صار بعيداً، أبعد من ثانوية أسامة بن زيد للبنين، وربما أبعد من اللاذقية.

كان يزن والحنين، كلٌّ يداور الآخر، بينما كانت خطاه تحمله إلى البحر، حتى إذا تجاوز المرفأ واقترب من البطرني، أسرعت خطاه كأنها على موعد مع الحديقة التي شرع الخريف يصوّحها أو كأنها تنشد فيها ملجأ، ولم تكن الساعة قد بلغت العاشرة.

تحت الظل الغامر للخرنوبة العملاقة، وفي زاوية الكازينو، انخلع حذاء يزن وجورباه، وابتردت قدماه برطوبة الرمل، فأخذتا تعاتبانه وتغوصان فيه. ثم أسند ظهره إلى جدار الزاوية، وغرقت عيناه في المدى البحري الذي التبس صفاء زرقته ببقع خضراء داكنة. ولما بلغت العينان الأفق الذي تكاد الرطوبة تضيعه، خاف من أن يضيعه الزمان، فأسرع إلى ما لم يزل حياً في أعماقه من أشلاء السنين والشهور والأسابيع والساعات والقرون والدهور واللحظات، وأخذ يبريها جميعاً كيلا يفتّ فيها الصدأ أو يأكلها ويأتي عليها النسيان. ولم يكد

يبدأ البري حتى تضاعف عليه الحزن والحنين، ولكن ماذا بوسعه أن يفعل ما دام ما من تجرعهما بدٌ؟

هكذا أومأت دار المعلمات في اللاذقية لدار المعلمين في حلب، فانفتحت بوابتها الحديدية أيضاً، ولكن على شارع طويل ونحيل، معبدٍ بالأحجار الصغيرة السوداء، ومحفوفٍ بالسرو الذي أمعن في السماء كيلا تدركه نظرات المدرس الجديد الشاب الذي حسب لوهلة أنه يتبختر في حديقة السبيل أو في الحديقة العامة، وذراع صفا تتأبط ذراعه. لكن الحجر الأبيض الذي لفحه العتق ولفحته الشمس أيقظ يزن من شروده. وعندما تلقفه البهو الفسيح ذو السقف العالي، أحس بالمهابة. ومن غرفة المدير إلى غرفة المدرسين إلى قاعات التدريس، ستتضاعف المهابة في اليوم الأول، مذكّرةً باليوم الأول للمدرس الشاب الجديد في أي من ثانويات حلب، سنة بعد سنة، وهو، يزن عمران الذي حلا له أن يربي شاربين أشقرين صغيرين منذ صدر القرار بتعيينه مدرساً للغة العربية في حلب، يمتلئ بما تمتلئ به أية ثانوية، وكما تمتلئ به دار المعلمين أو البيت أو مقهى القصر أو المقهى السياحي أو مطعم العندليب أو... أي شلو من الأشلاء التي تندغم الآن لتنبعث حيةً وغير عابئة ببداية ولا بسيرورة ولا بمآل.

يا من لعبت به الشمول

ما ألطف هذه الشمائل.

وبعد قليل من الغربة، وبعد أقل من الزمن، أحكمت دار المعلمين الوثاق بين يزن وبين هذا الموجه الكهل الشيوعي أبو فرج تيمناً بفرج الله الحلو القادم من قرية الفوعة بفضله تعرف يزن على حيّ صلاح الدين، وبات يعلم أن في ريف إدلب قرى شيعية وعلوية وغير العابئ بانقسام الحزب الشيوعي، والناقم على الانقسام، والعازم على أن يتعامل مع المنقسمين كأنهم ما زالوا موحدين، ومع الانقسام كأنه لم يكن.

والوثاق أحكمته الدار مع هذا الطالب الكردي خضر عبد الحكيم: بفضله تعرف يزن على باب الحديد، بفضله بات يزن يعلم أن بين الأكراد علويين، أو على الأقل شيعة. أما الأستاذ صهيب عبد المنّان الذي يدرس التربية الدينية، فقد حلّ في نفس يزن محل واصف: أخاً أكبر تزينه ذقنه القصيرة المموجة المحناة، وصلعة مبكرة، وكرش مبكرة أيضاً، وإن تكن لا تزال صغيرة. وسوف يكون لِما تكشف من الأستاذ صهيب أثره الكبير والموجع في قرار يزن بطلب الانتقال بالأحرى: العودة إلى اللاذقية.

كان أنور السادات قد زار القدس منذ حين. لكن يزن مثل بيته ومن يملأونه ويملأنه، ومثل دار المعلمين ومن يملأونها

كان لا يزال مرجوجاً. وكانت الأمطار لا تكاد تتوقف، والرياح تضرب أقوى يوماً بعد يوم، حين حضر ابن فتكة إلى بيت يزن بدون موعد، وبدون غيثاء. وبعد أن اطمأنت جلسته، وسأل عن صفا وعمرو أين كانا؟ أخرج علبة السجائر المربعة، وتناول منها واحدة أول سيجارة أنترناسونال كنتْ ناعمة في العالم باغت يزن بالسؤال عن الأستاذ صهيب عبد المنان، فكتم يزن استغرابه وقال:

- لم يحضر منذ أيام. أظنه في إجازة أو مريض.

ابتسم ابن فتكة مشفقاً، وقال وهو يتنعّم بملمس علبة السجائر وبملمس السيجارة:

- زميلك هارب، ملاحق، مطلوب، زميلك يقود واحدة من مجموعات الاغتيال، مختصة بكم، بالتربية والجامعة وبالمثقفين. داهمنا الوكر الذي كان يختبئ فيه في حارة الهلّك، لكنه لم يكن هناك. عثرنا في الوكر على قائمة المستهدفين، قائمة المطلوب اغتيالهم، والأستاذ يزن عمران بينهم. أنت في عش الدبابير يا أستاذ يزن. صحيح أن الشيوعيين والمعارضين اليساريين لنا أقوياء في دار المعلمين، لكن الإخوان المسلمين هم الأقوى. انتبه يا أستاذ، انتبه يا جار. أنا لا أريد أن أخيفك، ولكن أنت في خطر. نحن كلنا في خطر.

كان ابن فتكة يتكلم ونظرات يزن تكذبه. ولما سكت انحرفت

نظرات يزن إلى الصورة الورقية الصغيرة لجيفارا، والملصقة على ظهر الباب المقابل، وتحتها خط رياض الصالح الحسين سطراً، وتحت سطر رياض خط حامد بدر خان سطراً. وبينما كان ابن فتكة ينتظر، كان وكد يزن قد تركز فقط في أن يتذكر السطرين أسفل الصورة، ما دام غير قادر على أن يقرأهما من مطرحه. وفجأة التجأت نظراته إلى ابن فتكة مستجيرة. ولما حدّث صفا بما حدثه به ابن فتكة، قدرت أن اللاذقية أكبر أماناً لماذا يا صفا؟ فعجّل في الانتقال إليها مخلفاً اللوم والاعتراض والحزن.

ولأن الندم يلوي به الآن، فالرطوبة تزيد الأفق ضياعاً، والمدى البحري يروم أن يتشكل لوحة فلوحة، فيزين له يزن أن يفعل، ويتقدمه إلى مرسم لؤي كيالي، وينتظران إلى أن ينهض لؤي من موته، فتتوهج زهرة في لوحة، ويتقد وجه في لوحة، وتسمق مئذنة في لوحة، ثم تغنج الألوان من لوحة إلى لوحة: هذه لصبي يبيع الكعكة، وهذه لشاب يبيع الجوارب، وهذه لكهل يبيع أوراق اليانصيب، وهذه شابة في عمر صفا، لكنها حامل. والآن سوف تتشكل في لوحةٍ هاتان المجموعتان من النساء اللواتي زيّن الحزن وجوههن، ووقف بين المجموعتين من ليس له شبيه إلا يزن الآن، لولا أن رأس الرجل منحن، ويديه مسبلتان على جانبيه مثل أيدي النساء.

املالي الأقداح صرفاً

واسقينها حتى الصباح

لن ينسى يزن أبداً الطفل الذي طوّق أمه على يسار اللوحة، وهو يرمقها في الأعالي مرعوباً. ولن ينسى يزن الأم التي غطت رأسها وجادت بفيض صدرها الريان. وكما ضاق صدر يزن بالدخان الذي خنق لؤي كيالي في الليلة الشتوية التي فجّر صقيعها مواسير المياه، يضيق صدره الآن، حتى ليكاد أن يختنق لولا أن الأشلاء أسرعت إليه، فحملته من مرسم لؤي كيالي إلى مرسم سعد يكن الذي لم يلتفت إلى يزن، بل ظل متوحداً بغليونه وشاربيه وأصابعه اللائبة في الفراغ، فانصرف يزن عنه إلى لوحة فلوحة، ليتوه بين مقهى وكراسٍ وحزام يقيده وحده على كرسي نصف مخلوع ونصف مقلوب. وإذْ يقذفه المقهى في هذا الفضاء الموحش، يصير هو المغني الذي يدير ظهره إلى الجوقة التي تدير ظهرها له، حتى ترميه اللوحة برّة برّة يا يزن، لتصير في غيرها عيناً فاغرة، وقدماً تضاهي الساق طولاً، ووجهاً مشطوراً على الأقل إلى شطرين، قل: هو وجه من أنف فقط. وبعد أن يطول ويضيق مقامك في اللوحة، لن يكون لك إلا أن تناشد سعداً أن يحررك منها. عندئذٍ سيعب سعد من غليونه، ويمسد شاربيه، وينعم عليك بضحكته الفريدة، فتتحرر، وتقعي على الأرض المبقعة،

وتتأمل الوجوه الثلاثة التي كان سعد يشكلها من جديد في هذا الضحى.

للوهلة الأولى يحسب يزن أن هذه الوجوه هي عينها التي تشكلت ذات ضحى في لوحة ستضيعها صفا. ومن جديد يضيق صدر يزن بالدخان الذي خنق لؤي كيالي، فخاف على سعد، لكن سعداً أمعن في اللوحة وفي تجاهل يزن.

طيب يا سعد.

أنا أيضاً سأنصب لوحتي في هذا الرمل.

ستكون أكبر من لوحتك. ستكون أكثر بياضاً وأكبر جوعاً إلى أي لون، وإلى أي خط، وإلى أية سكّين، وإلى أية ريشة، وإلى أي إصبع. ستكون حرة، بلا أي بسبسة أو لوكنة، فليس أمكر ولا أمقت من أداة الاستدراك الفصيحة: (لكن) ومن لغم شقيقتها العامية: (بس).

سأبدأ بوجه فواز الساجر وفطمة: وجهٌ شركسي وضيء، رمى خشونته وازدهى بحاجبين رقيقين وشاربين ناحلين، ووجهٌ له من لغز البياض نصيب ومن لغز السمرة نصيب، يزدهي بظلام الشعر ودقة الحاجبين والذقن، وبغموض الوجنتين والشفتين. وسيبدو وجه المخرج المسرحي العائد لتوّه من موسكو، مفتوناً بوجه طالبة الطب القادمة من جورة الشياح الحمصية. ومثل رياض الصالح الحسين وزهراء، سيكون مخدع فواز وفطمة

في برلمان الشباب، كما سمّى محمد جمال باروت بيتي الذي سيظل بيتي، على الرغم من أنني بعته، وربما باعه من اشتراه لآخر، وليس لي إذاً أن أعرف من يسكنه الآن. لذلك ستعيده لوحة إلى ذلك الزمن المرتجّ الذي سيظل يرجّ اللوحة حتى تبرأ من المعلوم والمجهول من المخبرين بين المدرسين والطلاب في دار المعلمين، أو في أي من الثانويات، كما تبرأ اللوحة من المعلوم والمجهول من المخبرين والمخبرات في دار المعلمات التي لفظتني للتوّ كما تُلفظ نواة حبة التمر أو حبة المشمش.

يا غصن نقا مكللاً بالذهب

أفديك من الردى بأمي و أبي

في ارتجاج الزمن وفي رجّاته يشق الهتاف سماء دار المعلمين ودار المعلمات والثانويات: قائدنا إلى الأبد، فأحبس السؤال عن أي أبد يهتفون، بينما تتحرى اللوحة كتائب الطلاب والطالبات وسرايا المدرسين والمدرسات كي تتبيّن، على الأقل، من هو من اتحاد شبيبة الثورة ومن هو من اتحاد الشباب الديمقراطي الذي تشقق لا بد كما تشقق أبوه وأمه، أي الحزب الشيوعي السوري. وسوف تسعى اللوحة عينها أو سواها كي تتبين المعارَضات السرية: أيها هو البعثي أو الناصري وأيها هو الإخواني أو الشيوعي؟ ولأن اللوحة أية لوحة، لا فرق لن تستطيع أن تتبين أحداً، فسوف أتركها تخبط على هواها، مثلما

خبطنا عشنا: هكذا وصف مصطفى الحلاج مرة حياتنا جميعاً، ثم انزوى في الشرفة المطلة على الجامع. وكالمحموم رسم جسداً مسجى ومن فوقه ذئب، وجعل في زقاق ذئباً أكبر، كما جعل ملء نافذة أفعى قد قذفت لسانها. وفي النافذة المقابلة، وبالخطوط الوحشية السوداء عينها، تعرى نصف ظهر امرأة فنازلاً حتى كعبي قدميها.

كانت الشعيرات النزرة الحادة الطويلة من ذقن مصطفى قد صارت لعبة عمرو المفضلة، زيارة بعد زيارة، كلما اشتاق مصطفى إلى حلب، أي كلما سئم من دمشق. ومن زيارة إلى زيارة، في الشهور الأخيرة التي سبقت انتقال يزن وصفا إلى اللاذقية، صار مصطفى ينفرد في نهاية السهرة في زاوية أو غرفة أو شرفة، يخطط ويكتب بالأسود اللين على الأوراق السمراء التي سيذروها هو وعمرو في الصباح، بعد أن يكون قد تبارى مع من يصادف حضوره أو حضورها في نثار الكلام، فإذا برشقات الرصاص توحّد حلب والشام واللاذقية وحماة وحمص على الأقل كما توحّد الليل والنهار، وهي تقترب وتبتعد وتتواصل وتتقطع، بينما بالكاد يُسمع صوت للمظاهرات، وإذا بالحرب الأهلية اللبنانية تضطرم، والثلوج تكلل الجبال من الحرمون والقلمون إلى الأقرع والشعرا. أما فواز الساجر فسوف ينتهي من إخراج المسرحية التي ستلعب

فيها فطمة دوراً فصّله على قدها، بينما تهاتف شفق شقيقها الأستاذ في دار المعلمين وصاحب الرأي السديد: هل ألتحق بالدورة التي سينظمها اتحاد شبيبة الثورة للقفز بالمظلات؟ لو فعلت يا أخي فسوف تضاف إلى علاماتي في البكالوريا ثلاثون أو أربعون علامة، وسوف أتمكن من الدخول إلى الكلية التي أريد، وشفق لا تريد إلا المعهد العالي للفنون المسرحية حيث التخصص الوحيد: التمثيل، فأبشر يا فواز.

يا وحيد الغيد يا فريد عصرك

و النبي يازين لا تطل هجرك

في نثار الكلام، وفي نثار الأوراق السمراء، أيضاً، ما أخذ الآخرون والأخريات يزوّدون ويزوّدن به مصطفى وعمرو: بورتريه أبيض وأسود، بحجم الكف، لنائلة الأطرش لقطة من فيلم محمد ملص (القنيطرة) على مكتب يزن هو طاولة صغيرة، وليس مكتباً وحيث لا صورة لأحد، عرض من سجائر جولدن توينتي: قدمْ ست باكيتات فارغة مقابل ثلاث بطاقات بلكون في سينما الكندي أو سينما فؤاد أو سينما أوغاريت، لكن يزن لا يدخن، وصفا لا تدخن، لذلك سينتسبان غداً إلى النادي السينمائي، وسيشاهدان فيلماً بلا اسم لكن جاك بريفير هو من كتب السيناريو سيترجمه من الفرنسيةالمخرج سمير ذكري ترجمة فورية. وسيكتفي يزن من عروض النادي

بفيلم بازوليني (ألف ليلة وليلة) وبفيلم روسلليني (روما مدينة مفتوحة) صفا ستتابع لأن عليه أن يسعى في مواعيد العروض بالضبط خلف علبة حليب نيدو كبيرة ليست حليب نستلة، ولا صغيرة: انتبه مهربة من الحدود اللبنانية إلى الرصيف المقابل لأوتيل بارون، كي يشتريها مع علبة محارم ورقية مهربة أيضاً، وربما مع كيلو موز مهرب أيضاً، وليس كل ذلك كرمى لصحة عمرو ونظافة يديه فقط، بل لأن سورية يا حبيبتي أعدت لي كرامتي، كما يغني محمد سلمان زوج نجاح سلام فارغة تماماً، لولا نعمة التهريب من قلب بيروت إلى قلب حلب.

هذا لعب، وليس بالتهريب. التهريب هو الشاحنات المدججة بالغسالات والبرادات والتلفزيونات والذخيرة أي القنابل والرصاص والقواذف والبنادق والمسدسات و.. والحشيش: هكذا يقول فواز الساجر، أو يكتب رياض الصالح الحسين، فيقطع مصطفى الحلاج الكلام والكتابة بما يحمل من دمشق: شباب وشابات منظمة العمل الشيوعي يحتلون أوتيل سمير أميس، سرايا الدفاع تحاصر الأوتيل، وقد تكون الوحدات الخاصة، وقد تقتحمان معاً الأوتيل أو تقتلان أو تعتقلان من أولاء الشباب وأولاء الشابات لتحل محلهما محكمة وحكم

بالاعدام، ومن ينفذ الحكم على إيقاع الأغنية التي سيغنيها شبان آخرون وشابات أخريات للثورة المغدورة، وللثورة القادمة، وللثورة المستحيلة، وللثورة المهزومة، وللثورة الغريرة.

من ذلك النثار الشفوي أو المكتوب تتخافت هتفة يزن في دار المعلمين: يسعدني أن أكون عضواً في لجنة توحيد أساليب الإشراف التربوي بين القطرين الشقيقين سورية والعراق، كما يسعدني أن أكون في استقبال وزير التربية العراقي عضو مجلس قيادة الثورة ولكن من هو؟ وذلك في تمام الساعة العاشرة في قاعة المحاضرات في المركز الثقافي العربي، وبتشريفكم يتم سرورنا عيوني.

لكن عرس الوحدة السورية العراقية ينقصم ظهره قبل أن تدرك شهرزاد الصباح أو يدركها. وقبل ذلك أو بعده فالزمن ليس مهماً، بفضل النسيان كان عيد السابع من نيسان، أي عيد تأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي قد التهم عيد الجلاء وفي جعبته عيد الرابع في السابع عشر من نيسان، كما التهم عيد تأسيس المملكة السورية وعيد المرأة في الثامن من آذار، وكما التهم عيد الحركة التصحيحية عيد تأسيس الحزب السوري القومي الاجتماعي في السادس عشر من تشرين الثاني.

ملأ الكاسات وسقاني

نحيل الخصر والقد

صديقي يا مصطفى الحلاج: دعك من هذا النثار بالضبط: الخرف وتعال إلى أي بهو من أبهاء الجامعة، خلّنا في بهو كلية الآداب، كي يتسنّى لزهراء نعم زهراء رياض الصالح الحسين أن تدس في جيبك نسخة من بيان التجمع الشبابي الحر، ثم الحق بي إلى مقهى السلطان أو مقهى الموعد، لا لا، دعك من المقاهي، تعال إلى مطعم كيليكيا، فهذا أقرب إلى البيت، وخلّنا نستمع إلى من يحكون حكايات السيارات المحروقة: هذه لمدير المالية وهذه لمدير الأوقاف، وهذه لمدير التموين، وهذه لمدير المطار، وهذه لك، وهذه لي، على الرغم من أننا لسنا مدراء وليس لدى واحدنا سيارة.

تعال يا صديقي لنتفرج مع صفا على برنامج ستديو الفن، فأنا وهي وحيدان الليلة، على غير العادة. وصفا كما تعلم مولعة بالتلفزيون اللبناني. ومنذ أهلّت هذه الشابة الساحرة في هذا البرنامج، تعلقتُ بها مثل صفا: ماجدة الرومي يا حلاج. اسمع: يا طيور، وترحّمْ على أسمهان. ترحّمْ على القصبجي. ترحّم على الوحدة السورية العراقية التي أعلن التلفزيون اللبناني وفاتها، قبل أن يقدم ماجدة. محرم على

العراق وسورية يا حلاج أن يتوحدا. ليس أكبر حقداً من شقٍ من حزبٍ على شق، كما عليك أن تتعلم من تشققِ حزب البعث أو من تشققِ الحزب الشيوعي. صدقني لم أكن أصدق عيقيّ عندما كنت أرى الكتب العراقية والمجلات العراقية تملأ واجهة مكتبة الشرق. ممنوع يا صديقي ممنوع. لا اتحاد ولا وحدة ولا حتى كلمة مرحبا. ليتك ترسم خطين متوازيين، وحشيين وليّنين، يكذبان الرياضيات ويلتقيان كي يلتقي البعثان فيلتقي القطران الشقيقان، فبأي آلاء ربكما تكذبان؟

وقبل ذلك أو بعده أيضاً فالزمن ليس مهماً، بفضل النسيان يبدأ يزن وصفا أين هو عمرو؟ بوداع حلب سيراً على الأقدام: صباحاً مثلاً بالجديدة حتى نفطر من عند عمك أبو عبدو الفوال ثم نتوه في الأزقة المسدودة والشوارع الملتوية من بوابة الياسمين وبوابة السيسي إلى دار أجقباش ودار الوكيل، ومن ساحة الحطب أين أكوام الحطب وأين من يبيعه؟ إلى أي محل لبيع الصوف كي تشتري صفا ما ستنسج به كنزة لعمرو، أو أي محل لبيع المعاطف النسائية هنا ستتفرج صفا، ولن تشتري إلى أي محل لبيع الحقائب النسائية من هنا اشترت صفا مرة إلى جامع شرف، لا لنصلي، بل لنتابع إلى سوق التلل. ولكن صفا تؤثر أن نتابع التيه من الجديد إلى السبع بحرات،

حيث نتجنب المسجد العمري، فالوقت ليس وقت صلاة، ونعبر ببحسيتا حتى نعود إلى باب الفرج. ولكن لماذا لا نبدأ في أي وقت، وليس في الصباح، ولتكن البداية مثلاً بالمكتبة الوطنية، أو بالهيئة العامة لحلج وتسويق الأقطان، أو لتكن البداية بقسطل الحرامي أو بباب جنين، ثم نخبط في سوق المدينة، ثم نخبط في أحضان السيدة الجميلة كما سمى وليد إخلاصي القلعة، ولندع الأقدام تخبط كيف تشاء، كيلا يكون ثمة فرق بين ليل ونهار، ولا بين برد وحرّ، ولا بين عبّارة وعبّارة، ولا بين خان وخان، ولا بين قويق جاف ومنتن وقويق سلسبيل، وليس لذلك فقط، بل أيضاً كي تنتشر المدرعات من الكرة الأرضية إلى أول المحافظة، ولكي تطوق الدبابات الجامعة، وتفتش طالباتُ اللجنة الأمنية الطالبات عند الأبواب، فتحتج فطمة وتحتج زهراء وهما سافرتان أسوةً بمن احتججن من المحجبات.

ولكن هيهات، هيهات يا حلاج لراحة البال أن تعود، فسوق المدينة كان الإضراب قد أغلقه، مثلما أغلق التهديد بالحرق أخيراً مطعم العندليب، فتبدد شمل الأصحاب. ولذلك تضاعف عدد من يملأون نهارات بيت صفا ويزن وليس مساءاته فقط، قبل أن يهربا إلى اللاذقية.

يا صاح الصبر وهى مني
وشقيق الروح نأى عني

وأنت إذاً أيها المتكئ على جدار الكازينو، اللابد في ظل الخرنوبة العملاقة، المقعي على الرمل الرطب مثل الكلب، أنت إذاً في اللاذقية التي بدأت تلفظك كما لفظتك حلب قبلها، فلماذا لا تلبس جوربيك، وتنتعل حذاءك، وتنهض، وتضرب قفاك ضرباً مبرحاً حتى لا تبقى ذرة رمل واحدة عالقة بك، ثم تلوح لأشلاء الزمن التي صارت أخيلة متناقضة، ومرتبكة، وقاسية. ولكن إلى أين ستمضي بعدما أخذت رشقات الرصاص تقترب وتتواصل، وربما كانت هنا إلى يمينك، في المرفأ، أو في امتداد الشارع أمامك إلى القلعة، بل ربما كانت هنا إلى يسارك في نادي الضباط، فماذا بقي لك إلا هذا البحر الذي أدرت له ظهرك؟

لمسة الكعكة قد تُضحِك وقد تُبكي

للمرة الأولى، منذ اكتُشِف اختفاء واصف، تقرر رمزية الخروج عن طريقها اليومي من وإلى مديرية الصحة، عبوراً بالروضة بين يوم وآخر، وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة.

كانت قد قضت الأيام الفائتة متأرجحة بين الحرد من يزن والخوف عليه، فقد اختفى هو الآخر. لم يعد يخبر عن واصف، ولم يتصل، كأنه يئس من العثور على أخيه، بل كأنه تخلى عن أخيه. ولم يزدها صمت أبيها إلا يأساً من الجميع. ولعلها لذلك قررت الخروج، عازمة على أن تتولى البحث عن واصف بنفسها، ابتداءً من هذا الشارع الذي كان يتغنى باسمه العتيق: شارع الألف عمود.

ها هنا تسمع الآن صوت واصف كانت تربض يا رمزية: ربة الحكمة والحب والحرب، ربة أثينا، تاج من الحجر الرملي، وعلى ناحية منه سيدتي الجميلة الجليلة التي اعتمرت الخوذة، وفوق الخوذة زوج من القرون، شعرها منسدل على الخدين كضفائر مجدولة، ولثوبها فتحة واسعة على الصدر، حول نحرها قلادة، وعلى القلادة نقش الصورة التي ستطرد أية روح شريرة تقترب. لماذا نقلوها من الشارع؟

بالفرجة على أبـواب المحلات والمقاهي والمطاعم المفتوحة والمغلقة اليوم عيد الفاتح من سبتمبر، عيد معمر القذافي، عطلة رسمية، ولكن لا شأن للسوق بها وبالفرجة على وجوه القلة من العابرين، والأقل من العابرات، وعلى إعلانات الفنادق والأطباء والمحامين والصيدليات وأفلام السينما، قضت رمزية ساعتها الأولى، بين الفرحة على ما ترى بعد غيبة طويلة أو إن الإحساس بطولها تضاعف الآن وبين الأسى على ما بدا من انكماش المدينة وحذرها، بل وخوفها.

في شارع هنانو وقفت أمام مكتبة عريف: هنا كان واصف يقف بين يوم وآخر، يتصفح أسماء المجلات و«مانشيتات» الصحف المعروضة، ثم يشتري، قبل أن تفتح صفا مكتبتها ومثله تفعل رمزية الآن، سوى أنها لا تشتري، ليس لأنها ستتابع إلى مكتبة صفا، بل ربما لأن البائع ابتسم لها، أو ربما لأنها قدرت أنها أول امرأة تقف أمام المكتبة مثل أي رجل عابر. وعندما بلغت تقاطع شارع هنانو مع شارع المالكي، لم تنعطف يساراً لتصعد إلى القلعة، حيث أربع وخمسون درجة تفصل عن البيت الذي هجرته وثريا من بعد ما اعتزل واصف الناس في الشاليه.

الشاليه؟

أخذت الشاليه تنادي رمزية خطوة خطوة، بعدما تابعت السير إلى ساحة أوغاريت، ومن الساحة التي خفت صخبها وتراجعت فيها رائحة السمك، إلى مدرسة أبي تمام أو جامع البازار أو سوق المقبي أو الثانوية الشرعية أو حمام السوق أو أية قبة من القباب أو أية قنطرة من القناطر، سوف يتواصل نداء الشاليه ويعلو، حتى يغدو طنيناً لا مفر منه إلا بركوب «التاكسي» إلى أوغاريت.

ما كادت تغادر التاكسي حتى أخذ الطنين يفارق، وأخذ رأسها يصفو وأنفاسها تهدأ كلما اقتربت من الشاليه وتغمّست نظراتها في البحر الذي سرّه قدومها، فراح يمد مويجاته أبعد، وأقل زبداً، وأجمل رقصاً.

على حافة الجدار الخفيض الذي يسور «الفراندة»، جلست ميامنةً البحر، ومقبلة على بيت أبو زيزفونة. وفكرت في أن عليها أن تنظر بعين جديدة إلى كل شيء، بعدما يعود واصف: لن تظل هاجرة ومهجورة في بيت أبيها. ستعود رمزية إلى بيتها الذي أورثها إياه، فصار بيت واصف أيضاً. ستبدد الجفاء الذي تمكن وتطاول بينها وبين واصف. لن تطرب، بعد أن يظهر واصف، لأية نظرة غَزِلة. وكما بات ما بينها وبين يزن نوعاً رائقاً من الصداقة، بل والأخوة، ستجعل ما بينها وبين

الآخرين. سوف تبحث عما ضيعت من نفسها، وسوف تجده، حتى لو ظل واصف على ما هو عليه. وربما كانت ستواصل التفصيل فيما ترسم لما سيأتي، لولا أن أم زيزفونة اكتشفتها، فأسرعت إليها. وقبل أن تصل هللت مرحبة، ثم عانقتها، وقبلت خديها، وأمسكت بكفيها وهي تغالبها الدمعة، ثم تهدج صوتها بالسؤال عن الأستاذ واصف، فهمست رمزية:

– ولا خبر يا أم زيزفونة. وأنت، خبريني: إن شاء الله رجع أبو زيزفونة؟

– لا والله يا حسرة، لا رجع ولا ظهر له أثر.

قالت أم زيزفونة بصوت باك، وناولت رمزية مفتاح الشاليه، فأسرعت إلى الباب الذي لم يفتح منذ خطفت المخابرات الرجال: قالت أم زيزفونة، فتساءلت رمزية وهي تدخل إلى الشاليه:

– خطفوهم؟

– طبعاً خطفوهم.

قالت أم زيزفونة وهي تسرع إلى فتح النافذة، وهمهمت رمزية مستحسنة، وفكرت في أن هذه المرأة ليست جاهلة، ولا بسيطة، كما توحي هيئتها أو سكناها. ودارت حول نفسها وهي تتأمل السرير والخزانة والصغيرة وحافظة القرآن

المطرزة وعلاقة الثياب والرفوف والطاولة والغاز والصحون والعلب التي لا بد أنها للسكر والملح والقهوة والشاي، وللفليفلة الحمراء التي تطيب لواصف، بينما كانت تنفر هي منها، بالأحرى: تصطنع النفور منها، لذلك تعد واصف الآن بألا تغيبها عن غداء ولا عن عشاء.

ولأنها كانت ساهمة، فاتها أن أم زيزفونة قد خرجت، ونادت زيزفونة، وأخذت تدلق الماء على البلاط.

على بلل الماء لقدميها، استيقظت رمزية فعانقت زيزفونة، ووحوحت، وضحكت، واندفعت تسابق أم زيزفونة وزيزفونة في غسل البلاط والجدران والباب والنافذة والتواليت والشرفة، حتى بللها العرق، وغلبت رائحة النظافة رائحة البحر التي شرعت النسائم تلفح الشاليه بها. عندئذٍ أسرعت أم زيزفونة بفستان مزوّق وقصير وعاري الذراعين، وهمست مغالبةً الحياء والحزن:

- والله ما رآه عليّ أبو زيزفونة إلا مرة واحدة. خذي يا أختي بدلي ثيابك.

بالصلاة على النبي والضحك استُقبلت رمزية العائدة من الدوش بالفستان المزوق. وكانت زيزفونة قد أعدت الشاي المعطر، وسرعان ما بدا كأن أم زيزفونة ورمزية صديقتان

قديمتان لم تلتقيا منذ شهور، لذلك أخذتا تتسابقان في البوح والذكريات والمودة، بينما ترقبهما زيزفونة بعينين حالمتين.

قالت رمزية إنها كانت مدلَّلة أبيها الذي كان ولا يزال يؤثرها على الجميع. كان ينكش لها من صندوق خشبي ومن أدراج ومن علبة كرتون لن تنساها لهولها، أعداداً قديمة من المجلات المصرية: المصور وروز اليوسف والهلال، ومن المجلات السورية التي احتجبت بعدما حكم حزب البعث في سورية: الاثنين والدنيا، وبخاصة: المضحك المبكي. وكما كان الأب الحنون والمتعلم والراقي لم تسبغ عليه الصفات الثلاث دفعة واحدة يدفعها إلى القراءة، كان يدفعها إلى الرياضة: لعبت بشد الحبل، لعبت «الهاندبول»، القفز العالي.

ولم تكد رمزية تصمت لتبلع ريقها حتى قالت زيزفونة بأسى:

– وأنا حرمني أبي من المدرسة.

فأسرعت أم زيزفونة بالقول كيلا ينغص على الجلسة أمر:

– احمدي الله يا بنتي أنك وصلت إلى الصف السادس. أنا يا حسرة عشت لا أفك الحرف. بالكاد أحفظ الفاتحة وكم آية للصلاة. عشت يا حسرة يتيمة الأب. مات وأنا ما زلت رضيعة ولكن الله عوضني بأبو زيزفونة عن الأب والأم والأخ. الله

عوضني به عن الدنيا كلها.

كان صوتها يزداد شجناً كلمةً كلمة. ولعل ذلك ما جعل رمزية تهمس متأثرة:

- احكي لي عنه.

فتبسمت، وتريثت حتى ضرّج الحنين والخجل صوتها كما ضرّجا وجنتيها، ثم قالت:

- مساء يومنا الأول تحضّر للصيد. وسهرنا حتى حل موعده مع رفاقه، نصف الليل وقبل أن يتوكل على الله ويتيسر صرخ بي وشتم. أعوذ بالله من شر الشيطان الرجيم. لا سبب ولا مسبب. جلست أبكي وأندب حظي: إذا كان هذا هو يومك الأول يا مسكينة! بعدما رجع بالسلامة وضع يده على كتفي وسألني: زعلت؟ تظاهرت بأني لا أعرف عما يسأل، فضحك وقال: ما علمتك أمك أن الأفضل للواحد منا أن يشاجر زوجته عند ذهابه للصيد، حتى يرزقه الله ويكثر صيده يا غشيمة؟ لو تعرفين يا أختي يا رمزية بماذا كان أبو زيزفونة يسمي السمك؟

- الدكتور سمك.

أسرعت زيزفونة ضاحكة، فرنت أمها بعيداً، وكان سرب صغير من النوارس يحوم خفيضاً وقريباً، فقالت:

- اذا حوّم النورس فوق البيت أو حول الشباك فأبو زيزفونة، لا سمح الله، في خطر. الصياد يكون في خطر. هو علمني أكثر مما علمتني أمي. هل تصدقين أن روح الطير قد تكون من روح صياد غريق أو بحّار غريق؟ لهذا صيد النوارس نحس يا أختي. أمي كانت تقول: إذا سمعت زوجة الصياد الماء ينقط قرب سريرها، فهذا يعني أن زوجها في رحمة الله، غرق، يا لطف الله.

وفجأة التفتت إلى ابنتها، وأمرتها أن تتفقد إخوتها، ثم دنت من رمزية، وهمست مغالبةً خجلها وحابسةً ابتسامتها:

- لا أظنك تعرفين ما تعني الكعكة للواحدة منا، نساء الصيادين.

- اشرحي لي.

قالت رمزية متشوقة، فتابعت أم زيزفونة:

- كان الله سبحانه وتعالى رزقنا بزيزفونة. وبعد الأربعين بيوم أو يومين سألني أبو زيزفونة كيف يمكن أن تنزل البركة بالصيد، وتجعل السمك ماشاء الله؟ كان الوقت شروق الشمس، وكنا لا نزال في السرير. من أين لي أن أعرف يا حسرة؟ ما خطر لي إلا أن أمي مقصّرة، وإلا لعلمتني. هوب، وإلا كف أبو زيزفونة كأنها نزلت من السقف وراحت تمسح، مرة، مرتين، وأنا أشهق من الخوف ومن الخجل، وهو يضحك ويقول: مسحة

الكعكة تجلب البركة يا غشيمة.

أطلقت رمزية آهـه حرّى وحيرى بين الدهشة والشهوة، وأعقبتها بضحكة عالية وطويلة، وجارتها أم زيزفونة بضحكة خافتة ومتقطعة وخائفة، ونهضت رمزية أوفر عافية منها عندما حضرت، وواعدت أم زيزفونة بالعودة مع ثريا، وسكتت فجأة، فحشرجت أم زيزفونة:

- إن شاء الله يكون الأستاذ معك، ويستقبلكم أبو زيزفونة.

وتعانقت المرأتان، وارتمى على كل كتف رأس، كي تحبس العيون دمعاتها.

الحرية والكرامة شعار يصلح اليوم كما كان يصلح قبل عشرين سنة، أو كما يصلح بعد عشرين، بل بعد مائة وعشرين

كالبشرى جاء الموعد الذي ضربه هاتف فواز الساجر من دمشق: هذا المساء حوالي السادسة. لذلك حضرت شفق في الخامسة، وعانقت يزن قائلة بتباهٍ:

- أستاذي طلب مني أن أسبقه.

ثم عانقت صفا، وتابعت كأنها تلقي بمفاجأة:

- دعوت هزار وهايك وانشراح، وقد يحضر أبو تمام بنفسه.

- أبو تمام؟

قال يزن مبهوتاً، وربما أضمر الاستنكار. وقالت صفا:

- البيت بيتك. ادعي من تشائين.

ونظر يزن إليها لائماً: متى عدت من الشام؟ صرت تأتين وتذهبين ولا تتكرمين حتى «بألو». وكانت شفق تدير رأسها أمام صفا يمنةً ويسرةً متباهية بقصّة شعرها الجديدة. ولما استدارت التقت بنظرات يزن التي انقلبت حناناً وإعجاباً، فصاح بها:

- يا لئيمة اشتقت لك.

بين القلق على واصف، ومن نقل يزن من دار المعلمات، وبين يوميات شفق الدمشقية المنقوعة بالسياسة أي بالقلق مضى الوقت قبل أن يهل فواز والآخرون.

وفيما لا ينتهي من الأشواق والذكريات، غرق فواز وصفا ويزن أمام دهشة الآخرين. وربما كان ذلك سيطول بهم لولا أن هايك قاطعهم بسؤال الأستاذ فواز عن أحوال الشام في هذه الأيام. وسرعان ما اختلطت أصواتهم، كأنهم جميعاً قدموا من الشام، وليس فواز منذ ساعتين، ولا شفق منذ يومين، فإذا بلافتات علقت منذ عيد السادس من تشرين الأول تُمزَّق، ومرايا سيارات أمنية عديدة تهشّم، وإذا بحريق أتى منذ عيد العمال في أول الصيف على مؤسسة استهلاكية واحدة على الأقل في الحريقة: هل يمكن أن يكون أحد قد أخطأ، وأن يكون الحريق قد صادف عيد الخامس من حزيران؟

وبما أن الزمن غير مهم، إذ لا فرق بين البارحة وسنة مضت أو خمس، فلذلك يكون من أحوال الشام في هذه الأيام مثلاً عرضُ مسرحية سعد الله ونوس (الملك هو الملك) على مسرح الحمراء، الساعة الثامنة والنصف هذا المساء، والمخرج هو أسعد فضة. كما يكون من الأحوال أنْ بات بوسع من يشاء إذا شاءت جيوبه أن يسافر من دمشق إلى حلب بالطائرة، ولكن عبر القامشلي،

كما فعل فواز في آخر زيارة لأهله. ومن الأحوال أيضاً أن يُغتال مدير مشفى المجتهد لا أحد منهم يذكر اسمه يوم كذبة نيسان، أو أن يُغتال في يوم آخر من شهر آخر ليس له كذبة، الشيخ محمد الخطيب الإمام في الجامع الأموي، وأن يُغتال قبله عضو المكتب السياسي لحزب الوحدويين الاشتراكيين من يذكر اسمه وأن يُغتال بعده الشيخ محمد الشامي عندما كان مستغرقاً في الوعظ في جامع السلطانية، وأن يُغتال قبله أو بعده أستاذ في كلية الطب في جامعة دمشق، ضاع منهم اسمه، ولكن اغتياله ذكّرهم باغتيال الدكتور محمد الفاضل في أول العهد بالاغتيالات، قل في أول العهد بالمؤامرة، قل في أول العهد بالانتفاضة: بحسب ما سمّى كلٌّ منهم ومنهنّ، فعلا صوتٌ وحرد صوت، وخفت صوت، وتساءل هزار:

– لماذا تستهدف أغلب الاغتيالات أطباء ومحامين وأساتذة في الجامعة، ومنهم من ليس مع السلطة، أو على الأقل حيادي؟

فقالت انشراح:

– لماذا نسيت الضباط؟

قال هزار:

– لماذا يُغتال عقيد مثل عبد الكريم رزوق، قائد سلاح الصواريخ؟ من يستفيد من مثل هذا الاغتيال؟

قالت انشراح:

- لكنهم يغتالون أيضاً ضباطاً في المخابرات.

قال فواز:

- تبقى هذه الأسئلة ناقصة بدون السؤال عن السبب في أن أغلب الاغتيالات تستهدف من هم من الطائفة العلوية.

قال يزن:

- رحمة الله عليك يا عبد الرحمن هلال. رحمة الله على الشيخ يوسف صارم.

قالت صفا:

- لا أحد منكم يجهل الحجة الرائجة: الطائفة العلوية تمسك بالدفة، من القصر الجمهوري إلى سرايا الدفاع إلى الوحدات الخاصة إلى غيرها.

قالت شفق:

- ومن هذه الطائفة أيضاً كثيرون في السجون، مثلهم مثل غيرهم من المعارضين.

قال هايك:

- هذه الاغتيالات حماقة، جنون، فتنة طائفية ومذهبية لن تؤثر على السلطة.

قال فواز

- ليت الجميع ينتبه إلى ما تفعل الطائفية في لبنان.

قالت شفق:

- الأخطر من الاغتيالات الفردية هو الاغتيالات الجماعية. تفجير السيارات. مئة وثلاث وسبعون ضحية دفعة واحدة، عدا عن الجرحى، في الأزبكية، هذا هو الجنون.

وقال يزن:

- بالله عليكم انهوا لنا هذه المباراة.

فقهقهت انشراح إعجاباً بتشبيه ما هم فيه بالمباراة، وعلت أصواتهم، وقبل أن تتلاشى قهقهتها، مال يزن إلى فواز قائلاً:

- ما باركت لي.

قال فواز وقد تنبه الآخرون:

- مبروك، ولكن بماذا؟

قال يزن متكلفاً الابتسامة:

- نقلوني من دار المعلمات إلى ثانوية، واليوم كان يومي الأول.

قال فواز:

- ما قصّروا. حماية للطالبات وحرصاً على الأخلاق الحميدة، كان عليهم ألا يرسلوك إلى دار المعلمات، من البداية.

قال يزن مغالباً ضحك الآخرين:

- بدأوا بتنفيذ قرار تبعيث التعليم بي وبإلياس مرقص.

قال هايك ممازحاً:

- يعني خفضوا لك مرتبتك يا أستاذ.

قالت صفا مهونة:

- حبيبي يبقى النقل إلى ثانوية أهون من النقل إلى أية وزارة أخرى.

قال يزن بصوت حائر بين العتب واللوم:

- انتظرت أن تسأليني عن يومي الأول.

فرمقته صفا مشفقةً عليه وخائفة من أن ينفذ وعيده ذات يوم بالرحيل إلى بيروت، إن نقلوه من التعليم. وبينما كانت عيناها تحاجانه: ها هم قد أبقوا عليك في التعليم، والفرق ليس كبيراً بين دار المعلمات وأية ثانوية، تمتمت شفتاها:

- لم أسألك لأني رأيتك عدت مبتهجاً.

فعاد إلى فواز قائلاً:

- كلّفوني بتدريس طلاب البكالوريا. قل: كرموني بذلك. ولم أكن مستعداً، لكن حقيبتي فيها دوماً ذخيرة. أخرجت لطلاب الفرع الأدبي قصاصة، ولطلاب الفرع العلمي قصاصة. قرأت هذه وقرأت هذه، وأدرت مع الطلاب حواراً في القصاصتين، ثم طلبت منهم أن يكتبوا للدرس القادم صفحة على الأقل

في الفكرة الرئيسية وفي الأفكار الفرعية من كل قصاصة. وحياتك يا فواز أحسست أنني بدأت أتحدى من نقلوني من دار المعلمات، وأنني في معركة معهم. أقصد أنني بدأت أرد على قرارهم.

قال هزار:

- شوقتنا يا أستاذ يزن. أين حقيبتك؟

أسرعت صفا إلى الحقيبة، كأنها كانت تنتظر إشارة إلى ذلك. وصخب الآخرون مطالبين بالقصاصتين، ولم يهدأ صخبهم حتى ناول يزن لفواز قصاصة راجياً:

- اقرأ.

فناول فواز القصاصة لشفق قائلاً:

- الطالبة النجيبة والممثلة الموعودة هي من سيقرأ.

وقرأت شفق:

قال عبد الرحمن الكواكبي في كتابه (أم القرى) والذي نشره عام ١٩٠٠ في القاهرة:

«وعندي أن البلية فَقْدُنا الحرية، وما أدرانا ما الحرية.

هي ما حُرمنا معناه حتى نسيناه، وحُرِم علينا لفظه حتى استوحشناه.

وقد عرّف الحرية من عرّفها:

بأن يكون الإنسان مختاراً في قوله وفعله لا يعترضه مانع ظالم.

ومن فروع الحرية:

تساوي الحقوق

ومحاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء

وعدم الرهبة في المطالبة وبذل التضحية

ومنها:

حرية التعلم

وحرية الخطاب والمطبوعات

وحرية المباحثات العلمية

ومنها:

العدالة بأسرها حتى لا يخشى إنسان من ظالم أو غاصب أو غدار محتال

ومنها:

الأمن على الدين والأرواح

والأمن على الشرف والأعراض

والأمن على العلم واستثماره».

بعد الجملتين الأوليين أخذ أداء شفق يتبدل. ولما انتهت بدا عليها التأثر، وران الصمت ثواني قبل أن يهلل هزار لها، وللأستاذ يزن، وللكواكبي، فعاجله هايك:

– نسيت الحرية. المسكينة لم يهلل لها أحد.

وقال فواز:

– ربما مازالت صفا ومازال يزن يذكران ما كنت أردد في سهراتنا في حلب من قول الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه: لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حراً.

قالت صفا:

– كنت تقول: ما لزوم الحرية للإنسان بأقل من لزوم الروح للأبدان. نسيت لمن.

قال فواز:

– لأحمد لطفي السيد، وأظنه قالها من ستين أو سبعين سنة.

قالت انشراح:

– أين القصاصة الثانية؟

لوحت شفق بالقصاصة، واستأذنت أستاذها بنظرة، فابتسم، فقرأت:

قال محمد زكي عبد القادر:

«وما هي الكرامة؟ هل هي شيء آخر غير الحرية؟

وقال: الحرية والكرامة الإنسانية ليستا شيئين ينموان بنمو الإنسان، ولكنهما شيئان ولدا معه، وأحس بهما، وكافح من أجلهما، وأراق دمه في سبيلهما. قد يتطور مدلولهما ويتقدم ويتسع، وقد يأخذ أشكالاً متعددة، ولكنهما من حيث الجوهر باقيان خالدان»

قال يزن:

– هذا القول ليس قديماً. عمره عشرون سنة فقط، خصصت به طلاب الفرع الأدبي. أما قول الكواكبي فقد خصصت به طلاب الفرع العلمي.

قال فواز:

– الكرامة والحرية شعار يصلح اليوم كما كان صالحاً قبل عشرين سنة، وكما يصلح بعد عشرين أو بعد مائة وعشرين. ولكن إذا كان هذا كله في يومك الأول يزن أفندي، فماذا تخبئ لشهرك الثاني؟

– قلت لك: حقيبتي دائماً فيها ذخيرة. نسيت ولعي بالنقل مما أقرأ، حتى من جريدة؟

قال فواز:

– أذكر أنك كنت تنقل على دفتر. هات هاتين القصاصتين.

سأجد لهما مكاناً في مسرحية.

قالت شفق:

- كأنك تتحرش بهم يا أخي، وقد لا يكتفون في المرة القادمة بالنقل إلى ثانوية.

قال يزن:

- وهذا ما أنتظره.

ونهضت صفا كأنها تعترض. وأشارت إلى شفق فلحقت بها إلى المطبخ، ولما عادتا بكؤوس الشاي، كان أبو تمام يملأ الباب.

بعد السخرية، جاء من ينبش في الطائفية

حاول يزن أن يخفي الجفلة التي اعترته جراء ما تراءى له من حرارة ترحيب شفق بأبي تمام. وربما كان ذلك ما جعله يسرق من هزار نظرة، فَسُرَّ إذ رأى انكماشه للسبب نفسه: جزم يزن وهو يحاول أن يستعيد الهيئات التي رأى فيها أبو تمام: أين النظارات الرقيقة الملونة؟ وأين اللحية الفاحمة الغزيرة القصيرة؟ أين الشاربان الغليظان دون لحية؟ وأين طاقية الإخفاء التي لابد أن تكون هي ما يخفي هذا المطلوب الملاحق عن العيون التي تتعقبه منذ سنوات، وهو ينتقل من بيت يزن في حلب إلى بيت يزن في اللاذقية، على الأقل؟ ولكن ماذا لو أن زوجاً فقط من تلك العيون يتيقظ الآن، الآن فقط، ويقبض على هذا القائد في رابطة العمل الشيوعي القائد أم الرئيس؟ في بيتك يا أستاذ يزن عمران؟

هرب يزن من السؤال إلى صفا، فالتقت نظراتهما ثم فرتا من بعض، وعادت صفا تحدق في أبي تمام: لا، أبو تمام هذا لم تره من قبل، فهو الآن أجلح حقاً، وسالفاه طويلان وكثان، أذناه كبيرتان، صوته أكبر نعومة ووضوحاً، نظراته جريئة، بالغة الجرأة، وقحة، ولا تكاد تهدأ وهي تضحك لانشراح،

وتغمز فوان، وتأكل شفق، وتعبر بها هي عجلى. وودت صفا لو أنه يفسح لها أن تدقق على مهل، لعلها تقع على شبه بينه وبين الشاب الذي اقتيدت بسببه إلى فرع الحرية. وتمنت لو أنها كانت أكبر لطفاً وتسامحاً مع الشاب، وألا تتسبب له بالأذى شهادتُها ضده في الفرع.

من أجل ذلك حاولت أن تستذكر ملامح الشاب، لكنها ضيعتها تماماً. وفجأة أفلتت منها ضحكة، إذ فكرت بأن على وجوه من يكونون في حزب واحد أن تتشابه. ولما التفتت إليها شفق لائمة، تنبهت إلى أنهم كانوا جميعاً مشدودين إلى أبي تمام، وأصابعه، كعينيه وصوته، تمثل:

ـ إذا تثاءبت فالموت يدعوك. الموت يا روحي؟ الموت يا بنت الحلال؟ الموت يا أبو تمام، لذلك طقطقْ إصبعك الوسطى وإبهامك فوراً، وإلا... وإياك ثم إياك أن تنسى أن تضع كفك على فمك إذا تثاءبت. أنا هكذا أفعل، ولكن لماذا يا أنيسة؟ حتى لا يدخل إبليس إلى مغارتك. عرفت مغارتك يا أبو تمام أم أشرح لك؟ حتى لو كنت لا أعرف عما تسأل، كنت أرجوها أن ترحمني ولا تشرح.

والتفت إلى صفا، وقال مصطنعاً الجد:

ـ حتى يظل يزن يحبك، هل تعرفين ما عليك قبل النوم كل يوم؟

قالت صفا متوجسة:

- نوّرني الله ينوّرك.

قال أبو تمام:

- سيدتي العلاّمة الفهّامة تقول لك: اغمزي أكبر نجمة ترينها. صعبة؟

قال فواز ضاحكاً:

- اسألْ زوجتك عما على صفا أن تفعل إذا كانت السماء غائمة، وليس في كبدها نجمة؟

لكن أبو تمام تابع وقد تعلقت عيناه بشفق:

- لكل سؤال عند أنيسة خانم جواب. مرة شكوت لها أن شفتيّ تنمّلان أحياناً، فجن جنونها. هذا يعني أن واحدة ستقبلك من شفتيك. طيب يا ست أنيسة: ولو كانت شفتاك أنت تنمّلان؟ هل هذا يعني أن أحداً سيقبلك منهما؟

لم تخف صفا امتعاضها. وفكرت في أن البيت صار الآن فقط، مراقباً، فأسرعت إلى الشرفة، وتفحصت الحديقة وما تبلغه نظراتها من يمينٍ ومن يسار، ثم عادت مطمئنة، وكان أبو تمام يخاطب فواز:

- بعد غيبة شهر لاقتني مثل واحدة من ممثلاتك: لو تزوجت من عريف في سرايا الدفاع كان أحسن لي. غيباته أقل من

غيباتك، وراتبه لا يتركني أموت من الجوع لولا أهلي.

وضحك وحده عالياً، بينما اكتفى الآخرون بنصف ضحكة أو بربع، إلا صفا التي سألته باستياء:

- كم يليق بالزوج التقدمي مثلك أن يجعل من زوجته مسخرة؟

لكن أبو تمام لم يأبه، بل قال بمرح:

- كرمى لك سنبدل هذه السيرة.

ثم نقل نظراته بين الآخرين كأنه يستشيرهم فيما سينتقل إليه، ثم التفت إلى فواز شاكياً:

- أعتقد أن حظي مع حلب يفلق الصخر. ما من مرة لم أصادف فيها مصيبة. يوم مجزرة مدرسة المدفعية كنت نائماً عند رفيق بيته قريب من المدرسة. تعرف، كنا في عز الصيف. سلقنا الحر ليل نهار ونحن لا نجرؤ على الخروج من البيت، حتى عاد الهدوء للمنطقة. عندما زرتك آخر مرة أستاذ يزن في حلب، قتل الانفجار في الكلاسة ستة أطفال ورجلين. من عندك ذهبت إلى صديق في الحارة، زيارة قصيرة، لكن الزيارة القصيرة طالت إلى اليوم الثالث حتى تم تمشيط الحارة بالمشط الناعم. ما عرفت الخوف في يوم كما في ذلك اليوم.

قال هزار مبالغاً في لهجة الاعتراض:

- ما تواجهه البلد كلها أهم مما يواجهه واحدنا هنا أو هناك.

ونظر يزن إلى هزار معجباً أو مشجعاً، بينما قالت صفا بجفاء:

- كأن وجه أبو تمام نحس على حلب. الله يسترنا.

قال فواز:

- أظن أننا إذا تابعنا في السياسة هكذا، فسوف نسمّم هذا اللقاء. أنا شخصياً لا رغبة

لي بالتسمم ولا قدرة لي عليه.

زمّ هايك عينيه الصينيتين وقال:

- إذاً نبدل السيرة هذه المرة، وليس أبو تمام. الموافقة برفع الأيدي.

وقالت انشراح قبل أن يرفع أحد يده:

- إجماع.

وقبل أن يهدأ اللغط التفت يزن إلى أبو تمام قائلاً:

- لا تقل إنك جئت لتحدثنا عن زوجتك وعن مصادفاتك في حلب.

فأقبل أبو تمام على صفا متودداً، وقال:

- قبل أن أحدثكم بما جئت من أجله دعني أقل للأخت صفا: أنا وأنيسة كيان واحد، وعندما أسخر منها فإنني أسخر من

نفسي، وهذا من طباعي. أظن أن شفق لاحظت ذلك. السخرية من النفس غاية الشجاعة. أما زلت غاضبة مني؟

ضاع صوت صفا بين استحسان الآخرين وهجرهم، وبخاصة شفق. ولما هدأوا عاد أبو تمام إلى يزن وتابع:

ـ بعدما انتقلت أنت إلى اللاذقية، حاولت زيارتك أكثر من مرة. ظروفي في اللاذقية أصعب منها في الشام أو في حلب أو في أي مكان آخر. أنا ابن هذه المدينة. مهما تنكرت، فالخطر أكبر منه في أي مكان آخر، لذلك تندر إقامتي هنا. شعرت بالتقصير بعدما أصيب واصف. كان عليّ أن أزوره وأن أزورك، خصوصاً بعدما اختفى. ولكن الحق على من؟

أسرعت شفق بالقول:

ـ على المخابرات.

قال أبو تمام:

ـ الفضل في حضوري اليوم لشفق، خصوصاً أنني تحت جناح الأستاذ فواز. والآن يمكن أن نبدأ.

قال فواز محذراً:

ـ نحن في سهرة، ولسنا في اجتماع حزبي يا رفيق.

وضحك، فتساءل أبو تمام وهو ينظر إلى صفا:

ما هذه السهرة التي لم أذق فيها حتى الآن فنجان القهوة؟

انصبت نظرات لائمة على صفا، فأسرعت إلى المطبخ وهي تغمغم بالاعتذار، وتابع أبو تمام:

- لنقلْ: نحن في اجتماع، لكنه غير حزبي.

وسكت حتى تيقّن من إصغائهم واهتمامهم، ثم قال:

- أعتقد أنكم تعلمون بالاهتمام المتزايد للمعارضة بالطائفية في هذه الفترة، بدرجات مختلفة، وأساليب مختلفة، ومنها نحن في الرابطة.

قال يزن:

- هل صحيح أن بينكم من يتهم فصيل المكتب السياسي من الحزب الشيوعي بالميول الإسلامية، بالميول السنيّة، سواء كان ذلك شفوياً أم بين سطور أدبياته؟

وقال هايك:

- يقال إن الرابطة ملتقى لشباب الأقليات من دروز واسماعليين، وخصوصاً من العلويين.

قال أبو تمام وقد ظهر التوتر على قسمات وجهه:

- لسنا في القيل والقال. خلّونا في الأفعال. وفي الأفعال ليس خافياً الغزل بين جماعة المكتب السياسي والإخوان المسلمين.

قال فواز:

- هذا ملموس في خطابهم الشفوي، ملموس بقوة تتزايد، لكني لم ألمسه فيما اطلعت عليه من أدبياتهم.

قال أبو تمام:

- ومع ذلك أعتقد أن المهم هو ما يحاوله الإسلاميون من تحويل للصراع بينهم وبين السلطة إلى صراع بين الطوائف وبين المذاهب.

قالت شفق:

- قبل حضورك كنا نتحدث في الاغتيالات التي تغلب عليها الطائفية.

قال هزار وقد ضاعف من أنفه الكبير الظلُ الذي أرخاه عليه ضوء اللمبة:

- ماذا تتوقع بعد خمس سنوات من الحرب الطائفية في لبنان؟ قبل قليل تمنى الأستاذ فواز أن ينتبه الجميع إلى ذلك. لابد من أن تصيبنا العدوى: قتل على الهوية الطائفية والمذهبية، جغرافية جديدة طائفية ومذهبية، كانتونات، شاءت الحركة الوطنية اللبنانية أم لا، ومن ينكر أن هذه الحركة نفسها لم تأخذ نصيبها من هذه القذارة؟ أرجو من الله ألاّ نسير على هذه الطريق.

قالت انشراح:

- للأسف، هذه المرة خاب رجاؤك يا هزار. أبي يردد دائماً أن نفوذ الطوائف بدأ يكبر منذ استلم حزب البعث الحكم عام ١٩٦٣.

قال يزن بينما كانت صفا قد قدمت القهوة لأبو تمام، وأخذت توزعها على الآخرين:

- لكن هذا النفوذ تضاعف بما لا يقاس بعد الحركة التصحيحية عام ١٩٧٠.

قال فواز وهو ينظر إلى ما بين كفيه المفتوحين المشدودين:

- أنا لا أنكر وجود الطائفية، ولا وجود المذهبية. ولكن من أشعل النار؟ أليس الإخوان المسلمون، وخصوصاً جناحهم المسلح؟

قالت صفا:

- ومعهم من معهم من حزب البعث العراقي، ومن منظمة فتح نفسها كما يُشاع.

قال هايك بانفعال:

لماذا ننسى من ينفخ في هذه النار من الخارج؟ حتى من اسرائيل؟

قالت انشراح:

- من منكم سمع أن حزب البعث هنا أعد العدة لإقامة دولة

علوية بعد هزيمة ١٩٦٧، حتى تكون بداية التقسيم في سورية؟

قالت شفق باستياء:

ـ هذا حديث مخرفين. سامحيني حتى لو كان أبوك هو صاحب الحديث. أنا لست بعثية، بل أنا ضد حزب البعث، ولكن البعث ليس حزباً علوياً، ولا طائفياً. حزب البعث حزب علماني.

وماذا تسمي إذاً انتعاش الطائفية بعدما حكم؟

سألت انشراح محتدة، فأسرع أبو تمام إلى القول:

ـ هذا من سيئات الحكم ومن أخطائه، ولكن ما تقوله شفق صحيح.

وقال يزن:

ـ فرنسا جربت أن تقيم الدولة الطائفية في سورية. أقامت دولة للعلويين ودولة للدروز، وجعلت لكل دولة علماً يحضن في زاويته العلم الفرنسي. ولكن ماذا كانت النتيجة؟ أخي واصف شبّه مرة تجربة التقسيم بالتطعيم، تطعيم ضد الجدري، ضد شلل الأطفال، وهذا تطعيم ضد التقسيم الطائفي وغير الطائفي. هذا التطعيم يُعطى لمرة واحدة مدى الحياة.

قال أبو تمام وهو يخرج من حقيبته أوراقاً:

ـ بعودتك إلى الماضي هوّنت عليّ الانتقال إلى ما أريد أن آخذ رأيكم فيه، فقد أعددت عدة مداخلات حول الطائفية

في سورية، ستبدأ (الراية الحمراء) بنشرها قريباً، واخترت أن أبدأ منذ الاستقلال. لا أدري من منكم قرأ كتاب برهان غليون (المسألة الطائفية: مشكلة الأقليات؟). للأسف ممنوع في سورية.

قال يزن:

- ما أكثر الممنوعات في سورية، وكم هو تهريب الممنوعات ضروري!

قال فواز:

- مكتبة النوري في الشام تهرب لك من الكتب ما تشاء. أنا قرأت كتاب برهان منذ سنتين، فور صدوره. كتاب مهم وجاء في وقته.

قال أبو تمام:

- لا أنكر عليكم أنني أجد نفسي محرجاً عندما أكتب عن العلويين في المسألة الطائفية السورية. أنا كما تعرفون علوي. أقصد أنني من أبوين علويين ومن بيئة علوية.

- والإيمان؟

سألت صفا، فقال بعد ريْثٍ:

- الإيمان مسألة أخرى، اتركوها جانباً.

وبعدما اختار واحدة من الأوراق التي في يده، وأعاد الباقي إلى الحقيبة، تابع:

ـ زودني أبي قبل أن أتخفى بفترة قصيرة بما كان لا يزال يحتفظ به من أوارق في صندوقه الخاص. وبين هذا الكنز وجدت مذكرة رفعها وفد من محافظة جبل العلويين: هكذا جاء في المذكرة، أي محافظة اللاذقية ومحافظة طرطوس حالياً، اذ كانتا محافظة واحدة أكبر من لبنان، وتمتد من حدود تركيا إلى تلكخ ومصياف وجسر الشغور. المذكرة مرفوعة إلى رئيس الوزراء وتشكو الأخطاء، التي تسميها (الفوادح). سأقرأ لكم:

«الفوادح التي أضفتْ جواً قاتماً على هذه المحافظة، وحاولت إيقاد العشائرية والطائفية وأذكت نيران العصبيات القبلية وأثارت العنعنات الطائفية».

سأل هايك:

ـ ما تاريخ هذه المذكرة؟

لم يخف أبو تمام ضيقه من المقاطعة وهو يجيب:

ـ أيام قبل عيد الجلاء الأول عام ١٩٤٦، وعلى إثر اضطرابات دامية قامت في الحفة، وكاد أن يقتل فيها أبي، وهو من العلويين الأوائل الذين سكنوا فيها. سأقرأ من المذكرة:

«ولطالما ضجّ ضمير العدالة من الأخطاء الإجرامية التي اقترفها أشخاص مسؤولون في قضاء الحفة وسواه بغية سحق آلاف المواطنين الوادعين. ولطالما ملأ الآفاق ذكر هذه المظالم والاضطهادات. ولعلها أول مرة في تاريخ هذه البقعة الهادئة

من الموطن السوري العربي تسجل فيها الوقائع الرسمية إقدام أشخاص مسؤولين على حرق الأحياء وقتل النساء والأطفال وهدم القرى على أهلها، وتشريد أبنائها، وزجّ الأبرياء منهم في غياهب السجون، وإصدار مذكرات توقيف بدعاوى مصنعة ملفّقة ضد المخدرات وطلاب المدارس ورجال الدين والوجوه، وخرق الحصانة النقابية، كل ذلك عملاً بسياسة الكيد والانتقام، وجرياً وراء عزل قضاء بكامله عن جسم المحافظة والقضاء على أبنائه».

سأل هزار بينما كان أبو تمام يعيد الورقة إلى حقيبته:

- من هم أعضاء الوفد؟

قال أبو تمام:

- رؤساء العشائر العلوية: الحدادين والمتاورة والنميلاتية والخياطين.. ومن السنّة نائب الحفة ونائب تلكلخ وعدد من المحامين.

وسألت صفا بصوت لوّنه الارتياب:

- ما الفائدة من نبشك هذه القضية، حتى لو كانت قضية عادلة؟

قال أبو تمام:

- إذا ظلت القضية مفردة هكذا، فلن تكون أكثر من حكاية،

هذا إذا لم تكن مؤذية بما تذكّر به. لكني سأجعل لها ولغيرها السياق الذي يخاطب هذه الأيام، بل ويخاطب المستقبل.

سأل فواز متشككاً:

- هل يحق لك أن تنتزع قضية ما، حادثة ما أو واقعة، من سياقها، لتخدم غرضك؟

وفجأة دوى انفجار ارتجّ له البيت، وظلت شفتا أبو تمام معلقتين على ما كانتا ستقولان، وفغرت عيون الآخرين وتعلقت ببعضها، وانكتمت شهقة بصوت رصاص متقطع، بينما أخذت العيون تنفكّ من بعضها، وتتعلق بباب الشرفة.

صوت: ما أنا فيه أمرّ من القهر

لم تكن ثانوية أسامة بن زيد قد توارت خلفه حين فكر في أن يلجأ إلى صفا في المكتبة. لكن المكتبة ضيقة وقد لا تخلو من زبون واحد على الأقل، فلا تكون ليزن فيها الفسحة التي ينشد.

كان بوسعه أن يقسم بأغلظ الإيمان على أن الحبل الممتد منذ ليلة البارحة لا يزال يمتد ويشتد: أبو تمام ينام هنا، هو على صوفا والأستاذ فواز على صوفا: حكمت شفق بعدما هدأ الرصاص. لماذا؟ لأن الدوريات تنشط وتزداد تدقيقاً وتنبّهاً وشراسة بعد مظاهرة صغيرة، فكيف بها بعد انفجار، حتى لو لم تعقبه رصاصة؟

مضت شفق مع الآخرين، وأغفت صفا سريعاً، بينما تمكّن السهر من يزن. وفي لحظة منه حضرت شفق: هل ذهبت مع هزار إلى بيته؟ أم ذهب هو معها؟ حسناً فعلت أنت وواصف إذ تركتما للبنتين بيت المرحوم: هذا هو الإرث كله، ولكن من يترك طالبة في الثانوي تعيش وحدها بعد زواج سائدة؟ ماذا يعني أن يناديها واصف كل يوم إلى الغداء، أو أن تحمل رمزية بنفسها إلى بيتها كل ما يحتاج إلى الغسل، وما لا يحتاج، بينما

كنت أنت وصفا تجلسان أمام الغسالة الأتوماتيك، تتفرجان عليها كما يتفرج عمرو على توم وجيري، وتمتنان لجارك عبد الملك مصلح التلفزيونات والراديوهات الذي توسط لك عند ابن عمه المهرب، فجاءك بالغسالة: ماركة جنرال أمريكية يا أستاذ، تسخّن الماء وتدعك الثياب وتغلي وتبرد وتنشف، وكله بألف وستماية ليرة، أي براتب الأستاذ يزن لشهرين، أو براتب مدام صفا لستة أشهر. وعبر ذلك تكون الوحدة الموحشة قد أوشكت على أن تفتك بشفق، لولا أن هزار صار ابن الجيران والزميل والأخ والصديق، أي صار العاشق والمعشوق، وبخاصة بعد أن لبّت شفق نداء المعهد العالي للفنون المسرحية إلى حلم غامض، فأسرع هزار خلفها إلى كلية الصيدلة. ولكن لماذا لم تدرس في الجامعة الوليدة، هنا، على بعد مائتي متر من هذا البيت؟

فواز هو من سأل يزن بينما كانا يشربان القهوة في العصافيري. وفواز هو من زاد يزن غماً: شفق تصلح لأن تكون ناقدة مسرحية، أو إعلامية مسرحية، أكثر منها ممثلة، ولكن ليس في المعهد إلا قسم التمثيل، ولن يكون فيه قسم للدراسات المسرحية قبل سنوات. وهذا كله غير مهم، لأن شفق غارقة في السياسة، وفي الحب.

اختار فواز السفر بباص النقل العسكري، ورافقه يزن من العصافيري إلى موقف الباص قرب مدخل الثكنة العسكرية، ثم تابع سيراً إلى الثانوية، كي يستعيد على مهل ما أمكن من ليلة البارحة، وبالضبط: كي يبرأ منها: هدأ الرصاص، أسرعوا بالخروج تتقدمهم شفق، قدمت صفا منامة ومنشفة لأبو تمام، وقد رفرف عليها ظل من الطمأنينة، لكن يزن عاجلها: هذا هو الخطر الأكبر، أبو تمام، نعم، وليس فواز، ثم نام ولم ينم حتى تسلل الصباح من خلل الأباجور، فتسلل إلى الصالون. قالت الصوفا اليسرى: راح، بخْ. لم يصدقها يزن، فلكز فواز:

- أين أخونا؟

ومثل صفا بعد قليل، امتن يزن لخروج أبو تمام مبكراً. ومثل يزن بعد قليل، تدفقت مشاعر صفا وعباراتها، مشفقة على أبو تمام من الحياة الخطرة التي يحياها، لكأنهما كانا يكفّران عما تسارّا به منذ ساعات: لو خرج مع الآخرين!

* * *

كان فواز لهفان للبحر، لذلك أدار يزن ظهره للثانوية. ولما لوّح العصافيري للبحر، قال يزن:

- حتى الآن لم أعرف ما الذي جاء بك.

قال فواز:

- جزء صغير من السبب هو أنت وصفا، وجزء أكبر هو البحر.
أما السبب كله فلن تسمعه حتى تعطيني الأمان.
قال يزن:
- عليك الأمان من الإنس والجان.
همس فواز:
- أوغاريت يا صديقي.
تساءل يزن ببله:
- ما بها؟
قال فواز:
- هي السبب.
صاح يزن:
حتى أنت! ألا يكفيني أخي واصف؟
قال فواز:
- جاهل مثلك من أين له أن يعلم أن الموسيقا صدحت قربه هنا، في أوغاريت، منذ آلاف السنين؟
قال فواز، فضرب يزن كفاً بكف ونظر عالياً، ودعا:
- زدني علماً إذاً.
- لست أنا من يزيدك علماً. عليك بزميلك راؤول فيتالي، ولكن من أين لجاهل مثلك أن يعرف زميله أستاذ الرياضيات

والموسيقا الذي «نوّت» لحناً من أوغاريت، واللحن الأوغاريتي سيلاقي لحناً من نينوى، ولكن أين؟ في مسرحية لفواز الساجر.

- يا رب احفظ لنا نعمة العقل.

قال فواز حالماً:

- الجنون يا صديقي أضاف لي مع اللحن ما سيحمل للمسرحية نبضاً استثنائياً، ربما يكون إيقاعها الأكبر أو الوحيد، ربما يكون فاتحة أو خاتمة، بل قد يكون فاتحة وخاتمة، اسمع:

أنت حبيبي
أنت يا زوجي
أنت يا إله القمر
أنا حبيبتك نيكال
وأنا زوجتك الملتاعة
لماذا حرمتني من أن يكون لي ولد؟
لماذا حرمتني من أن يكون لي بنت
وأنت من ينعم على كل زوج وزوجة من الأولاد والبنات؟
آه يا حبيبي
آه يا زوجي
ما أنا فيه أمرٌ من القهر

قـال يزن بتـأثر:

- في بـالي ابتهـال نيكـال هـذا. قـرأه لي واصف بصيـاغة مـختلفة.

سأل فواز بلـهفـة:

- أيهمـا أجمل؟

- عليّ أن أعترف أن مـا سمعتـه منك أجمل.

قـال فواز:

- هذه صيـاغتي. وسوف أجعلهـا تـخرج بـالمسرحة إلى أفق أرحب وأعقد، لتكون ابتـهالاً كونيـاً، تنبض فيه الأنوثـة مقـابل الذكورة، والـخصوبة مقـابل العقم، العطـاء مقـابل الأنـانية، الضعف مقـابل القوة، الفرح مقـابل القـهر، وكل ذلك سيكون مكنون الجسد، مكنون الجنس والزمن. ستكون هذه التقـابلات هي مـا تبعثـه أوغـاريت من الأسطورة إلى التـاريخ. لو أنك تسمع فطمـة وتراهـا كيف تؤدي كل ليلـة هذا الابتـهال. أين سرحت؟

- والله العظيم معك، ولكنـي تمنيت لو أن واصف يسمعك. كـأن أوغـاريت سبتك مثلـه. ليت ليلى نصير تسمعك. ليلى فنـانة تشكيلية مـهووسة بـأوغـاريت مثل واصف، وأنت ثـالثـهمـا.

ردد يزن في سره: الثلاثي الأوغـاريتي، بينمـا خطـاه تقوده جزافـاً من الثـانوية في المشروع الأول، فتلتف حـول المقبرة

الفرنسية التي تركتها فرنسا في طرف الحي. واستطالت الطريق ريثما التفت حول الثكنة، لتطلق عجب يزن من الحكمة العسكرية ومن حكمة البلدية: هما ما أبقى الثكنة في موقعها المتوارث منذ عشرات السنين، حين كانت المدينة أصغر وأبعد، بينما باتت الثكنة الآن تتوسطها: خذوها بعيداً، انقلوها إلى خارج المدينة، هي والسجن، وفرع الحرية، وفرع دار المعلمات وجميع الفروع، وأقيموا محلها جميعاً في المخطط التنظيمي القادم للمدينة حدائق، فقط حدائق.

جزافاً قطع ما بين الثكنة وساحة الشيخ ضاهر، تتغندر خطاه أو تتسارع على هواها، فتتقفاها عيناه، حتى يستدبر الساحة نزولاً في شارع أنطاكية، وإذا بوجه مدير الثانوية يتربص به أمام مكتبة الشاطئ، أُخيولة أكبر منها غضباً حين وصل يزن إلى الثانوية متأخراً، وتعلل بوداع المخرج المسرحي الكبير فواز الساجر. فازدرى المدير التعلل والمتعلَّل به والمتعلِّل، ففكر يزن بأن يتعلل بالقائد السياسي المعارض أبو تمام. لكن المدير كان قد سأل عن الدرس الأول ليزن في شعبتي البكالوريا الأدبي والعلمي، ثم حكم: هذا خروج عن البرنامج يا أستاذ:

ألجمت الدهشة يزن، فصمت المدير ثواني متلذذاً قبل أن يتابع:

ـ هذه المرة سأكتفي بالتنبيه الشفوي. أما إذا تكررت المخالفة فسأكون مضطراً لاتخاذ الإجراء القانوني الرادع.

قال يزن متحدياً:

ـ سأنسى أنك تهدد إلى أن تحدد لي أين خرجت عن البرنامج.

تشاغل المدير بما وقعت عيناه من الأوراق على سطح مكتبه، وبدا كأنما يروز التحدي، ثم عاد إلى يزن بلين:

ـ ما لك وللحديث عن الحرية في شعبة وعن الكرامة في شعبة؟ هذا يمكن أن يكون درساً في مادة علم الاجتماع أو في مادة التربية القومية الاشتراكية. أما في مادة الأدب العربي الحديث، فلا. لا تنس أن كل دقيقة في دروس البكالوريا مهمة.

قال يزن ممعناً في التحدي:

ـ أنا لا أعرف ما اختصاصك، ولا يهمني أن أعرف، لكن يبدو أنك تجهل أننا ندرّس طلابنا في الأدب العربي الحديث الكفاح ضد الاستعمار، ودور الأدباء في هذا الكفاح، من أجل ماذا؟ من أجل الحرية يا أستاذ. من أجل الحرية والكرامة. كذلك ندرّس الكفاح ضد الظلم، ضد الطغيان وضد الاستبداد، القريب منه والبعيد، وندرّس دور الأدباء في هذا الكفاح، من أجل ماذا؟ من أجل الحرية والكرامة.

كرر المدير التهديد، وإن بصوت خفيض، فخرج يزن قرِفاً. وربما كان ذلك ما جعله يملي على شعبة العلمي مما تخبئ

حقيبته:

قال زكي الأرسوزي، وهو من مؤسسي حزب البعث، في كراس له صدر عام ١٩٦١، وعنوانه (متى يكون الحكم ديمقراطياً):

«بماذا تختلف سياسة الحزب الواحد في الدولة عن الهلوسة في ذهن الفرد؟

كلتاهما تعيقان الحياة عن النمو وعن الملاءمة مع الظروف المستجدة.

بل بماذا يختلف موقف الدولة ذات الحزب الواحد عن الموقف من الدول البائدة التي كانت تتخذ لها مذهباً معيناً وتحرم على الناس الاجتهاد؟»

وأعاد يزن القصاصة إلى الحقيبة، ثم أخذ ينقل نظراته في وجوه الطلاب، وإذا بطالب ينبري بصوت راجف ومرتفع:

- هل ينطبق هذا الكلام علينا في سورية يا أستاذ؟

سأل يزن بحذر:

- من يجيب على سؤال زميلكم؟

قال طالب:

- الحكم في سورية ليس حكم الحزب الواحد. هل نسيتم الجبهة الوطنية التقدمية التي تضم عدة أحزاب، ومنها

الشيوعي ومنها الناصري؟

وقال طالب:

ـ عندنا الحزب القائد، وليس الحزب الواحد.

فسأله يزن بحذر أكبر:

ـ ما الفرق، ما دام الدستور ينص على أن الحزب القائد يقود الدولة والمجتمع، وما دامت الأحزاب الحليفة الأخرى ممنوعة من العمل بين الطلاب وفي الجيش؟

ولأن الصمت هيمن، ترجّع سؤال يزن في سمعه عالياً. وفجأة ترجّع صوت المدير أعلى، ولكن بغير كلام. كان المدير يصرخ فقط. كان بالأحرى قد صار صراخاً، فآثر يزن السلامة، واكتفى بأن يدير الحوار بين الطلاب. لكنه نسي كل ذلك في شعبة الأدبي، وأملى على الطلاب مما تخبئ حقيبته:

قال أحمد زكي رئيس تحرير مجلة العربي قبل عشرين سنة:

«حكم الفرد الواحد يُحمد قليلاً، ويُذَمّ كثيراً، ويُشكر سنة، ويُنكَر سنوات، وفي ظلاله الظلم والجور هو الغالب وهو السائد، ومعه السفه في التصرف غالباً، والقسوة في البطش غالباً، إلا من رحم الله، والنعمة للقلة القليلة من الناس، والفقر والشقاء والذل للكثرة الكثيرة من الناس، وفيه على العموم، إلا ما ندر، اهدار لكرامة الإنسان.

حكم الفرد ليس كما ادعاه المدعون من الفرنجة إرادة إلهية، ولكنها، عندما تكون إرادة واحدة مطلقة، ومع الإطلاق السفه، تصبح عند ذاك نكبة شعبية. وإن الحد من هذا الإطلاق مع السفه ضرورة قومية».

ولأن الصمت هيمن، أحس يزن بأنه قد تورط فيما لن يجدي نفعاً. بل إنه قد يجرّ ما هو أكبر من غضب المدير. وحدق في وجوه الطلاب واحداً واحداً، بحثاً عمن نقل إلى المدير الخوضَ في الدرس الماضي في الحرية والكرامة. وندم لأنه لم يبحث في وجوه طلاب شعبة العلمي عن الطالب الذي يتجسس على الجميع لغير المدير، تماماً مثل هذا الذي يتجسس في هذه الشعبة، بل مثل هؤلاء الذين يتجسسون في هذه الشعبة، وأولئك الذين يتجسسون في شعبة العلمي، ومثل هؤلاء وأولئك الذين عبر بهم قبل أن يقف على رصيف مقبرة الفاروس، ويرمي السلام على الموتى، وفي مقدمتهم أبوه وأمه وأم واصف وأم رمزية، ثم يطوح نظراته في الفضاء لعلها تبلغ قبراً لعبد الرحمن هلال وقبراً للشيخ يوسف صارم، فيرمي السلام عليهما، ثم يسأل الموتى جميعاً عمن يتجسس بينهم للمدير، أو لغير المدير، إن كان لديهم حزب واحد أو حاكم فرد أو أحزاب أو جبهة وطنية تقدمية أو أجهزة مراقبة وتنصّت وتجسس.

ولأن الصمت هيمن، ليس على المقبرة وحسب، بل على الرصيف ومدخل العمارة والـدرج، فقد توقف يـزن أمـام بيت الأثرم مغموراً بـالخزي، وانـهال على نفسه: كيف نسيت واصف؟ ولكي يتم صلبه، سرى في روحه صوت فوازَ السـاجر، أكبر وجعاً ممـا كان صبـاحاً في العصـافيري: مـا أنـا فيه أمرٌ من القهر.

هي مثل البرد.. سبب كل علة

بعد انتظار طويل أمام الباب الخشبي الذي زاده العتق هيبةً وخصوصية، أخذ يزن يداور الشك في أن الباب سيعاقبه، ولن ينفتح. ولم يكن يزن ليغادر مهما طال انتظاره، إقراراً بأنه مذنب. لكن الأثرم ظهر أخيراً، وكأنما كبر سنوات في أيام.

وهو يتبع الأثرم إلى غرفته، فكر يزن في أن رمزية لن تغفر لهذا الأخ العاق الذي تخاذل في البحث عن أخيه، وجبن، لذلك لم يجرؤ على أن يسأل الأثرم عنها ولا عن ثريا. ولكي لا يكون للأثرم نفسه سبيل إلى السؤال عن الغياب أو الانقطاع أو الجبن أو التخاذل، قرر يزن أن يستثير فيه الحكواتي الخباص، وأن يكون هو أيضاً إن لزم الأمر الحكواتي الخباص، فنسب لنفسه ما تحدث به أبو تمام أمس عن الحفة عام ١٩٤٦، ثم قال مستعطفاً:

إذا كنت تعرف شيئاً آخر عن هذه القضية فأرجو ألا تبخل عليّ. أنت كنت يومها شاباً.

قال الأثرم:

كنت في مثل عمرك، وكانت علاقاتي وعلاقات والدي بالجبل متينة، من الحفة وصلنفة إلى النواصرة وبني علي

وحمام القراحلة في جبل جبلة، حتى الشعرا. لكن الحفة كانت الأقرب إلى القلب، ولا تسأل عن السبب.

حرّض النهي يزن مثل التماعة عيني الأثرم، على السؤال:

ماذا سيكون غير العشق؟

قال الأثرم وهو يستوي في السرير، كأن الحكي بدأ يمده بالعافية:

أنا يا محترم تزوجت بعد الأربعين. تزوجت بعدما عشت على كيف كيفي. لكن العشق الأكبر جاء بعد الزواج. إياك ثم إياك أن تنطق بحرف أمام رمزية.

لم تقل بعد ما يستحق الكتمان.

لا تكن لجوجاً. سأقول. العشق الأكبر كان لصبية من الحفة، ملأ صوتها الإذاعة بعد كم سنة، ما شاء الله!

مطربة؟

ومالك تسأل بقرف؟ لا تجعلني أبدّل رأيي فيك.

سألت بعجب، والله.

مطربة من أجمل وأفضل المطربات. بدأت من برنامج للأطفال في الإذاعة، وتعلمت العزف على العود. تعلمت النوته في المعهد الموسيقي الذي كان يتبع الإذاعة. عرفتها يا محترم صغيرة. سبحان الله. ما حضرت مرة إلى عند أهلها إلا

كانت عندهم، أو عند جيرانهم. بعدها صرت ألحقها إلى الشام، وكرمى لها صار الراديو لا يفارقني في الليل.

إذاً اسمها ليس سراً؛

السر هو اسمها الأصلي. كان اسمها جميلة نصور، صار اسمها كروان.

تذكر يزن الست جميلة، فازورّ عنها، وهمس منغماً صوته بالأغنية الشهيرة لكروان:

شدوا لي الهودجْ يللّه
مشتاق لحبيبي والله
ويمكن يجمعنا الله
ويـاه يللّه.. يل يللّه

فغامت نظرات الأثرم، ورق صوته بأغنية شهيرة أخرى لكروان:

ياه يّما واناع العين
شافني حسينو غمزني
بعينه
ياه ياه
دوا جرح قلبي يّما
عند حسينو ياه ياه.

كرمى لكروان حضرت فيلم الكروان، أظن، عشرين مرة في اللاذقية وفي الشام. هل رأيته؟

للأسف.

كروان في الفيلم تطوف مع خالها على بلاجات الإسكندرية، هو يعزف على أوكورديون قديم، وكروان تغني: دوّارين في الشوارع.. دوّارين في الحارات. لكن صوت كروان الحفة أجمل، وهي أيضاً أجمل وأجمل.

وفجأة غادر السرير نشيطاً، ومشى نحو الصالون، فتبعه يزن. وقبل أن يجلسا قال الأثرم:

قبل كروان وبعدها، كان هواي مع الطرب الفارسي كبيراً. كان أصدقاء لوالدي يحضرون له أسطوانات من طهران، وبعد وفاته رحمه الله بقي منهم من يحضر لي الأسطوانات الجديدة. هكذا تعلقت بمطربة إيرانية اسمها أشرف. أشرف السادات مرتضائي منذ عشرين سنة وهي نجمة إيران. هي أم كلثوم الإيرانية. لا أدري ما حلّ بها بعد ثورة الخميني. مع مرضية تعلقت يا محترم بقمر الملوك وزيري. شهرة قمر الملوك ليست أقل من شهرة مرضية، ولكن هواي ليس معها. لا أدري ما حلّ بها هي الأخرى بعد ثورة الخميني.

ومن أيضاً؟

ماذا تقصد؟

من هن نساؤك أيضاً؟

كله كلام وأحلام. كله أوهام.

لن أصدقك.

ولن تصدقني إذاً لو قلت إنني عندما كنت شاباً مثلك، أوقعتني في الجنون مطربة أمريكية، سمعت بها ولم أسمع لها، ولكن اسمها وحده فتك بي.

لم أسمع بمن يعشق الاسم ويكتفي، قبلك!

إلا إذا كان اسمها: القنبلة الجسدية.

هذا لقب أم اسم؟

أنا قلبت اللقب اسماً. كان اسمها ليندا كريستيان، فجعلته هو اللقب.

وغامت نظرات الأثرم، فاسترق يزن نظرة فنظرة من أنحاء الصالون، ومن بابه الذي يفضي إلى المطبخ، فالباب الذي يفضي إلى غرفة أخرى عليها أن تكون غرفة رمزية وثريا فالباب الذي يفضي إلى الشرفة: لا أثر لهما، لذلك عاد إلى الأثرم حائراً بين القلق عليهما وبين الطمأنينة، لأن غيابهما يؤجل اللقاء، وإذا بالأثرم يسأل:

ما قلت لي: ما الذي ذكّرك بالحفة عام ١٩٤٦؟

تريث يزن بالجواب، ريثما تلبّس بأبو تمام ثانية، ثم قال:

الطائفية.

تعوذ الأثرم، ثم قال:

في الحفة حتى هذه الأيام عائلات مسيحية كثيرة. ومنهم من كان له أملاك في القرى العلوية القريبة. هل أعدّ لك؟

كيف كانت علاقات الناس؟

مثل السمن والعسل. ولكن قل لي: هل سمعت بلجنة القوميين العرب هنا في اللاذقية؟

سمعت بحركة القوميين العرب.

الحركة جاءت بعد اللجنة. اللجنة جاءت عام ١٩٤٥، ورفعت للمحافظ مذكرة في آب ومذكرة في تشرين الأول حول المنازعات الطائفية. أنا واحد ممن وقعوا على المذكرتين. من زعماء الجبهة الوطنية في اللاذقية وقّع عليها المحامي ماجد صفية. نائب الحفة السني نوري الحجي كان من الموقعين. نائب الحفة العلوي أيضاً.

من هو؟

سليمان المرشد. توزيع النواب على الطوائف في ذلك العهد كان يعدّ سليمان المرشد نائباً عن العلويين.

قال وهو ينهض بحيوية، وأسرع نحو غرفته، فنهض يزن

عازماً على أن يفتش بنفسه عن رمزية وعن ثريا، ومشى بحذر نحو المطبخ، وأطال النظر فيه، ثم تراجع نحو الشرفة، لكن مرأى القبور ردّه إلى كرسيه، وكان الأثرم يقترب، وقبل أن يجلس تنحنح، وأطال النحنحة، ثم قال:

الصحف نشرت المذكرتين، في بيروت، في القاهرة. وإذاعة الشرق الأدنى أذاعت خبراً عنهما. اسمع يا محترم:

«معالي محافظ جبل العلويين الأفخم:

إننا نؤمن أن أحداً في هذه الأمة لم يكن أكثر إيماناً منا باستقلال سوريا ووحدتها وسيادتها

حرة طليقة من كل قيد.

إنكم تدركون ولا شك أن الشعوب التي لا تتكلم تموت. وقد كان أشد ألمنا وأعظم سخطنا فيما كنا نراه من إيقاد مستمر للنعرات الطائفية في هذه البقعة الحساسة من الوطن السوري العربي».

هنا اقترحت يا محترم أن يضاف إلى المذكرة، من قبيل المثال الحي الصارخ على ما تقدم، واقعة سيانو التي هاجم فيها الرعاع، تحت سمع حكومة قضاء جبلة وبصرها، قرية سيانو وما جاورها.

أمعن المهاجمون يا محترم في السلب والنهب والفتك.

وبعد التحقيق القضائي تم إطلاق سراح جميع المعتدين. أما التوقيفات الكيفية والكيدية فغدت مضرب الأمثال، وحلت السلطة الادارية محل السلطة القضائية في استعمال سلاح الحبس والتوقيف الطويل، على الشبهة. هنا اقترحت أن يضاف إلى المذكرة ما فعله نائب جبلة أمام قائمقام القضاء، حيث خاطب من كان حاضراً من الوجهاء العلويين بقوله: إننا سنرصد ملايين الليرات لترحيلكم من هذه الجبال. وللإنصاف يجب أن أذكر أن هذا النائب اعتذر عن هذا الكلام بعد مدة.

قلت لك يا محترم في تشرين الأول رفعنا المذكرة الثانية، وذكرنا فيها أن الدرك فعلوا ما لم يفعله الحجّاج. الدرك جزّوا النواصي واللحى والشوارب، ثم فرضوا عقوبة الفلق على القرويات البريئات، لأن أزواجهن أو إخوانهن أو أبناء عمومتهن متهمون بأمر ما.

كتبنا يا محترم للمحافظ أن إجراءات رجال الدرك والأمن ليست إلا امتداداً لسياسة التنكيل التي ذاقت منها هذه المحافظة الأمرّ أثناء الاستعمار التركي وبعده الاستعمار الفرنسي. وما هذه الإجراءات إلا سلب القرويين الذين يحضرون إلى اللاذقية، عدا عن حرق البيوت بمن فيها من أطفال ونساء وشيوخ، كما حصل في إحدى القرى الجبلية، في الجوبة، قرية سليمان

المرشد يا محترم.

بعض زعماء العشائر العلوية أصروا على أن نكتب في المذكرة: تعالوا نعد الأموات في سبيل الذود عن حرية البلاد منذ خمسة وعشرين عاماً، فمن كانت قبوره أكثر، كان له حق الإدلال على الناس بشرف الاضطهاد.

أنا لم أوافق على هذه الفقرة، لأننا لسنا في مبارزة. ولكني، بلا خجل، كنت بينهم على الهامش، بلا تأثير يُذكر.

كان يزن يتابع بذهول عيني وشفتي الأثرم: هل يقرأ الرجل من كتاب أم هو يخبص الحكاية الآن؟

ولكي يتحرر الأثرم من نظرات يزن، عاد يسأله عما ذكّره بالحفة عام ١٩٤٦، فقال يزن:

هو ما جعلك تحدثني عن اللاذقية عام ١٩٤٥.

الطائفية.

قال الأثرم، وتعوذ، ولعن من ينفخ في نار الطائفية في هذه الأيام، فسأل يزن:

من تراه يفعل؟

من غير الإخوان المسلمين؟

أجاب الأثرم، فهز يزن رأسه معترضاً، وقال:

ليسوا وحدهم. في كل طائفة إخوان: إخوان مسيحيون،

إخـوان علويون، إخـوان دروز، وهكذا. إخـوان الطوائف هم المتطرفون فيها، وهم المتعصبون. بماذا يختلف هؤلاء عن الإخوان المسلمين؟ لا تنس أيضاً من ينفخ في نـار الطـائفية من السلطة. الداء بدأ يتسرب حتى إلى الأحزاب المعـارضة اليسارية أو العلمـانية.

أطرق الأثرم ملياً، وبعد أن تنهد عميقاً جاء صوته كأنه يفكر وهو يتكلم:

العلة في التطرف، أوافقك. العلة في التعصب لأي شيء، لأي نسب أو حزب أو عـائلة أو منطقة. صدقني أنني نشأت بريئاً من هذه العلة، وعشت بريئاً منها طوال عمري، والفضل في الأسـاس يعود لوالدي رحمه الله. ولكن مـاذا جرى للناس في هذه الأيـام؟ حتى في عـام ١٩٤٥ أو عـام ١٩٤٦ كانت نـار الطائفية صغيرة، محدودة. كـان الحريق تحت السيطرة. الآن الحريق أكبر، وأنـا خـائف من أن يخرج عن السيطرة. في شبـابي الأحـزاب العلمـانية اخترقت جميع الطوائف: البعث، القومي السوري، الشيوعي، النـاصري، فـانظر أين صرنـا. في آخر لقـاء جمعني بواصف، أعـاده الله بـالسلامة، دار بيننـا مثل هذا الحديث، وكـان رأيه أن سبب انتعـاش الطـائفية، هو نفسه سبب كل علّة نشكو منها، وعدّد: أولاً غياب الحريات، أولاً غياب

الديمقراطية والقانون.

وبدا يزن كأنه ما عاد قادراً على المراوغة أو الصبر، بعدما ذكر الأثرم واصف، فسأل مقاطعاً:

- أين رمزية؟

ومثل الأثرم، فاجأه اضطراب صوته، فتلفت حوله يبحث عن جواب، وإذا بصدى صاخب يهجم من باب الشرفة، فتساءلت نظرات الرجلين مستغربةً، فقلقة. ولما أخذ الصخب ينجلي عن هتافات ضد الرئيس، أسرع الرجلان إلى الشرفة، وكاد الأثرم أن يسبق يزن لولا أنه كاد أن يهوي عند الباب، لكن المظاهرة كانت قد تجاوزت العمارة.

تبدلات رمزية

كأن ثريا كانت على موعد معه: ركضت إلى الباب فجأة، فتنبهت رمزية، لكنها انتظرت حتى فتحت ثريا الباب. ولما لم يظهر أحد سألت:

من يا ماما؟

فلم ترد ثريا، بل لبثت تنتظر حتى ظهر يزن، فأطلقت رمزية دهشتها: لم تخرج البنت إلى الشرفة، لأقول: رأته. لم أسمع صوتاً لديك الجرس، ما أدراها أنه قادم؟!

صحت رمزية على صوت ثريا تسأل:

ـ عمّو وين بابا؟

وكانت متربعة على صدره، وذراعاها يعانقانه، بينما كان يزن يبلع خشيته من لقاء رمزية.

لكن رمزية هوّنت عليه، إذْ قاطعت اعتذاره، ودعته إلى الجلوس، فلجأ إلى ثريا التي بادرته:

ـ عمّو حفظت نشيد جديد.

فحضّتها رمزية على أن تسمعه النشيد، لكن ثريا سألت:

ـ عمرو حفظ النشيد الجديد؟

ولم تنتظر جواباً، بل أنشدت:

عليك مني السلام يا أرض أجدادي

ففيك طاب المقام وطاب إنشادي

فهلل يزن ورمزية، وصفقا. ولما كرجت إلى الغرفة، أنكر أنه كان ذات يوم طفلاً في مثل عمرها، وأنه حفظ النشيد نفسه. وعاد من نكرانه ندياً، ليكرر اعتذاره، فقاطعته رمزية قائلة:

- حتى أخفف عليك أعترف أني كنت مستاءة من انقطاعك فجأة عنا، بل كنت ناقمة، أتقلب من وسواس إلى وسواس: هل يخفي يزن خبراً سيئاً عن واصف؟ هل خاف من أن يتابع البحث عن أخيه؟ الآن، وحياة واصف لم أعد حتى عاتبة، فلا تعتذر.

كان صوتها كما لم يسمعه يزن من قبل: بالغ النقاء والصفاء، خافت، لكنه بالغ الوضوح. كانت للصوت طلاوته من الصدق والود. بل إنه حين ذكر واصف، أحسّ يزن بالصوت يشع حناناً: ما الذي جرى في هذه الغيبة القصيرة؟

وبدلاً من أن يسألها، حدثها عن زيارته لأبيها أمس، فقالت:

- ثريا اشتاقت له أكثر مني. في الأيام الأخيرة صرت مرهقة له وصار مرهقاً لي. أنا أبحث عن خادمة ترعاه ولو لوقت قصير كل يوم، أو مرتين ثلاثاً في الأسبوع. ساعدني. كأنه يشيخ بسرعة.

ـ لماذا تركته وعدت إلى هذا البيت؟

سأل راغباً في أن يكون ثمة سر ستكشفه له، وكان صوت ثريا يتناهى من الغرفة مردداً النشيد الجديد.

ابتسمت رمزية قائلة:

ـ هذا بيتي، والأصل أن أكون فيه، أم لا.

قال متجاهلاً:

ـ ثم؟

قالت بجدية:

ـ ما من سبب محدد أو أوضح لعودتي. يمكن أن تقول: إلهام من الله جاءني وأنا أمام الشاليه، وأملأ عيني من البحر.

سأل بدهشة:

ـ إذاً ذهبت إلى الشاليه؟

فأجابت بروية:

ـ مرة واحدة، وساعتها أحسست أن روحي تصفو. أحسست أنني أغتسل في داخلي من العكر. عكر قديم يا يزن، عكر كبير. قلت: عودي إلى بيتك. لن تبقي هاجرة ولن تبقي مهجورة. لا يجوز أن يعود واصف فيجد البيت فارغاً. عندما يعود سيجد أنني أعدت سريري من غرفة ثريا إلى جانب سريره في غرفتنا. أنا بحاجة إلى أن أتبدل، حتى لو لم يتبدل واصف. ولكن، إن

شاء الله، سترى واصف الجديد، فلا تصدق عينيك.

ونهضت بخفة، ومضت إلى «الترابيزة» الأقرب إلى التلفزيون، وحملت عنها دفاتر متفاوتة الأحجام، وعادت بها إلى يزن قائلة:

- لأول مرة في حياتي أتطفل على شيء يخص واصف. آه يا يزن! كم كنا بعيدين عن بعضنا! كم كنت أجهل من هو واصف! ما قرأته في هذه الدفاتر زادني يقيناً بأن الله ألهمني بالعودة إلى واصف. لولا واصف ما الذي يجعلني أعود إلى البيت؟

تناول الدفتر الأعلى الصغير، وبينما راحت أصابعه تمسد الغلاف الأنيق، كأنها تتذكره، تابعت رمزية:

كان واصف يقفل على دفاتره، فلا هو يفارق المفتاح، ولا المفتاح يفارقه. ولما ترك البيت انتبهت إلى أن المفتاح كان على ظهر التلفزيون، كأن واصف وضعه في مكان بارز حتى أراه. لكني لم أهتم به إلا بعدما رجعت إلى البيت. تراه أرادني أن أفتح الدرج وأقرأ ما في الدفاتر؟ تراه كان يشعر أن غيبته قد تطول، أو أنه، لا سمح الله، قد...

وسكتت، فنقّل يزن الدفتر بين كفيه، ثم عاد إليها فإذا بعينيها قد امتلأتا بدموع لا تنسكب، ففرّت نظراته عبر الشرفة بعيداً، وانقبض إذ لم ير إلا رؤوس شواهد القبور. وصحا على صوت رمزية مشروخاً:

ـ سأحضر لك القهوة.

وتبعتها عيناه، فتراءى له أنها قد ازدادت امتلاءً، وأن شعرها قد ازداد شقرةً وطولاً. وبينما غيّبها المطبخ، تبسم يزن لصدى طليّ خافت يتناهى من بعيد، ويسميه بَصْبَصْ، ويعلن توبة العنزة وتوبة التيس، ويعابثه: أزعر، أستاذ أزعر، بلا أستاذ، أزعر وبس. ولما ذكر الصدى الدورميكيوم أحسّ بالخدر يطبق أجفانه، وربما كان سيغفو لولا أن لسعة كاوية قد لسعته وكوته، فلجأ إلى الدفتر الصغير الأنيق، وأخذ يقلّب فيه حتى بلغ صفحات توزعت فيها آيات على فصول. عندئذٍ استعار الصدى من واصف صوته، كي ينادي كاتباً بالحلم: أنت يا يزن، فتبسم يزن لكاتب بالقوة: أنت يا أخي. ومعاً أطلقا السؤال عن الكاتب بالفعل. وبانتظار الجواب عاد الصدى يرطن باسم علاّم، واسم نجيب محفوظ، واسم رواية هل هي أولاد حارتنا؟ وبالقصة المستحيلة التي يرومها واصف، لكنها لا تنكتب ولا تكتمل.

اجتاح يزن شوق عارم لأخيه. وربما كان الشوق سيبكيه لولا أن فوح القهوة سبق رمزية إليه، فأعاد الدفتر الأنيق الصغير إلى مطرحه فوق إخوته، وهمس راجياً أن تعيره الدفاتر، فقالت بصوت رقيق رقيق، وحازم حازم:

ـ واصف وحده من يأذن بأن تخرج الدفاتر من البيت، لكنك

تستطيع أن تحضر في أي وقت، وتقرأ ما تشاء.

- واصف!

همهم يزن باسم أخيه، منادياً ومتعجباً وخائفاً وحسيراً، وحدق في رمزية كأنه يرجوها أن تعينه على ما جاء به إليها، فحثته نظراتها القلقة وهي تناوله فنجان القهوة. لكنه وضع الفنجان على ما أبقت الدفاتر من الترابيزة، وقال:

- مساء أمس اتصلوا بي. الأمن اتصلوا، وطلبوا مني أن أكون في الشام يوم الإثنين من أجل واصف.

فسألت ملهوفة وغاضبة:

- ولماذا انتظرت كل هذا الوقت قبل أن تخبرني؟

قال مسترضياً ومشفقاً:

لأنني لست مطمئناً لهذا الطلب.

- سأذهب معك، وإن شاء الله نعود ثلاثتنا معاً.

قالت عازمة، والرجاء في صوتها وفي نظراتها يدفع القلق.

العصف الحموي

أخي ونور عيني واصف ما سمعت أنهم خطفوك إلا الساعة من رمزية، على من أعتب إذا لم أعتب على يزن أنا أختك سائدة يا يزن كيف يقسو قلبك وتنسى من لك في حماة مهما حصل بينك وبين صهرك، لا أنكر عليك أن تنكر هذه التي قلبها مبقّع بالدم مثل شعرها وحجابها ونظرها ونَفَسها وصدرها ويديها و«المانطو» والجرابات و«الكندرة» حتى ما بقي للدم في هذا ما يبقّعه في هذا البيت الذي كان حموي رحمة الله عليه يحب أن يشبهه بجارتنا وجارتنا من هي غير القلعة بينما حماتي رحمة الله عليها تضحك وأنا أبكيها أبكي أمك يا حبيبي وسيدي وأبكي والدك وأبكي ابنك وبيتك فما بقي لي يا عنان إلا الله والبنت التي تخفيّتَ قبل أربعينها وما سمحت لي أن أسميها على اسم أمي فبقيت البنت يا أمي بلا اسم ولكنني بعد إذنك يا سيدي وحبيبي نويت أن أسميها حماة وأنا خائفة من أن تختفي حماة إذا بقيت الحرب قائمة كما كانت يوم تزلزل البيت ونزل السقف، فلا أحد يعلم إلا الله كيف نجوت وكيف نجت حماة ها أنذا قد سميتها ولم أنتظر إذنك فسامحني يا أغلى الناس وبارك لبنتك باسمها واحمد الله على نجاتها من

الدبابة ومن الهيليكوبتر ومن الهاون حتى تحكي الحكاية بعدما تكبر وتتزوج ويصير لها ابن تسميه عنان وبنت تسميها سائدة.

كان يا ما كان في حاضر الزمان وقديم الأوان كان فيه مدينة اسمها حماة وكان فيها امرأة مستورة أنعم الله عليها بزوج نذر نفسه لدين الله، لكن الدنيا الغدارة المكارة قصفت المرأة كما قصفت مدينتها فما بقي في الحارة حارة ولا في العاصي ماء ولا غلق لدكان ولا كرسي لمقهى ولا بلاطة لرصيف ولا سارية لعلم ولا هلال لمئذنة ولا عش لعصفور ولا ساق لصفصافة، كل شيء انعجن يا حبيبي في كل شيء قبل أن تتبقع بالدم قضبان الحديد وأبواب الخشب وكتل الإسمنت وشبك الشبابيك وحجارة الزقاق وعمود الكهرباء حتى جرار الحبق التي كنت أرعاها لك انطحنت كما انطحنت «القطارمين» وخوابي الزيت والمخلل والصحون والطناجر والمرايا و«بوابير» الكاز وماكينة الخياطة ولحاف ابنك وسرير بنتك فالحمد لله أنك لم تكن بيننا ولم تر ما حلّ بنا وبالقلعة وبالحارة وبالنهر وبالسوق يا عنان يا حبيبي يا سيدي.

لكني رأيت ما لم تري يا سائدة وأنا أنط كأني رجعت ابن عشر سنين من الجسرية إلى النهر وإلى النهر من المأمورية

ومن البحصة ومن الدهشة ومن القاف ومن الجعبرية ومن الصهيونية حتى لا تعتب عليّ ناعورة لا في صغري ولا في كبري، ولكن لا وقت يا سائدة لي لأسبح ولا لأبحث عن الطفل الذي لم تريه يوم طهوره ولا يوم ختم المصحف ولا كيف كان يتبع ابن خاله فاخر من أول الصيف وغلْق المدارس إلى آخر الصيف وفتح المدارس، يتقافز مثل العصفور في سوق الطويل كأني كنت أعرف أنني سأشتري لك منه جهاز العرس يا أحلى عروس فلا تخجلي مني أنت حلالي وأنت من خفق قلبي لها من لحظة ما رأيتك أول مرة يوم رافقت واصف ورأيت اللاذقية أول مرة، أما الآن فلا أتمنى إلا أن أعود ذلك الطفل الذي يتبع ابن خاله فاخر إلى سوق الخميس وسوق الجمعة وسوق الغنم ويشتري «البسكليت» الجديدة وزوج الحمام الأبيض كأن ليس في البيت سرب من الحمام يحوم فوق القلعة وأنا لا تطيب لي الصلاة إلا مع ابن خالي فاخر في جامع أبي الفداء خصوصاً يوم الجمعة، وما كنت أعلم أن هذا الذي لم يكمل دراسته الإعدادية ولم يتزوج مع أنه دخل في الأربعين أو على أبوابها هو نفسه هذا الطويل الطويل النحيف النحيف كأنه قصبة أخي يقظان التي لم تعلق بها سمكة، وهو نفسه من سبقني إلى الجماعة وسبقني إلى الجهاد.

أنا على باب الله يا عنان ما صحّت لي وظيفة في منشأة الدواجن إلا بطلوع الروح وأنت لم تذق القهر الذي ذقته أنا وأخوك يقظان يوم جامع السلطان، يوم قصفوا المئذنة يوم الشهيد والشهيد والشهيد سنة ١٩٦٤ فإياك أن تنسى يا عنان يا أبناء العاصي إياكم أن تنسوا يا بنات العاصي من تنسى لا أصل لها ولا فصل كمن ينسى لا أصل له ولا فصل، ولكن يا ابني يا فاخر الله يهديك عفا الله عما مضى والحقد لا يولد إلاّ الحقد أبوك من أخّرني عن الجماعة يا عنان ولولاه لكنت سبقت الشيخ الشهيد مروان حديد طيب الله تراب قبره لماذا إذاً أبعد أبوك ويقظان إلى الشام إلا خوفاً من أيام مثل تلك الأيام قل لن يصيبكم إلا ما كتب الله لكم، أليس هذا ما كتب سبحانه جلّ جلاله ليقظان فكانت له الشهادة على جبل الشيخ ورفع رؤوسنا كلنا إلى عالي السماء رفع رأس حماة، فإلى متى كنت سأنتظر يا عنان قبل أن ألبي دعوة الداعي إلى الجماعة وأنت ما شاء الله من يستطيع أن يلحق بك من الضابط المجند إلى المهندس ومن كلية الطب البيطري إلى اللاذقية كم دعوت لك الله يسعدك في زواجك ويرزقك البنات والبنين ويهديك إلى دربنا لتجدني مع الأخ الذي تفضل عليّ فدعاني في وسط ساحة العاصي مرة وعلى جسر السرايا مرة وفي مسجد الأفندي مرة وفي

مقهى الأطلال مرة صار ابن خالك فاخر يجلس في المقهى أما مع من فلا تسأل ما عادت الأسماء تهمنا ولا الألقاب، ما عاد يهمني إلا أن ألبي الأمر فأنقل الرسالة إلى الشام بلا إجازة من الوظيفة لأن الأمر عاجل جداً وسري وخطير جداً، وأنا لا أسمع ولا أرى ولا أتكلم بل أسافر في آخر رحلة بالكرنك وقبل نصف الليل اهتديت بسهولة إلى جامع عبد الله بن رواحة مع أني لم أنم في الشام ليلتين طوال عمري لكن جلّ جلاله فتح بصري وبصيرتي وأنعم علي بلقاء الأخ الذي غيّر حياتي كما حكيت لك فور عودتي فأبرقت نظراتك وسخنت أنفاسك كأنك أنت من سافر وخاطر، لذلك خفت عليك حين طلب مني الإخوة أن أترك منشأة الدواجن وأن أترك حماة كلها وأنتقل إلى الجهاد في الشام.

بفضل سفيان يا ابن خالي وصلت إليك بعدما طال غيابك ولم تصدق أن عنان بلغ في الجماعة خلال سنتين ما لم تبلغه أنت ولا سفيان، ولكن الفضل لله ولعبده المجاهد ابن خالي أنت يا فاخر فكيف أنسى بيتك في العباسيين كلما طلب مني الإخوة أن أحضر إلى الشام وكيف أنسى شكواك من أبو ميسر شريكك في البيت الذي كنت أشبهه مرة بالحبس ومرة بأي مقر من المقرات العسكرية، لكنني ظننت أنك تغار من أبو ميسر

وترى نفسك أجدر بأن تكون على رأس كل عملية حتى استجاب مجيب الدعوات لدعائك ونيتك الصافية مثل قطر العاصي، نسيت كيف كان الشهيد يقظان يشبه الماء في النهر بالقطر أنا سمعتها منه وأبي كان يرويها عنه كلما زار قبر الشهيد صباح العيدين وبأول رمضان وبنصف شعبان وبلا مناسبة مرة يحكي لي كيف كان يقظان يغلبكم كلكم في لعبة القاموع وفي لعبة النبق وفي لعبة المستريحية وفي اللعبة الوحيدة التي علمتني إياها ماقينا ماقينا يا مطقطق الحجرينا ولما ضبطنا أبي ضحك وحيّاك وصفق لنا ولكن لما ضبطتنا أمي دعت لك الله يكبر عقلك وعيرتني أنت العاقل والمفتّح وابن المدارس، أنا هو يا أمي من يتبع ابن خاله حتى تعرف بلدك كنت تقول لي يا فاخر كيف فأتعجب كيف تفتل وتجعلني أفتل من جورة حوا أو العليليات إلى المحالبة أو البياض أو باب البلد ومن ومن إلى وإلى كم تمنيت يا سائدة أن أدور بك كما كان ابن خالي يدور بي حتى تعرفي حماة بعدما صارت مدينتك الأولى واللاذقية صارت مدينتك الثانية ولكن البركة بأم يقظان، وصيتي يا أمي عندك سائدة لو اشتهت لبن العصفور وصيتي يا أبي عندك سائدة لو طلبت حليب السنونو.

ما يلاقيه واحدنا يا عنان لا يترك له من البارحة ما يذكره

وأنت تعاتبني على النسيان، فلا أستطيع أن أدافع عن نفسي لأني ودعت الدنيا هذا الصباح بعدما توضأت وصليت ولاقيت الإخوة أمام السجل المدني حتى لو كان وسط البلد ووسط النهار فالأمر أمر اقتحموه ولا تؤذوا الموظفين والمراجعين إلا دفاعاً عن النفس وهاتوا ما تستطيعون حمله بلمح البصر من الهويات والأختام والصكوك ودفاتر العائلة فكل ما تأتون به سييسر على إخوتكم التنقل خصوصاً بعدما صار بين الحاجز الأمني والحاجز الأمني حاجز أمني، أما هذا المساء فقد ودعت الدنيا وخرجت بلا وضوء ولا صلاة لأن الأمر مفاجئ والفرصة من ذهب ومساكن برزة قريبة، خلّصونا من هذا المساعد كله شقفة مساعد حتى لو كان في المخابرات من أين له كل يوم بذلة ماركة ومن أين له كل هذه الحراسة وكل هذه السيارات، ها هو بإذن الله قادم إلى حتفه وبرقبته عشرة إذا لم يكن أكثر من دماء شهدائنا لذلك رصدناه ليل نهار من عيد المولد، وهذا المجرم يعرف ما ينتظره لذلك أرسل عائلته من قبل عيد الجلاء إلى جهنم الحمرا إلى أهله في جهنم الحمرا أينما كانوا، فاليوم يومك يا فاخر يا رب انصرنا على القوم الظالمين من أين جاءني هذا المغص بطني تتقطع والوقت يطول والمجرم لم يحضر اثبت يا فاخر واتل مما في صدرك من القرآن الكريم

يخفّ وجعك وابن خالك يا عنان مشتاق لك مشتاق لك يا حماة لا لن أقبل أن يرافق أحد غيري شحنة السلاح من القبو من باب الجابية عشرة رشاشات شناير وقناصة وأربي جي وعشر قذائف يكفي فالبيجو لا تستطيع أن تكتم عليك وعلى مرافقك وعلى السلاح إذا زاد الحمل، خزنوا يا عنان وتدربوا واستعدوا وأعدوا فاخر راجع بإذن الله قريباً بحمل مثل الحمل السابق، هذه مخاطرة يا ابن خالي أكبر من المخاطرة بأية عملية، الحواجز والدوريات مزروعة على طول الطريق من الشام إلى هنا وفي قلب البلد الحواجز والدوريات مزروعة، لابد من طريقة غير النقل من الشام بالبيجو ولا حتى بواسطة شركات الشحن اطمئن يا عنان كله محسوب حسابه دورية تشتريها سلفاً بالمال ودورية يبدلها من يوزع الدوريات ودورية فيها من هنا من إخوتنا أو قريب منا وما التوفيق إلا من عند الله، هذا ابن خالك فاخر يصلي العشاء اليوم في باب مصلى مع إخوته المجاهدين الأربعة الذين سبقوه إلى المسجد حتى يخرجوا فرادى ويلتقوا بعد مئة خطوة لا بعد مئة متر عند السيارة المرابطة في رأس الدوار إن شاء الله لن ينجو من عناصر هذه الدورية رأس ونحن أيضاً يا عنان استشهد منا مجاهدان والحمد لله جاءت إصابتي في ذراعي رصاصة وفي

رسغي رصاصة الأبالسة كأنهم كانوا ينتظروننا لم نفاجئهم واستماتوا في الرد علينا لكننا قضينا عليهم بعون الله لذلك ترى ذراعي ملفوفة وترى رسغي ملفوفاً فادع لي يا عنان بالشفاء وادع لإخوتك بالنصر آمين يا رب العالمين.

انقطعت أخبار فاخر يا سائدة كما انقطعت أخبارك، يا رب الهمني الصبر ما عدت قادراً على أن أتسلل لأكحّل عيني بالقلعة، هذه المرة أقصد قلعتك يا أبي أقصد قلعتك يا أمي أقصد غرفتنا يا سائدة غرفة الأولاد ووردداتك والبئر والتوتة والدالية والحمام الذي طفش قبل أن يقصفوا الحاضر كله وليس قلعتنا وحدها يا أبي ولا الحاضر وحده بعدما انكشفت مخابئنا في البارودية ولولا ذلك ما كنا وزعنا السلاح بهذه السرعة كنا انتظرنا حسب الخطة على الرغم من أن الانتظار طال حتى ما عاد بالإمكان تهدئة كثير من المجاهدين الشباب، فالمدارس أغلقنا منها الكثير وأغلقنا الكلية والمعهد والجدران ملأناها بالشعارات والمنشورات غطت حتى على وجه العاصي أنا بنفسي درت على المطابع واحدة واحدة الأهلية بجانب جامع السلطان لأبناء سلّورة ومقابلها المطبعة الحديثة لأبناء شكوة وغير بعيد عنها مطبعة الأندلس لأبناء عنان وفي ساحة العاصي درت على مطبعة العبيسي خلف سينما الفردوس وفي

حارتنا مطبعة السلام خلف المخفر ومنهم من رضي أن يطبع لنا لمرة واحدة ومنهم من رفض فهددته فأصرّ ومنهم من تطوع بطبع كل ما عندنا من المنشورات جزاه الله خيراً وما بقي في الدكاكين علبة دخان إلا أفرغت من السدائر لتمتلئ بهذه الحفنة من البودرة التي ستنفجر على هواها وأينما طاب لها فلا تبقى شعبة تجنيد ولا قسم شرطة إلا ويرتجّ، فإلى المتاريس سوّروا المساجد بالمتاريس اقطعوا الشوارع بالمتاريس ابدأوا بمقرات الحزب من الفرع للشعبة ومن الشعبة إلى الشبيبة إلى اتحاد الفلاحين والاتحاد النسائي ولا تنسوا بيوت البعثيين والشيوعيين والمخبرين، فهذا ما وعدت به مجلتنا منذ الصيف أيها الأنذال هيا ادخلوا جحوركم وانتظروا مصيركم أيها الأوغاد لقد جئناكم بالذبح بالذبح، هل تفهمون أيها السفلة أنا اعترضت على الذبح لا بسكين ولا بساطور ولا حتى بالسيف هذا الزمن زمن الرصاص لكن دماء المجاهدين تغلي والجنة تنادي فلا تحزني يا سائدة ولا تبكي ولا تندبي وتجمّلي بالصبر ولا تقلقي عليّ فأنا وسط أسرة كما لو كنت معكم والحمد لله رب العالمين.

من بعد رحيل فاخر تولى الأسرة أبو سامح أنا مهندس مثلك يا عنان لكنني مهندس مدني وتخرجت قبلك من جامعة

عين شمس في القاهرة حيث ضمني الإخوة إلى أسرة مثل هذه الأسرة ولم أكن جديداً لأنني انتسبت أول مرة إلى الجماعة سنة البكالوريا في ثانوية الكواكبي في حلب بفضل الأخ الذي كان يدرسنا الرياضيات، والذي تذكرني به أخي عنان أنت فسبحان من يخلق من الشبه أربعين كان في مثل عمرك أطول ولكن النظرة والصوت وحركات اليد هي هي ثم جمعني الله بأستاذي كما جمعني بك ولكن بعد ما رجعت من القاهرة وعملت في الطبقة في سد الفرات وبعدما ساقوني للخدمة الإلزامية هناك التقيت بأستاذي الذي كان يتوسط لتأجيل عسكريته كأنه كان ينتظرني ليضمني إلى أسرته في قلب مدرسة المدفعية فالفضل له جازاه الله بكل خير هو من أخذ بيدي أول مرة ثم أخذ بيدي للمرة الثانية، وبعدما أنهينا الخدمة الإلزامية توسّط لي حتى انتقلت من الرقة إلى هنا لأكون قريباً من أمي العجوز وأختي العاجزة بعدما زوّجت أصغر شقيقاتي وصارتا وحيدتين ما لهما إلا الله وأخوك أبو سامح الوحيد الذي وصله أستاذه بالجماعة، وكانت أول مهمة كبيرة لي خارج حماة هي الاتصال بجبهة الثوار المسلمين في حمص حيث اجتمعت بالأخ الأديب عبد الودود يوسف وقد تفضل فأهداني روايته (كانوا همجاً) وروايته (ثورة النساء) فألهب مشاعري بتصوير

الرواية الأولى لمجتمعنا وانقلابه الإسلامي في المستقبل كما ألهبت مشاعري الرواية الثانية بتصويرها ما يصيب المرأة في فرنسا من الفساد الذي سينتهي بثورة النساء الإسلامية، فياليت هذا الأديب المجاهد وأمثاله يكتبون لنا دائماً مثل هذه الروايات الإسلامية، وقد ولّاني أستاذي بعد مهمتي في حمص هذه الأسرة التي ستتولاها أخي عنان أثناء غيابي ولا تقلق ولا تكثر من الأسئلة لأن الأخ أبو سامح سيرافق أستاذه إلى عمّان وسوف يلتقيان بأخ أكبر وبأخ أكبر من الأخ الأكبر حتى يحضرا مئات الألاف من الليرات لا تقل عن ثلاثماية ولا تزيد على تسعماية كما سيحضران جوازات سفر لمن ولماذا لا تسأل لأن أبو سامح سيترك لك الأسرة ويتولى أسرة أكبر وأخطر فقط من العسكر، وبإذن الله سأقود بنفسي الهجوم على بناية الخبراء الروس الكفرة حتى ننال منهم وهذه كانت أمنيتي التي زرعها في أعماقي أستاذي منذ أيام ثانوية الكواكبي لذلك فرحت عندما سمعت أن الإخوة في حلب أحرقوا مكتبة دار الفجر المتخصصة بالكتب الروسية، هنا أيضاً هدفنا القادم هو مكتبة ميسلون العميلة للروس ومثلها مكتبة الزهراء.

عن أبو سامح عوضني الله بطَرَقْ يا سائدة هذا هو اسمه طَرَقْ على العكس من روحه السمحة ومزاجه الرائق دائماً،

حتى عندما كانت مكبرات الصوت تأمر الناس بإخلاء البيوت طبعاً استعداداً للمداهمة أو للهدم وأنا أفكر فيكم كلكم وفي حماة كلها وفيك أنت يا سائدة على وجه الخصوص بينما طَرَقْ يتذكر مما حفظ لوجيه البارودي:

تفنن البنات بالحجاب ألوانا
حتى غدا الحجاب كالجمال فتانا
من ضعفه باح فلم يبخل بما صانا
وضيع السر الذي من أجله كانا

وكنت أغضب فيهدئني ولا يعلم إلا الله كم هو العيش عسير على من كان مثلنا مكرهاً على أن يختفي بين أربعة جدران بعدما ضيّق الأمن الخناق، لذلك كنت أجد أحياناً في صحبة طَرَقْ ما يخفف عنا الكرب خصوصاً عندما يكون واحدنا مثل برميل بارود جاهز للانفجار فأنا غير طينتك يا عنان، أمي إلى هذا اليوم تنسج لك من القش أجمل جمومة وأجمل طبق وإلى هذا اليوم تغزل لك من الزلّ أحلى قفير، وأبي إلى اليوم موسم التين عنده موسم المواسم زعيبلي وسلطاني وتركي وأسود وأبيض وزيداني، فهل تعرف أي صنف هو الأفضل لترققه أصابعك وتملأ به السطح تحت الندى وتحت الشمس حتى يطيب لليلة أبرد من هذه الليلة وأطول وأعتم، سامحني يا

أبي سامحيني يا أمي نادى المنادى فما بقي لي في كوكنايا مقام ولكن كوكنايا في قلبي مثلك يا أمي ومثل أبي ومثل إخوتي ومثل جبل باريشا الذي ترك لنا خده الغربي ننام عليه وفي النهار نتسابق إلى قمته حتى نطل على الخرائب التي يأتي الغرباء إليها، ويقولون لنا هذه كانت كنيسة وهذه كانت معصرة زيتون وهذا كان برجاً نسميه نحن الخيمة، وهذا بيتنا كان في يوم من الأيام قصراً فلا تبطر يا طَرَقْ، أمرك يا أبي أنا تعلمت التجويد لأكسب رضاك لكني أخفيت عنك أن صديقك رشاد الذي قرأت القراءة الصحيحة على يديه هو من دعاني إلى الجماعة وهو من وصلني بأسرتي الجديدة قبل اعتقاله بفترة قصيرة ومنه حفظت النوادر والأشعار التي تغضب أخي عنان هداك الله يا أخي، فالدنيا لا تُعاش وأنت عابس ليل نهار حتى لو كنا مطلوبين ومتخفين، نحن البشر نضحك ونبكي ونغني ونمزح بكرة ننطلق فخلّنا نلاقِ ربنا بوجه بشوش.

طَرَق نفسه الذي عمره ما رفع صوته أمام والده كان يشكو لي أحياناً وهو يضحك من بخل والده حلاّب النملة يا عنان عدّاد عيدان الكبريت، أبي ينام وكفه مسكّرة إذا صدقت أمي وأمي بإذن الله صادقة كنا بقينا وحدنا بعدما تفرقنا واحد اعتقل واحد استشهد واحد انقطعت أخباره وما بقي له أثر في

المدينة يمكن ضعف وهرب، صرت أنا بحاجة إلى أن أشكو لطَرَقْ شوقي لكم يا سائدة شوقي لك وشوقي لابننا ولبنتنا التي كنت أرغب أن أختار لها اسمها بروية وأنت كنت مستعجلة على اسم أمك الله يرحمها يا ترى لو درى واصف بأني ما وافقت على اسم أمه للبنت ماذا كان سيقول لو يعرف أنني كنت نسيته تماماً حتى أول يوم من أيام التخفي في البيت الذي حدده أبو سامح مقابل جامع الحيات وكان الكمد أثقل على صدري، وإذا بصاحب البيت اسمه واصف قلت بيني وبين نفسي ما أحلى أن يكون لواصف هذا أخت اسمها سائدة إن الله على كل شيء قدير، ولو صحت هذه المصادفة فهل سأكون أنا عنان موسى الذي ترك بيته وأسرته من ساعات أم إنني عنان موسى آخر مثل واصف هذا الذي يكتب الشعر وقرأ لي أبياتاً في العامل وأبياتاً في الزارع وهذا أيضاً ذكرني بواصف، وما كنت أعرف أن مضيفي

ورث الإمامة في جامع الحيات عن أبيه كما ورث عنه معصرة زيتون ومعمل الحلاوة، ومثل أبيه تعلم واصف عند الشيخة أمون بنت عوض التي كانت تعلم البنات والصبيان معاً لكن أبو واصف كان يخطب في الجامع الكبير خطبة الجمعة فلا ينجو من لسانه مشعوذ أو صاحب بدعة أو ملاّك

من الملاّك الظالمين بل كان يدعو إلى تعليم النساء فغضب عليه كثيرون من الشيوخ ومن عامة الناس حتى قيل إنه كان عضواً في الحزب الشيوعي ولذلك أجبره ضابط الاستخبارات الفرنسية على أن يستنكر الشيوعية في خطبة الجمعة الأولى من رمضان ففعل فصار يقال شيخنا أبو واصف عضو في الحزب السوري القومي وفي اليوم الثاني صارحني الشيخ واصف أو واصف الحموي كما سميت مضيفي بأنه ليس من الجماعة ولكنه يقدم لهم ما أمكنه من العون، وعلى الرغم من أنه صدمني بهذا القول فقد استمالني وهو يحدثني عن حماة التي قدمت لسوريا رئيساً للجمهورية، يقصد أديب الشيشكلي، قلت له ولكنه ديكتاتور قال الكراسي والعروش غرارة لكن الرجل كان ضابطاً وطنياً، ثم انتقل إلى من قدمت حماة أيضاً لسورية أكرم الحوراني يا أخ عنان الذي وصل إلى مرتبة نائب جمال عبد الناصر ثم ذكر نجيب السراج و غالب طيفور وألفريد جورجيادس وتوفيق حمدون قلت حتى بالمطربين يفتخر كأنه ورث هذا أيضاً عن أبيه الذي كان مولعاً بصوت الحاج أحمد هدله وكان مشجعاً للنادي الموسيقي الرياضي الذي زاره محمد عبد الوهاب بنفسه، وكبّر أبو واصف تكبيرة بعد تكبيرة عندما سمعه فلا بدّ أن ما جعل واصف أقصد مضيفي يتابع

افتخاره بتشجيعه لنادي الفارابي للموسيقا والتمثيل ونادي الرابطة الفنية والنادي التمثيلي الفني فتعجبت ما بقي إلا النادي السينمائي كيف لم تشجعه قال أنا كبرت يا أخي وهذا النادي جديد ولم يكن لي بالسينما صلة، فأين أنت يا فاخر لندور في ساحة العاصي من سينما الشرق إلى سينما الأمير ومن سينما الفردوس إلى سينما حماة دون أن نجرؤ على الدخول بل نغض البصر حتى لا نرى فتنة الشيطان المعلقة فوق الأبواب وعلى جانبيها، وبعد أن تكون سيقاننا تراخت نبدأ السباق من الساحة إلى الملعب والتعاون والحسينيات حتى المنطقة الصناعية لماذا الله وحده يعلم، وواصف أقصد مضيفي يتابع افتخاره بالشيخ الشهيد مروان حديد ويسألني مازحاً ما قصة المهندسين مع السياسة في هذه الأيام تظاهرت أني لم أفهم السؤال فعدد الشيخ الشهيد، وأنت يا أخ عنان وفي اللاذقية على ما علمت مهندس من العلويين على رأس حزب جديد معارض ولكنه علماني قلت تقصد رابطة العمل الشيوعي قال كلكم شباب حيّا الله الشباب فاستغربت أن يجمعنا ولو بتحية أنا والشيخ مروان مع المهندس العلوي ولم يفته استغرابي فتابع يحذرني كما حذر كل من التقى من الجماعة من الطائفية وحذرني من أن الدنيا قلابة وذكّرني

بأن البعثيين بقيادة أكرم الحوراني نجحوا في جميع مقاعد حماة في البرلمان بعد الإطاحة بأديب الشيشكلي سنة ١٩٥٤ لأنهم لم يكونوا لطائفة واحدة بل كانوا لجميع الطوائف. وقد تذكرت كل هذا عندما سمعت باختفاء أستاذ وشاعر علوي هو حسن الخير بسبب قصيدة كتبها بعد معركة حماة وأحضر لي أحد الإخوة نسخة مصورة من القصيدة التي هجانا فيها كما هجا السلطة لكنني متأكد من أنه لا علاقة لنا باختفائه كما روّج أعداؤنا، وقد تذكرت كل هذا أيضاً عندما علمت بقصيدة كتبها شاعر آخر من إحدى قرى جبلة هي عين شقاق والشاعر هو نديم محمد فتعجبت لأن السلطة لم تعاقبه على قصيدته مع أنها أقسى من قصيدة حسن الخير ولنا فيها من الهجاء نصيب.

تلك الليلة رأيتك في المنام اللهم صلّ على خير الأنام تركضين من زقاق إلى زقاق، ولم أعرف في أية حارة كنت تركضين ليس في الحاضر أظن في الطوافرة أو الباشورة بل في الحميدية أو الشريعة بل في بين الحيرين أو الزنبقي أو المناخ، فما الذي ذهب بك إلى هناك ولماذا تركضين ورأسك مكشوف أظن أنك كنت حافية، أين ابننا وبنتنا يا سائدة البنت على حضني يا حبيبي وسيدي والولد في حضن جده تحت

ركام السقف والجدران وحجابي تمزق لكنني لست حافية ولكن بيننا من هي حافية فادع لنا لعل الله ينجينا ونخرج من هذا الجحيم، هويتك يا حرمة ناولته الهوية لكن الولد سأل والمضروبة من تكون بنتي يا أخي هاتي دفتر العائلة نسيته يا أخي كيف أعرف أنها بنتك يا ويلك من يوم ربك يا ويلك وسواد ليلك يا سائدة عسكري صغير ووجهه منوّر ما الذي سوّد قلبه على العكس من كل الحواجز التي اجتزناها حتى خرجنا على طريق حلب شباب مثله صغار عيونهم ذابلة من السهر والتعب، أخفى أصواتهم من الوحدات الخاصة من سرايا الدفاع من المخابرات من غيرهم إذا كنت لم أعرف من منهم واجهت في المدينة فكيف سأعرفهم هنا ونحن إلى أين نسير لا سيارة ولا حمار ولا طيارة ولا عابر سبيل، واحدة تقول نطلع إلى الجبل ونلجأ إلى علي زين العابدين أين أنت يا أم يقظان وسفيان وعنان لتلبي رجائي هذه المرة بأن تأخذيني إلى المقام، لكن زوار هذا المقام من العلويين ومن الشيعة انتبهي ومن غيرهم، أنت قلت يا أبو يقظان وسفيان وعنان وأنا دائخة وجائعة وخائفة والبنت مثلي وهذا السرب، لكن رحمة ربك واسعة وبفضل رضاك ودعاك يا حبيبي ويا سيدي ها أنا مع بنتك في البيت الذي شاهدتني فيه أول مرة بين شفق ورمزية

وثريا وصفا وعمرو ويزن لكن الدنيا كلها «قفرا نفرا» وخرابة من دونك فكيف إذا خلت من حبيبي وسيدي ومن واصف أخي ونور عيني؟

ما هي حقيقة موت واصف؟

قال يزن وقد نفد صبره:

ـ ما داموا هم قد طلبوني فقد أكون مراقَباً، وهذا يعني أنك ستكونين في خطر إذا سافرت معي. أرجوك بلا عناد.

لكن رمزية لم تنثن. ومثله حاول أبوها، فكأنما زادها إصراراً:

ـ أين ستنامين؟

سأل الأثرم وهو يداعب شعر ثريا الواجمة.

ـ عند شفق.

قالت ونظراتها تحاصر يزن، فأسرع بالقول:

ـ شفق تسكن مع زميلتين في غرفة واحدة، تعرفين.

وقال الأثرم مؤيداً:

حتى لو كان في الغرفة متسع، الاستضافة ممنوعة في المدينة الجامعية.

قال يزن راجياً:

ـ ابقي مع سائدة. سائدة كما ترين بحاجة إلى من يواسيها ويسندها.

قالت رمزية وهي تنقل نظراتها بين الرجلين:

- من ناحية سائدة البركة بصفا، ومن ناحية النوم في الشام أنزل في «الأوتيل».

فطأطأ يزن مستسلماً، وتبسم ساخراً مما رسم من النزول في بيت فواز وفطمة. ثم غلب عليه الصمت أثناء وداع سائدة وصفا فيما تبقى من السهرة، وطوال الطريق إلى الشام، كأنْ ليست برفقته هذه التي ستقف إلى جانبه أمام مدخل صغير لعمارة صغيرة وقديمة وكالحة، وتنتظر مثله الإذن بالدخول، وتتحاشى أن تنظر إليه كما يتحاشى النظر إليها، حتى إذا عاد الحارس بالسماح ليزن فقط بالدخول، طأطأ يزن آسفاً على ما كان من غبائه وغباء رمزية وغباء الأثرم، فالمطلوب من أجل واصف هو أخوه فقط، ولن يسمح لك يا مدام بالدخول مهما رجوت أو غضبت، قفي على الرصيف المقابل، ولكن ليس بمواجهتي: أمر الحارس بغلظة، أو عودي إلى الأوتيل: أمر يزن بغلظة أيضاً، وأسرع بالدخول.

في بهو صغير تلتمع جدرانه بانعكاس النيون على طلائها الزيتي، وقف يزن حتى خدرت ساقاه قبل أن يقوده شاب أنيق ومعطّر إلى الطابق الثاني، حيث أشار بالوقوف أمام بابٍ أبنوسي تتصدره لوحة نحاسية تعلن: رئيس الفرع. وبينما كان يفكر في أن يختار اسماً لهذا الفرع الذي لا يعرف عنه إلا

الرقم المسجل في الدعوة بالحضور، انفتح الباب على سعته، وصُعِقَ يزن.

في العمق ظهر ابن فتكة واقفاً ومبتسماً. ولما حرنت ساقا يزن في الباب خاطبه بمودة:

ـ ادخل يا جار الرضا.

لكن غيثاء هي التي كانت تخصك بهذا النداء: يا جار الرضا، فهل تكون فضحتك أمام زوجها: فكر يزن فتيبس حلقه، بينما كان ابن فتكة يدعوه برقة:

ـ تفضل أستاذ يزن، ما بك؟

وعلى الرغم أن ابن فتكة عانقه، وقبّل خديه، وجلس قبالته، وأمر له بالقهوة فوراً، وسأله عن صفا وعن عمرو، فقد ظل يزن مصعوقاً، حتى سمع ابن فتكة يقسم بالجيرة التي لا تُنسى على أن غيثاء مشتاقة لكم. عندئذٍ صحا يزن على أن النقيب معين ابن فتكة قد صار المقدم معين ابن فتكة، وأنه نُقِلَ من حلب إلى هذا الفرع رقم هل هذا هو الرقم المسجل في الدعوة؟ ذي المهمات الصعبة في هذه الظروف الصعبة: قال الجارالذي تلونت أصابعه وظاهر كفيه بلون الشمع هل كانت كذلك في زمن حلب؟ وهو ينتقل من الكنبة إلى كرسيه خلف المكتب، ولم يكد يهدأ لسانه من بعد. كان بالأحرى يسامر يزن، متمهلاً

ومستطرداً وودوداً، كأنْ لا عمل له إلا السمر، حتى وهو يرد على الهاتف. وبعد لأيٍ قال ابن فتكة:

- لا أظنك نسيت زميلك الأستاذ صهيب عبد المنان في دار المعلمين.

- كيف أستطيع أن أنساه بعدما كشفت لي المستور منه؟

- أي زميل هذا الذي يخطط لاغتيال زميله ويحرض عليه، ومن يدري، ربما يشارك فيه؟ هل تذكر الأستاذ صدر الدين حسنية؟

- طبعاً أذكره. أستاذ الجغرافية.

- زميلك في ثانوية الحسن بن الهيثم.

صدر الدين من أول من تعرفت عليهم في بداية عملي في حلب.

- لن أسألك ماذا تعرف عنه، بل ماذا تذكر منه؟

تردد يزن في الجواب مغالباً استغرابه واستياءه: هل طلبتني لتسألني عما نسيته؟ هل هذا تحقيق؟ وما علاقته بواصف؟

وربما لم يفت ذلك ابن فتكة،إذ لم ينتظر جواب يزن، بل قال، بعدما أمر الحاجب بالشاي:

- كان خريجاً جديداً مثلك، ولكن من جامعة بيروت العربية. صح؟

- صح.

- وكانت ذقنه ناعمة دائماً، وألوان ثيابه زاهية. هل كان فيه ما يوحي أنه من عصابة الإخوان المسلمين؟

- لا.

- لكنه كان. ومن ضمه للجماعة هو الأستاذ صهيب نفسه. كان يصادفه على موقف الباص، يجلس إلى جانبه في الباص، يتودد إليه، ثم دعاه إلى سماع الأحاديث الدينية بعد صلاة العشاء في جامع أبي ذر، وبعد مدة دعاه إلى الجماعة، ولم يطلب منه أن يبدل في هندامه أو سلوكه، أنا بنفسي حققت مع صدر الدين، ومن لسانه سمعت هذا كله، وكله غير مهم، هل تعرف ما بعد ذلك؟

- من أين لي أن أعرف؟

- نسيت أنك كنت انتقلت إلى اللاذقية. ولكن حتى لو لم تنتقل، ما كان لك أن تعرف التتمة. الأستاذ صدر الدين انضم في البداية إلى أسرة من طلاب وأساتذة الثانوية نفسها، من طلابك وزملائك يا أستاذ يزن. بعد فترة قصيرة كلفوه بالمراسلات، بالبريد، وبعد فترة صارت مهمته أن يوصل المساعدات لأسر من اعتقلناهم من العصابة.

قطع الهاتف حديث ابن فتكة. ولاحظ يزن أنه طوال الاتصال لم ينطق بحرف، بل نظر إلى ساعته وهو مصغٍ إلى من يكلمه،

ثم أعاد السماعة إلى موضعها، ومسحت نظراته لوح الزجاج الذي يغطي سطح المكتب الفسيح بأناة، قبل أن يتناول واحداً من كومة المصنفات النحيفة المحاذية لمجموعة الهواتف. وبأناة أيضاً قلّب فيما يخبئ المصنف الأبيض ثم مد يده به إلى يزن قائلاً:

الآن سأتركك مع هذا المصنف. ادخل إلى هذه الغرفة وخذ راحتك. اطلب من الحاجب أي مشروب ترغب، حتى لو رغبت بكأس وسكي أو زجاجة بيرة لا تتردد في الطلب. سأغيب عنك من ساعة إلى ساعتين.

تناول يزن المصنف متردداً وهو يفكر في رمزية. وقبل أن يعبر به ابن فتكة فتح باباً جانبياً لتظهرمن الغرفة المجاورة طاولة اجتماعات وكراسٍ حولها. وقبل أن يخرج أسرع يزن نحوه مذكراً بواصف، فقال ابن فتكة لائماً:

- ما كان لك أن تصطحب زوجته.

ابتلع يزن الدهشة بعسر، بينما تابع ابن فتكة مشفقاً:

- أنت أذكى من أن تعتقد أنني لا أعرف أنها واقفة على الرصيف. سأبعث لها بمن يوصلها إلى «الأوتيل». لو أن غيثاء ليست مدعوة إلى الغداء كنت أرسلت مدام رمزية إلى البيت، كنا تناولنا الغداء كلنا في البيت، وكانت غيثاء ستسّر بك. بعد

عودتي أنت مدعو للغداء في مطعم الشرق، وإذا رأيت حضور مدام رمزية مناسباً فأهلاً وسهلاً. «يللّه» الغرفة تنتظرك. أغلق الباب خلفك.

وخرج مخلفاً الحاجب ملء الباب، فأطرق يزن متمنياً لو أن الحاجب يغيب قليلاً كي يتأمل مكتب ابن فتكة: الخزائن والنوافذ والصور الكبيرة والصغيرة والجدران والثريا، والباقي لم تدركه نظرات يزن الخاطفة قبل أن ينتقل إلى الغرفة الجانبية، وتسبق يد الحاجب يده لغلق الباب، فيقف ثواني ليداهمه الشعور بأنه معتقل، أو على الأقل شبه معتقل، فيضاعف قلبه الخفقان، ولا يهدأ حتى تستغرقه الورقة الأولى من المصنف، بعدما قرأ في نصفها الأعلى ما كان ابن فتكة يتحدث به عن صدر الدين حسنية:

«ثالثاً بعد ستة أشهر تقريباً حضر الأخ نائب المراقب العام وكلفني بمركز حلب. هذا المركز لا علاقة له بالإخوة في الطليعة المقاتلة.

رابعاً أنا واحد ممن أملوا بالعفو العام وإلقاء السلاح وكل ما جاء في مبادرة رئيس الجمهورية للخروج من الحالة الدموية المستعصية التي وصلت إليها بلادنا.

خامساً بعد مدة تبين أن الاستجابة للمبادرة ضعيفة، بل

مستحيلة، لذلك تقدمت بطلب الإحالة على الاستيداع ووافقت عليه الوزارة، وبدأت أستعد للسفر إلى السعودية والعمل فيها كمدرس، وليس لأسباب مادية، بل أساساً لأنني تعبت بل ويئست.

لذلك قدمت استقالتي من الجماعة فأوصى لي الأخ نائب المراقب العام بتسيير أمور المركز فترة إلى أن يحل محلي أحد الإخوة.

في هذه الفترة من الانتظار جاءني تكليف من الأخ النائب باستلام الأمانات التي يحضرها لي المراسل بيننا الأخ سفيان موسى، وتخزين قسم منها في جامع الميدان وقسم في جامع أبي ذر، فساورني الشك بأن الأمانات سلاح لذلك رفضت التكليف فنالني تعنيف شديد، بل هو تهديد. لذلك نفذت التكليف ونقلت الأمانات بسيارتي من بيت أحد الإخوة في الجميلية وأنا لا أعرفه. ولكن الأخ سفيان موسى يعرفه وهو من جمعني به. خزنت الأمانة في جامع الميدان وفي موعد استلامي الأمانة الثانية من المكان نفسه حاصرتنا»

وضع يزن الورقة جانباً وانتقل إلى الورقة الثانية، لكنه فوجئ بما تعنونت به: إفادة المجرم سفيان موسى، فعاد إلى الورقة السابقة ليتأكد من أنها تتطلب تتمة، ثم عاد إلى الورقة

الجديدة ليفتقد التتمة، ولينهب السطور الأولى التي يعرف فيها سفيان بنفسه، وليس فيها ما لا يعرفه يزن عنه: أخوك يا عنان لم ينس اسم أختي سائدة في إفادته: همهم وقد بدأ يقرأ ببطء، وبفضول أكبر فأكبر:

«انتسبت إلى الجماعة في مدينتي حماة قبل أن يبعدني أبي أنا وأخي الشهيد يقظان موسى تغمده الله بواسع رحمته. وكان انتسابي على يد أستاذي وصديق والدي الشيخ سعيد حوّى. انتساب أخي يقظان كان على يدي. بعد شهور من إقامتي في الشام توليت أسرة من طلاب كلية العلوم الطبيعية. بعد شهور قليلة أظن ثلاثة أو أربعة أشهر اعتقل ثلاثة طلاب من الأسرة وكان واحد منهم يعرف البيت الذي أسكن فيه، فما كان أمامي إلا أن أتخفى. انتقلت إلى بيت أخ في القدم واسمه أبو قصي. لا أعرف اسمه الكامل. بقيت عنده حتى دبرلي الإخوة بيتاً مستقلاً في الطبالة من غرفتين وصالون وفيه أثاث جيد. أحياناً كان يحضر إلى البيت أخ أو أكثر من المطلوبين والمتخفين وينامون في البيت عدة أيام ولكن ليس لفترة طويلة. في هذه الفترة كلفني الإخوة بالسفر إلى عمان وهناك التقيت بالشيخ سعيد وغيره وحملوني ٢٥٠٠٠ مارك كلها من فئة الخمسماية لأسلمها إلى نائب المراقب العام وهذا ما كان.

في هذه الآونة كانت قد بدأت محاكمة عدد كبير من الإخوة المعتقلين في محكمة أمن الدولة العليا. تابعت المحاكمة من جريدة تشرين التي كنت أشتريها كل يوم. كما تابعت المحاكمة من الإذاعة والتلفزيون حيث كان في البيت راديو ترانزستور وتلفزيون توشيبا تهريب.

عندما صدرت الأحكام تأثرت جداً جداً ولا أعرف ما الذي جرى لي. أحكام بالإعدام بالجملة وأكثر المحكومين من مدينتي من حماة وأنا أعرف الجميع. منهم من كان له دور في أول اغتيال وهو اغتيال الرائد محمد غرة عندنا في حماة. كما كان بين المحكومين من قام باغتيال المقدم أحمد خليل وأنا لا أنكر أنه كان منهم من يجاهر بالطائفية ومنهم من كان من إخوة الطفولة، نسبح في العاصي ونصلي جماعة خصوصاً في جامع أبي الفداء وكذلك في غيره. لذلك قررت أن أعمل مع الإخوة في الطليعة المقاتلة وأترك لغيري المهمات الصغيرة التي كنت أؤديها مثل جمع التبرعات من تجار الحريقة وما شاكل.

صباح يوم الخميس سمعت من الراديو أنه تم تنفيذ الإعدام شنقاً في السجن المركزي ما عدا واحداً رمياً بالرصاص لأنه عسكري، فاسودت الدنيا في عيني وصرت أطالب وألح بتكليفي

بأصعب المهمات. إلا أن المهمة الأولى».

وضع يزن الورقة فوق سابقتها، لكنه فوجئ بأن الورقة الثالثة بيضاء، ومثلها الرابعة والخامسة حتى آخر ورقة، فأعاد الورقتين المكتوبتين إلى المصنف، واستغرق في التفكير فيما قد يكون ابن فتكة رمى إليه: ماذا يعني أن يكون صدر الدين حسنية زميلي منذ سنوات؟ ماذا يعني أن سفيان موسى هو شقيق عنان موسى؟ ماذا يعني أن يكون عنان نفسه زوج أختي سائدة؟ إذا كان ابن فتكة يعلم أن رمزية واقفة على الرصيف، فهل يعقل أنه لا يعلم بالجفاء الذي بيننا أنا وواصف وبين عنان؟ لماذا هذه الأوراق البيضاء؟ هل يريدني أن أكتب شيئاً؟ هل نسي أن يطلب مني ذلك؟ إذاً هو طلبني للتحقيق، وإن يكن من بلغني بطلب الحضور إلى هنا قد ذكر واصف. والآن، ما عاد ليزن إلا أن يمطط الوقت بانتظار عودة ابن فتكة، مستعيناً بالمصنف نفسه، بنصاعة الطاولة، ببياض الستائر، بالنافذة المخفية، بالعمودين الخشبيين لتعليق الثياب، بالثريا التي قد تكون أكبر أو أصغر من شقيقتها التي في مكتب ابن فتكة: لا يستطيع يزن أن يجزم ولا يجرؤ على أن يفتح الباب، ولا على أن يعاتب ابن فتكة على رميته هذه في هذه الغرفة التي أكملت في أقل من ساعة تحولها إلى مكان للحبس المؤقت، ولبثتْ

تنتظر مثل المحبوس فيها عودة من حبسه.

لكن يزن سينسى ذلك كله عندما يعود ابن فتكة، ويعتذر عن التأخر، ويتناول المصنف من يزن، وما إن يفتحه حتى يغلقه وينظر إلى يزن، ثم ينفجر بالضحك، ثم يبتر ضحكته، ويسرع إلى البحث في كومة المصنفات كلها بيضاء قائلاً:

آسف يا استاذ يزن. أعطيتك هذا المصنف خطأ. ليس هذا ما أردت أن تقرأ، بل وأن تأخذه لك. عندي هنا. مصنف أحضرته خصيصاً لك.

وصمت حتى عثر على المصنف المطلوب، وفتحه وتأكد من أنه لم يخطئ هذه المرة، ومدّ يده بالمصنف إلى يزن مبتسماً، وقال:

هذه صورة عن الأوراق المكتوبة في دفتر صودر من الشاليه عندما اعتقلوا واصف، وهي قليلة. قدّرت أنه يهمك أن تحتفظ بها.

تناول يزن المصنف بلهفة، وهمّ بفتحه، لكن ابن فتكة توجه نحو الباب قائلاً:

فيما بعد تقرأ على مهلك. الآن إلى الغداء. ما جعت؟

مشى يزن منقاداً، وبارق من الغبطة يلوح له، بينما أصابعه تتمسح بالمصنف، وربما كان ذلك ما جعل لسانه يلهج بالقول:

ـ ظننت أنني سأرى واصف قبل الغداء.

ـ لا أنا ولا أنت يمكن لنا أن نرى واصف.

قال ابن فتكة بلهجة مريبة، فتسمّر يزن، ولم يستطع أن يتحرك حتى التفت إليه ابن فتكة، وحدق فيه ملياً، ثم قال:

ـ أخذت مدام رمزية معي إلى الأوتيل. قلت لها: أنا والأستاذ يزن وزوجتي ومدام صفا كنا في حلب، وأننا أصدقاء. أرهقتني طوال الطريق، كأنها صارت هي المحقق وأنا المتهم: أين واصف؟ متى أراه؟ لماذا اعتقلته؟ قلت لها يا أختي أنا ما اعتقلته ولا لي علاقة به. أخطأت وقلت: كل ما في الأمر أنني سمعت بعض أخبار واصف فأردت نقلها للأستاذ يزن. وبدأت الموشح: ماذا سمعت؟ أومأت إلى السائق لأنبهها إلى أننا لسنا وحدنا. تابعت الموشح. بصراحة أزعجتني ولذلك قسوت عليها. كان يجب أن تقدر أنني رئيس الفرع. السائق الذي جاء بها من الرصيف إلى السيارة قال لها من أكون أم لا؟ كان يجب أن تقدر أن رئيس الفرع يوصلها بنفسه إلى الأوتيل. سكتتْ أخيراً، وفكرت أن الأفضل أن تعود فوراً إلى اللاذقية، لذلك قلت للسائق دون أن أستشيرها: اطلب للمدام سيارة تأخذها من الأوتيل إلى الكرنك. بلّغ سائق السيارة ألاّ يترك المدام حتى تسافر. علا صوتها: وواصف؟ قلت للسائق: إلى اللاذقية. علا

صوتها: ويزن؟ اعتقلته هو الآخر؟ لم أرد. قالت: لن أسافر. قلت ستسافرين. قالت: لن أسافر. هل ستعتقلني مثل غيري؟ لم أرد. كيف استطاع أخوك أن يعيش مع هذه المرأة؟

كانت عينا يزن مثل أذنيه معلقتين بشفتي ابن فتكة. وبعد ما اكتشف أن الشفتين انطبقتا، همس:

- أين هي الآن؟

- إما في كراج الكرنك أو في الطريق.

قال ابن فتكة ببرود، فتساءل يزن هامساً، كأنه يخاطب نفسه:

- لماذا هذا كله؟

أجاب ابن فتكة وهو يبدل محطات راديو السيارة:

- بعد الغداء ستعرف.

فخلد يزن إلى الصمت، وأصغى طوال الطريق، مثل ابن فتكة، لنشرة أخبار الظهيرة من إذاعة دمشق. ثم أصغى لابن فتكة الذي لم يهدأ لسانه من بعد، إلا ليغبّ من كأس البيرة غبّة، أو ليتناول لقمة: خذ كأس ويسكي، لابد أن تشرب، طوال جيرتنا لم نشرب، لا في بيتك ولا في بيتي، أكثر من فنجان قهوة. من الآن فصاعداً يجب أن نلتقي. اشتريت بيتاً في جبلة. تعرف أنني وغيثاء من جبلة. وجبلة واللاذقية جيران، نحن

وأنتم رجعنا كما كنا في حلب: جيران.
وفجأة سأل:
- هل تعرف الأستاذ حسن الخير؟
- لا.
- مع أنكما في مدينة واحدة، وهو مدرس مثلك.
- سمعت به. سمعت أنه شاعر من القرداحة.
- إذاً أنت تعرف قصيدته التي كتبها بعد أحداث حماة المؤسفة؟
- سمعت بها، لكنني لا أعرفها.
- اسمع إذاً كيف ساوى فيها بيننا وبين الإخوان المسلمين:

عصابتان هما إحداهما حكمتْ
باسم العروبة لا بعثٌ ولا عربُ
وآخرون لباس الدين قد لبسوا
والله يكره ما قالوا وما ارتكبوا

ما رأيك؟
- بماذا؟
- بالقصيدة.

- يُقال إنه اختفى بسببها. سمعت أنه كان يسكن قريباً منا.

- العصابات اختطفته يا أستاذ يزن. رحمه الله.

- مات؟

- رحمه الله. ولكن قل لي يا أستاذ يزن: ما رأيك بما نحن فيه؟

ولأن يزن نظر مشدوهاً ومستنكراً، كرر ابن فتكة السؤال، فحاص يزن، ولجأ إلى كأس البيرة، ثم أخذ ينتزع كلماته انتزاعاً:

- هذا العنف كله غير معقول.

- عن أي عنف تتحدث؟

- عما نعيش من سنتين أو ثلاث. ما جرى مثلاً في حماة غير معقول.

- وما فعلته عصابات المسلحين في حماة وفي غير حماة، ماذا تقول عنه؟ معقول؟

- كله غير معقول.

وفجأة أيضاً سأل ابن فتكة:

- ما أخبار صهرك عنان؟

ونظر يزن ثانية مشدوهاً ومستنكراً، لكن ابن فتكة لم يكرر السؤال، فلم يحصْ يزن، ولم يلجأ إلى البيرة، بل همس ساخراً:

- الأخبار عندك.

قال ابن فتكة بجدية:

- ما دام عنان ليس بين من استسلموا، وليس بين من قبضنا عليهم، فلا بد أن يكون قد قُتِل.

- يمكن أن يكون متخفياً.

قال يزن كمن يتحدى، فقال ابن فتكة كمن يرد التحدي:

- لم يبق متخف منهم. ولكن قل لي يا أستاذ يزن: كيف ترى المستقبل؟

بعد صمت قصير، قال يزن كمن قرر أن يتراجع عن المبارزة:

- هذا العنف سيورث الأحقاد. سيلوث المستقبل ويعقّده عشرات السنين، حتى لو صارت

سورية الجنة الموعودة بعد ساعة.

بدا ابن فتكة كمن يشغله شاغل، فيرمي بأسئلته جزافاً، وقال:

- لابد أنك سمعت بالتجمع الوطني الديمقراطي الذي شكله بعض المعارضين، أصدقاؤك أو رفاقك من الشيوعيين: المكتب السياسي، حلفاؤهم من الاتحاد الاشتراكي وغيرهم.

- سمعت.

- وقرأت بيان التجمع؟

- قرأت.

- ما رأيك؟

ـ هو أقل ما يمكن أن يقال، وكان اعتقالكم لهم وملاحقتهم غلطة كبيرة على الأقل. الاعتقال والملاحقة وكل هذه الأساليب لا تحل مشكلة.

إذاً أنت معهم. معهم أم منهم؟

ـ أظن أن الجواب بنعم يعني الاعتقال. ولكن هل أنجو لو قلت لك لست معهم ولا منهم؟

قال ابن فتكة وقد بدا كمن عزم على أن يرمي أخيراً بما يشغله:

ـ لا تذهب بعيداً. متى ستعود إلى اللاذقية؟

ـ الجواب عندك.

ـ اسمع يا أستاذ يزن جيداً. اسمعني بهدوء، ولا تنسَ أننا في مطعم الشرق. نصف من حولنا هم من المسؤولين. أقصد أن تبقى هادئاً مهما يكن ما ستسمعه مني. بحكم عملي عرفت باعتقال من خبأهم واصف في الشاليه، ومعهم جاره أبو زيزفونة. لا أستطيع أن أصدق أن إنساناً عاقلاً ومحترماً مثل واصف يمكن أن يتعاون مع مجرمين. كيف خدعوه وأقنعوه أنهم مناضلون؟ ما علمت به أيضاً أن الوضع الصحي لواصف كان سيئاً عندما اختطفوه من الشاليه. من تظن أنه ارتكب هذه الجريمة؟

ـ هل أفهم أنه ليس معتقلاً عندكم؟

ـ قلت لك اختطفوه.

ـ من هم؟

ـ من سيكونون إلا عصابات الإخوان؟

ـ في كل الفروع التي قصدتها لم تأت كلمة الخطف على لسان.

ـ لأنهم لا يعرفون. القضية محاطة بتكتّم شديد. قلت لك إني علمت بالموضوع بحكم موقعي. ولولاك ما اهتممت به. المهم الآن أن الجهات المختصة استطاعت أن تتعقب آثار الخاطفين، ولكن، للأسف، بعد فوات الأوان.

ـ ماذا تقصد؟

ـ واصف.

ـ ما به.

ـ رحمه الله، ولم أعلم بوفاته إلا يوم السبت.

فحّ يزن:

واصف مات؟

أمسك ابن فتكة بكف يزن وضغط عليها قائلاً:

ـ اهدأ يا يزن. واصف مات رحمه الله. وبسبب ظروف البلد قامت الجهات المختصة بواجب الدفن كما لو أنهم أنتم أهله.

بعدما علمت بالوفاة أخذت على عاتقي أن أخبرك، ولكن ليس هاتفياً، ولا بالوساطة. لو كنت أستطيع الذهاب إلى اللاذقية، لذهبت، حتى أخبرك، ولكن واحدنا لا يكاد يدخل بيته في هذه الظروف، لذلك طلبتك، وتعهدت نيابة عنك وعن أهلك بأنكم لن تقوموا بأي أمر يثير البلبلة.

أطرق يزن، وأطبقت كفاه على صدغيه، وسحج صوته:

- أين قبره؟

- ستعرف في الوقت المناسب.

قال ابن فتكة بلهجة حاسمة، كأنه ليس من كان يتحدث للتو برقة وحرارة. ولم يفت التبدل يزن، فحرر رأسه من كفيه وهو يسأل:

- أين قبر حسن الخير؟

- ماذا تقصد؟

انتفض يزن كمن يصحو من سُكْر، وتساءل:

- هل أفهم أنه ممنوع أن نقيم العزاء؟

قال ابن فتكة بحسم أوضح وأكبر:

- تقيمون العزاء فقط في البيت، وبحدود ضيقة. وأنا أول المعزين: عظم الله أجركم.

وربما كان سيضيف عبارة أو أكثر، لولا أن يزن نهض

بصعوبة، وجر خطواته نحو الباب،ولم يلتفت لابن فتكة عندما حاذاه، بل أصمّ عنه، حتى إذا بلغ الرصيف تذكر مصنف واصف الذي تركه في سيارة ابن فتكة، وهمّ بأن يطلبه، لكنّ قدميه أخذتا تنهبان الرصيف لتحرراه من رفقة ابن فتكة الذي أصرّ على ملازمته. ولما بلغ يزن الشارع الرئيسي توقف والتفت خلفاً، فإذا بابن فتكة يقترب، وفجأة دوّى انفجار هائل، وتطايرت في السماء وفي الأنحاء كافة أشلاء سيارات وبشر وشجر وحجر، واندلقت خوابٍ كثيرة من الأرجوان على الإسفلت.

البودي آب ٢٠١٢

نبيل سليمان - سيرة ذاتية

- ولد عام ١٩٤٥.
- تخرج في جامعة دمشق كلية الآداب قسم اللغة العربية عام ١٩٦٧.
- عمل في التدريس بين ١٩٦٣ و١٩٧٩.
- أسس دار الحوار للنشر والتوزيع عام ١٩٨٢ في اللاذقية.
- متفرغ للكتابة منذ عام ١٩٨٩.
- شارك وحاضر في العديد من المؤتمرات والندوات والجامعات، ومنها في: واشنطن سياتل أوستن إسبانيا السويد مصر تونس الجزائر المغرب اليمن الإمارات العربية المتحدة البحرين سلطنة عمان الكويت الأردن لبنان، وسورية.
- حاز على جائزة غالب هلسا للإبداع الثقافي (الأردن).
- حاز على جائزة باشراحيل للإبداع الروائي (القاهرة).

المؤلفات

أ. في الرواية:

١- ينداح الطوفان: ١٩٧٠م.
٢- السجن: ١٩٧٢ م.
٣- ثلج الصيف: ١٩٧٣م.
٤- جرماتي: ١٩٧٧م.
٥- المسلّة: ١٩٨٠م.
٦- هزائم مبكرة: ١٩٨٥م.
٧- قيس يبكي: ١٩٨٨م.
٨- مدارات الشرق: الجزء الأول: الأشرعة ١٩٩٠م.
٩- مدارات الشرق: الجزء الثاني: بنات نعش ١٩٩٠ م.
١٠- مدارات الشرق: الجزء الثالث: التيجان ١٩٩٣.
١١- مدارات الشرق: الجزء الرابع: الشقائق ١٩٩٣.
١٢- أطياف العرش: ١٩٩٥م.
١٣- مجاز العشق: ١٩٩٨م.
١٤- سمر الليالي: ٢٠٠٠.

١٥- في غيابها ٢٠٠٣.
١٦- درج الليل... درج النهار ٢٠٠٥.
١٧- دلعون ٢٠٠٦.
١٨- حجر السرائر ٢٠١٠.

ب. في النقد الأدبي والثقافي:

١. الأدب والأيديولوجيا في سورية (بالاشتراك مع بوعلي ياسين) ١٩٧٤م.
٢. أيديولوجية السلطة ١٩٧٧م.
٣. النقد الأدبي في سورية ١٩٨٢.
٤. مساهمة في نقد النقد الأدبي ١٩٨٢م.
٥. أسئلة الواقعية والالتزام ١٩٨٥م.
٦. وعي الذات والعالم ١٩٨٨م.
٧. الماركسية والتراث العربي الإسلامي ١٩٨٨م.
٨. في الإبداع والنقد ١٩٨٩م.
٩. فتنة السرد والنقد ١٩٩٤م.
١٠. سيرة القارئ: ١٩٩٦م.
١١. حوارات وشهادات: ١٩٩٥.
١٢. الثقافة بين السلام والظلام: ١٩٩٦.
١٣. حوارية الواقع والخطاب الروائي: ١٩٩٨.
١٤. بمثابة البيان الروائي: ١٩٩٨.
١٥. الرواية والحرب: ١٩٩٩.
١٦. الرواية العربية رسوم وقراءات: ١٩٩٩.
١٧. المتن المثلث: ١٩٩٩.
١٨. الكتابة والاستجابة: ٢٠٠٠.
١٩. أقواس في الحياة الثقافية ٢٠٠١.
٢٠. بدوي الجبل منتخبات: إعداد وتقديم، ٢٠٠٢.
٢١. كتاب الاحتفاء، ٢٠٠٣.
٢٢. جماليات وشواغل روائية، ٢٠٠٣.
٢٣. السيرة النصية والسيرة المجتمعية ٢٠٠٤.
٢٤. أسرار التخييل الروائي ٢٠٠٦.

٢٥. شهرزاد المعاصرة ٢٠٠٨.
٢٦. الرواية العربية والمجتمع المدني ٢٠١٠

الترجمات:

١- ترجمة (ينداح الطوفان) للروسية، وقام بالترجمة زغيرسكي وصدرت عن دار رادوغا عام ١٩٨٧.
٢- ترجمة (قيس يبكي) إلى الإسبانية وصدرت عن دار كانتا آرابيا في مدريد، عام ١٩٩٣ وقامت بالترجمة: بيلين فيرناندز ديل بينو وملك صهيوني.
٣- ترجم الجزء الأول من مدارات الشرق (الأشرعة) إلى الفارسية.
٤- نشرت مجلة باينبال (لندن) ترجمة فصول من رواية (درج الليل.. درج النهار) إلى الإنكليزية.

السينما والتلفزيون:

١- قصة (الغضب): المؤسسة العامة للسينما سورية ١٩٧٣.
٢- سيناريو الفيلم التلفزيوني (فهيم) التلفزيون السوري ١٩٨٥.
٣- عن رواية (أطياف العرش) أنتجت شركة الشام مسلسل (الطويبي) والفيلم السينمائي (الرسالة) عام ١٩٩٩.

دراسات حول أعمال الكاتب:

١- نحو ملحمة روائية عربية محسن يوسف ١٩٩١.
٢- الرواية والتاريخ محمد جمال باروت وعبد الرزاق عيد ١٩٩١.
٣- قراءات في تجربة روائية سمر روحي الفيصل ١٩٩٢.
٤- المعالجة الفنية للتاريخ محمد عادل عرب ١٩٩٣.
٥- الرواية بين النظرية والتطبيق راكز أحمد ١٩٩٤.
٦- فضاء النص الروائي في أدب نبيل سليمان محمد عزام ١٩٩٦.
٧- نبيل سليمان أو ربع قرن من الكتابة مجموعة ١٩٩٦.
٨- تشكل المكونات الروائية المويقن مصطفى ٢٠٠١.
٩- جماليات التشكيل الروائي محمد صابر عبيد وسوسن البياتي ٢٠٠٨.
١٠- الصائد الخفي ابراهيم محمود ٢٠١٠.

المحتويات

خابية الأرجوان تندلق على الإسفلت!	٩
أية رائحة أكبر فساداً وأذى ونفاذاً؟	٢٩
أنت في التاريخ... يا للجلال!	٤٢
ليلة تائهة	٤٧
لا فكاك لصفا	٦٢
أنت وأنا ضلالنا كبير يا بصْبص	٨٣
معراج الصداقة	٩٩
أنا كاتب بالقوة، وأنت كاتب بالحلم، من هو الكاتب بالفعل؟	١١٧
التنّين!	١٢٩
حكايات أبو حسيب وعبد والعراج	١٣٥
قبل أن يختفي واصف مباشرةً	١٥٥
ذات القرنين	١٥٩
مهرجان الجمعية	١٦٤
أسرار الاختفاء	١٧٣

١٨٤

دُوَار الفروع

١٩٧

من حكايات الخباص وسيرته

٢١١

الورقة الزرقاء تلفظ يزن وهو يلفظها

٢١٥

الأثرم يحكي حكايات أمه وعروسه والفهد

٢٢٢

رحلة صفا من فرع الحرية إلى السرير

٢٣٥

أشلاء حلبية

٢٥٤

لمسة الكعكة قد تُضحِك وقد تُبكي

٢٦٣

الحرية والكرامة شعار يصلح اليوم كما كان يصلح قبل عشرين سنة، أو كما يصلح بعد عشرين، بل بعد مائة وعشرين

٢٧٤

بعد السخرية، جاء من ينبش في الطائفية

٢٨٨

صوت: ما أنا فيه أمرّ من القهر

٣٠٠

هي مثل البرد... سبب كل علة

٣١١

تبدلات رمزية

٣١٧

العصف الحموي

٣٣٧

ما هي حقيقة موت واصف؟

٣٥٨

نبيل سليمان - سيرة ذاتية

كتاب «دبي الثقافية»
سلسلة دورية تصدر عن
مجلة دبي الثقافية

١- «نجيب محفوظ.. قيصر الرواية العربية» - ١٩٩٩.

٢- «سلطان العويس.. شمس الثقافة التي لا تغيب» - ٢٠٠٠.

٣- «المبدعون» - النصوص الفائزة في مسابقة «المبدعون» - الدورة الأولى - ٢٠٠١.

٤- «نازك الملائكة.. أميرة الشعر الحديث» - ٢٠٠١.

٥- «الرنين» - المجموعة الشعرية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للشاعر السوري أيمن إبراهيم معروف - ٢٠٠٢.

٦- «مدارج الرحيل» - الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للروائي المصري خالد أحمد السيد - ٢٠٠٢.

٧- «غشاوة» - المجموعة القصصية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للقاصة الإماراتية عائشة الزعابي - ٢٠٠٢.

٨- «حمد أبو شهاب في ذاكرة الإمارات» - ٢٠٠٢.

٩- «ليالي الحصار.. أحزان عراقية» - شعر - نصوص لشعراء العراق - فبراير ٢٠٠٣.

١٠- «السماء تخبئ أجراسها» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للشاعر المصري بشير رفعت - ٢٠٠٤.

١١- «تيار هواء» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتبة المغربية حنان درقاوي - ٢٠٠٤.

١٢- «الانكسار» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتب السوري عامر الدبك - ٢٠٠٤.

١٣- «البار الأمريكي» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب العراقي وارد بدر السالم.

١٤- «إلى الأبد.. و... يوم» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب السوري عادل محمود.

١٥- «قمر أور» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للشاعر العراقي عامر عاصي جبار..

١٦- «مقالات رجاء النقاش» في «دبي الثقافية» - ٢٠٠٨.

١٧- «ليس الماء وحده جواباً عن العطش» - أدونيس - أكتوبر ٢٠٠٨

١٨- «قصيدة النثر أو القصيدة الخرساء» - أحمد عبدالمعطي حجازي - نوفمبر - ٢٠٠٨

١٩- «مدارات في الثقافة والأدب» - عبد العزيز المقالح - ديسمبر - ٢٠٠٨

٢٠ - «من أنت أيها الملاك» - إبراهيم الكوني - يناير - ٢٠٠٩

٢١- «النقد الأدبي والهوية الثقافية» جابر عصفور- فبراير - ٢٠٠٩

٢٢- «قصائد من شعراء جائزة نوبل» اختارها وترجمها د.شهاب غانم - مارس- ٢٠٠٩

٢٣- «الأغاريد والعناقيد» - سيف محمد المري - أبريل - ٢٠٠٩

٢٤- «رواية الحرب اللبنانية.. مدخل ونماذج» - عبده وازن - مايو- ٢٠٠٩

٢٥- «هنا بغداد» - كريم العراقي - يونيو - ٢٠٠٩

٢٦- «أراجيح تغنّي للأطفال» - سليمان العيسى - يوليو - ٢٠٠٩

٢٧- «الحضارات الأولى - الأصول.. والأساطير» - تأليف/ غلين دانيال، ترجمة/ سعيد الغانمي - أغسطس - ٢٠٠٩

٢٨- «محمود درويش حالة شعرية» - صلاح فضل - سبتمبر - ٢٠٠٩

٢٩- «أنثى السراب (سْكْرِيبْتُوزْيُومْ)» - واسيني الاعرج - أكتوبر - ٢٠٠٩

٣٠- «حيثُ السحَرة ينادون بعضهَم بأسماء مُستعارة» - سيف الرحبي - نوفمبر - ٢٠٠٩

٣١- «في غيبوبة الذكرى» (دراسات في قصيدة الحداثة) - د. حاتم الصكر - ديسمبر - ٢٠٠٩

٣٢- «وليم شكسبير (سونيتات)» - د. كمال أبو ديب - يناير - ٢٠١٠

٣٣- «العمارة الإسلامية (من الصين إلى الأندلس)» - د. خالد عزب - فبراير - ٢٠١٠

٣٤ - «نحو وعي ثقافي جديد» - د. عبد السلام المسدّي - مارس - ٢٠١٠

٣٥ - «لكي ترسم صورة طائر وقصائد أخرى من الشرق والغرب» - اختارها وترجمها د. شهاب غانم - أبريل - ٢٠١٠

٣٦ - «السرْد والكِتاب» - محمد خضيّر - مايو - ٢٠١٠

٣٧ - «طائر الشعر» - سالم الزمر - يونيو - ٢٠١٠

٣٨ - «أنا والسوريالية» - ترجمة: أشرف أبو اليزيد - يوليو - ٢٠١٠

٣٩ - «الحراك الاجتماعي الكويتي في القصة القصيرة» - د. فاطمة يوسف العلي - أغسطس - ٢٠١٠

٤٠ - «فضاءٌ لغبار الطّلع»- أدونيس- سبتمبر - ٢٠١٠

٤١ - «حجر السرائر»- نبيل سليمان - أكتوبر - ٢٠١٠

٤٢ - «حَبَّات و محَبَّات» - المنصف المزغني - نوفمبر - ٢٠١٠
٤٣ - «الخطاب الشعري الحديث في الإمارات» - (الجزء الأول) - د. صالح هويدي - ديسمبر - ٢٠١٠
٤٤ -«بابل الشعر» - أحمد عبدالمعطي حجازي - يناير ٢٠١١
٤٥ -«مرايا النخل والصحراء» - د.عبد العزيز المقالح - فبراير ٢٠١١
٤٦ -«رغبات منتصف الحبّ» - زاهي وهبي - مارس ٢٠١١
٤٧ -«المحكمة» - كريم العراقي - مارس ٢٠١١
٤٨ -«منفى اللغة» - (حوارات مع الأدباء الفرانكوفونيين) - شاكر نوري - أبريل ٢٠١١
٤٩ -«الرواية العربية ورهان التجدد» - د. محمد برادة - مايو ٢٠١١
٥٠ -«مئة قصيدة وقصيدة» - د. شهاب غانم - يونيو ٢٠١١
٥١ -«حُلمٌ حقيقي» - محمود الريماوي - يوليو ٢٠١١
٥٢ -«قصائد في الذاكرة» - قراءات استعادية لنصوص شعرية - د.حاتم الصكر - أغسطس ٢٠١١
٥٣ -«جنوب غرب طروادة، جنوب شرق قرطاجة» - إبراهيم الكوني - سبتمبر ٢٠١١
٥٤ -«الفاتنـــة» - جمال بن حويرب - أكتوبر ٢٠١١
٥٥ -«الرواية والاستنارة» - د. جابر عصفور - نوفمبر ٢٠١١
٥٦ -«دونَ أنْ أرتَوي» - (قصائد مختارة) - خُلود المُعلا - ديسمبر ٢٠١١
٥٧ -«في الشعر الإفريقي المعاصر» - (جيل الرواد نموذجاً) - تقديم وترجمة د. حسن الغُرفي - يناير ٢٠١٢
٥٨ -«ينام على الشجر الأخضر الطير» - محمّد علي شمس الدين - فبراير ٢٠١٢
٥٩ -«أَصَابِعُ لُولِيتَا» - واسيني الأعرج - مارس ٢٠١٢
٦٠ -«أمين معلوف.. العابر التخوم» - بقلم/ عبده وازن - أبريل ٢٠١٢
٦١ -«رُباعيّات الرّاوي» - شعر/ حارث طه الرّاوي - أبريل ٢٠١٢
٦٢ -«الاستشراق وسحر حضارة الشرق» - د. إيناس حسني - مايو ٢٠١٢
٦٣ -رواية «فرسان الأحلام القتيلة» - إبراهيم الكوني - يونيو ٢٠١٢
٦٤ -«موريتانيا موطن الشعر والفصاحة» - موفق عبدالفتاح العاني - يوليو ٢٠١٢
٦٥ - «من أوراق صحفي عراقي» - محسن حسين - يوليو ٢٠١٢
٦٦ - «هذا العالم مجرد مسرح»، قصائد من الشرق والغرب - اختارها وترجمها: د شهاب غانم - أغسطس ٢٠١٢

٦٧ – «ألفُ حياةٍ وحياة» للشاعر الكوري: كُو أوْن – ترجمة: أشرف أبو اليزيد – أغسطس ٢٠١٢

٦٨ – «فضاء التأويل» – د. عبد السّلام المسدّي – سبتمبر ٢٠١٢

٦٩ – «الصعود إلى الجبل الأخضر» – سيف الرحبي – أكتوبر ٢٠١٢

٧٠ – «الفراشة» – بروين حبيب – أكتوبر ٢٠١٢

٧١ – «شؤون وقضايا مسرحية» – فرحان بلبل – نوفمبر ٢٠١٢

٧٢ – «رحلة في بلاد ماركين» – أمجد ناصر – نوفمبر ٢٠١٢

٧٣ – «هواجس الرواية الخليجية» – د. الرشيد بوشعير – ديسمبر ٢٠١٢

٧٤ – «أجراس الحروف» – سيف المري – يناير ٢٠١٣

٧٥ – «في النقد التكاملي» – د. إبراهيم محمد الوحش – يناير ٢٠١٣

٧٦ – رواية «الظل الأبيض» (تجربة في الاستنارة) – عادل خزام – فبراير ٢٠١٣

٧٧ – السّردُ و أسئلة الكينونة أو «التنزُّهُ في غابةِ السَّرد» – د. حاتم بن التهامي الفطناسي – فبراير ٢٠١٣

٧٨ – رواية «مدائن الأرجوان» – نبيل سليمان – مارس ٢٠١٣

ملاحظة:

سلسلة كتاب «دبي الثقافية» كانت تصدر أولاً تحت اسم كتاب «الصدى» ثم أصدر رئيس التحرير الأستاذ سيف المري قراراً بتغيير اسم السلسلة بعد صدور مجلة «دبي الثقافية» في مطلع أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٤؛ ليصبح اسمها «كتاب دبي الثقافية».

كتـــاب دبـــي الثقافيـــة

يصدر أول كل شهر ويـوزع مجانـاً مع مجـلة دبي الثقافية

رئيس التحرير : سيـف المـري

ها نحن ذا في «دبي الثقافية» نقدم لكم هذا الإصدار للناقد والروائي نبيل سليمان، واضعين نصب أعيننا ما نذرنا أنفسنا له، وهو نشر الثقافة العربية وتقديمها للقراء الأعزاء من خلال كتاب «دبي الثقافية» الشهري، مع حرصنا على التنويع في شتى مشاربنا الثقافية، تعميماً للنفع، وحرصاً على محاربة الرتابة المفضية إلى الملل، ولن نألوَ جهداً في إضافة المزيد.

سيف المري

كتاب دبي الثقافية

78

يصدر أول كل شهر ويوزع مجاناً مع مجلة دبي الثقافية

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع